الأعمال
الإبداعية

مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

قليل من الحب
كثير من العنف

فتحي غانم

كلمـة لابد منهـا

احداث واشخاص هذه الرواية من صميم الواقع المصرى كما عاصرته فى نهاية السبعينيات . وما سجلته فى الفصول القادمة اعتمدت فيه على وقائع كنت شاهد عيان لها ، الا انى اضطررت الى تغيير الاسماء والمواقع الجغرافية ووظائف الناس وذلك حتى لا اتعرض لمساءلة قانونية او ادبية لا مبرر لها .

وعلى اية حال . شخصية النائب العام فى هذه الرواية ، تقوم مقام شخصية حقيقية كان لها سلطة ونفوذ ، واما محافظ الاسكندرية ومدير الأمن بها ، فكلاهما يمثلان ــ فى الرواية ــ شخصيتين كانا فى الواقع على نفس الدرجة من الأهمية ، ولكنهما بعيدان تماما عن جهاز الشرطة كذلك المهندس « طلعت فرج » ابن المليونير او « الأسطى » او « الحاج مرسى فرج » بديل مناسب تماما لشخص حقيقى من رجال الأعمال لا صلة له بالهندسة ، ولكنه ايضا ابن مليونير واسطى وحاج .

وكذلك « المنولوجست » زكريا والد « فاطمة » كان فى الواقع يعمل فى مهنة اخرى لها صلة بالفن ، ولكنها بعيدة تماما عن فن المنولوج .

واعترف انى ارهقت نفسى ، وبذلت جهدا مضنيا لتغيير الاسماء والوظائف والاماكن .. وكم كنت اتمنى لو سمحت الظروف بان اروى الوقائع الحقيقية ، او كان القانون يسمح بذلك .... وكم كنت اتمنى لو ان بين البشر من يجدون فى انفسهم القدرة على مواجهة الناس والاعتراف بما ارتكبوه واقترفوه من جرائم وآثام

لعل الناس تاخذ من اعترافاتهم وتجاربهم عظة وعبرة ، وعندئذ ما كنت اجد انى فى حاجة لان احكى ما سوف ارويه .

واطمئن القارىء الى انى سأقدم له ما لدى من معلومات فى اقصر وقت ممكن . كما اريد ان اقول لمن يريد ان يتابع احداث الرواية ، انه سوف يتورط الى حد كبير معى ، لأنه سوف يشاركنى بالقراءة فى كتابة الرواية ، وسوف يكمل بخياله او افكاره ، او ردود افعاله ، ما لم يستطع الكاتب ان يقدمه ، من احكام على سلوك الأشخاص وتصرفاتهم ، ذلك لانى حريص على ان تكون العلاقة بين الكاتب والقارىء قائمة على الحرية الكاملة ، ولا اريد ان افرض احكاما على احد ، فاقول هذا طيب وذاك شرير ، وهذه بنت عفيفة ، وتلك فاجرة . ولقد كانوا فى الماضى يقولون « المعنى فى بطن الشاعر » حتى يحتفظ كل متلق للشعر او الفن والأدب عموما بحريته فى اختيار المعانى والأحكام التى يريدها . ومن هنا تكون قراءة هذه الرواية عملا يشترك فيه القارىء مع الكاتب وقد يتورط فى القراءة ، بينما هو يسعى الى تسلية او متعة لا تكلفه اى قدر من العناء .

وما حيلتى ، وما سوف ارويه يحذرنا من الحب ، ويقول لنا ان حياتنا لم تعد تحتمل الحب . فهو اخطر على حياتنا من العنف ولذلك نحن نحيا فى عصرنا الحالى بـ « قليل من الحب وكثير من العنف » فالى الذى يهمه ان يعرف المزيد ، ويجد فى نفسه الرغبة فى مشاركتى .. فى الوصول الى هذه المعرفة . اقدم له تلك الأحداث بحذافيرها ، كما وقعت بلا زيادة او نقصان .

ف . ع

الفصـــل الأول

انطلقت السيارة الجيب بالرجال الثلاثة مندفعة بهم فى طريق الأسفلت الممتد بحذاء شاطىء البحر متجهة بهم من معسكر شركة « اماركو » للبترول ، القريب من العلمين الى الاسكندرية ، رحلة اعتادوا القيام بها فى الخميس الأول من كل شهر عائدين الى البيت والأهل .

واذا كان لنا ان نصدق ما يقال ان الناس تصنع اقدارها بنفسها ، وانها تندفع الى مصيرها بوعى او بغير وعى بما تكسب أو تختار من مواقف فى الحياة ، فلا شك ان هذا يصدق تماما على هؤلاء الرجال الثلاثة فى العربة الجيب . المهندسان طلعت مرسى فرج ، ويونس عبد الحميد صفوت والسائق سيد العتر . ثلاثة عوالم مختلفة ، ثلاثة أكوان متباعدة ، ولكنها توشك أن تصطدم فى حركتها ، ويحدث بينها الاحتكاك الذى يتحول الى انفجار وحريق كبير .

كيف يصنع الرجال بأنفسهم هذا الذى لا يخطر ببال ، اية قوى تدفع النفس البشرية فتحولها الى كائن مفترس تتوارى منه خوفا ، أو ربما خجلا ، الحيوانات الضارية الجائعة فى الغاب .

كانوا ثلاثتهم صامتين ، كل واحد منهم مشغول بهذا الذى يعتبره سرا لا أحد غيره يعرفه ، وهو لا يدرى ، ان هذا السر الذى يتوهم أنه من صميم خصوصياته ، سوف ينفجر فى لحظات قادمة لتنفذ شظاياه فى لحم الاثنين الآخرين الجالسين معه فى الجيب .

كان المهندس طلعت مرسى فرج ، فى الرابعة والعشرين ، ربعة ، أسمر ، له وجه مربع ، رقبته قصيرة ، يكاد راسه الضخم يلتصق بكتفيه مباشرة عيناه سوداوان زنجيتان مثل شفتيه الغليظتين فيهما جوع أو نهم الحرمان أو شهوة ، مخبره مثل مظهره ، فهو اكول ، كان ايام التجنيد ياكل الزلط ، ويتنافس على اكل الطعام ويختطفه من رفاقه المجندين ، ويبتلعه بما فيه من صراصير ، يقال انه كان يتعمد دسها فى الطعام لينفر الجميع منه فيستحوذ عليه ، وكان اذا اكل بحث عن جسد المرأة ، فاذا افرغ طاقته ، عاد يبحث عن الطعام من جديد . ومازال حتى الآن يمارس نهمه فى تلك السهرات التى يقيمها فى خيمته بالمعسكر ويدعو اليها مستر كلارك الخبير الأمريكى ، اذ يوصى السائق سيد العتر بأن يجلب معه من الاسكندرية كميات هائلة من الجمبرى والكابوريا يقزقزها بينما يصيح مستر كلارك أنه اذا وقعت مجاعة فى مصر فسيكون المسئول الأول عنها هذا ال « صن أو .. بيتش » طلعت . فكمية الطعام التى يبتلعها كانت تكفى لاطعام فصيلة « الكابتن كلارك » يوما بأكمله فى فيتنام .

ابطأت الجيب ، لأن سائقها سيد العتر راى امامه قطيعا من الجمال تعبر طريق الأسفلت متجهة الى شاطىء البحر . والتفت طلعت الذى يجلس بجوار سيد ، يبحث بعينيه عن قائد الجمال والتقت عيناه بالمهندس يونس عبد الحميد صفوت جالسا فى المقعد الخلفى . وابتسم طلعت ، كان الخوف باديا على وجه يونس ، ذلك الوجه الشاحب ، وجه الولد البنت ، وجه ابن الأتراك الأصيل، انه ليس خائفا فقط من اصطدام العربة بجمل شارد ، انه خائف لأنه يحمل معه رغبة طلعت فى ان يقابل والده عبد الحميد بك صفوت . النائب العام . ليطلب منه يد ابنته ، شقيقة يونس ، زوجة له . مسكين ، انه مرتبك لا يدرك ماذا يفعل ، ولكنه لن يستطيع أن يرفض ، الملايين التى يملكها طلعت سوف تنتصر تنتصر وتزيح كل العقبات . ولولا أن هذا الولد هو ابن النائب

العام ، ولولا أنه شقيق تلك البنت سارة التي يريدها مهما كان ثمنها في سوق الزواج ، لكان له شأن آخر مع يونس هذا . ربما كان هجم عليه في ليلة من تلك الليالي في الصحراء وفتك به . وربما كان ساعده الخواجة كلارك ، وسيد العتر أيضا . فمنذ أن رآه لأول مرة ، وهو كمن يريد أن ينتقم منه ، كان بينهما ثأرا قديما ، أنه سخيف ، وسخافته بلا حدود . ناعم مثل الأنثى شعره طويل ينسدل على كتفيه ، يداه تتحركان في رخاوة ، جسده طري ، لا عضلات . ربما كان غلاما شاذ ، من يدري ، لم يذهب للتجنيد لأنه الولد الوحيد لأبيه ، ولكن اباه النائب العام كان سيعفيه من التجنيد حتى لو كان له عشرة اشقاء ، انه يقسم بشرفه ان يونس هذا كان انثى لولا ان تدخلت ظروف غير طبيعية ، فحدث خطأ ما في تفاعل الهرمونات في رحم السيدة امه ، ادى الى احداث تحوير في اعضائه في آخر لحظة فولدته ذكرا ، ومن يدري فقد يثبت فيما بعد انه كان بنتا ، فيجرون له عملية مثل تلك العمليات التي يقرأ عنها في الصحف عن رجال تحولوا فجأة الى نساء .

لا شك ان طلعت فرج يكره يونس صفوت ، ولا شك ان هذه الكراهية بدأت منذ رآه لأول مرة ، عندما مر عليه هو وسيد العتر ليأخذانه من فندق « سيسل » الى معسكر « أماركو » قال له سيد العتر ان الادارة طلبت منه أن يمر على المهندس الجديد ويأخذه معه في العربة التي تعود بالمهندس طلعت الى المعسكر . كان سيد يبتسم ساخرا أو محذرا ، اذ قال ان المهندس الجديد هو ابن النائب العام عبد الحميد بك صفوت . واردف معلقا على ذكاء الخواجات في شركة « أماركو » فوجود ابن النائب العام معهم في الشركة يضمن لهم اشياء كثيرة . كانت مع يونس في بهو الفندق بنت جميلة ، سبحانك ربي الخلاق المصور ، كيف تصنع مثل هذه المخلوقات ؟ ارتبك طلعت أمام نظرات البنت ، بدا في عينيها شيء من التعالي .. وعندما مالت على اذن يونس وهمست له ، وهي تراه قادما نحوهما ، أيقن انها تقول عنه كلاما فيه سخرية به ،

كلاما جارحا ، عيناها فضحتا ما تهمس به ، ومنذ تلك اللحظة وهو يكره يونس ، أما هذه البنت فقد تركت في نفسه جرحا تسيل منه مشاعر لا يستطيع ان يسيطر عليها او يحاصرها ، او حتى يحدد لها معنى . ولكنها على اى لا صلة لها بمشاعر الكراهية ، لأنه أرادها فريسة ، او غنيمة ، او جائزة يفوز بها . انك لا تكره فريستك ، حتى وانت تدبر وسيلة اصطيادها . ومنذ اللحظات الأولى اخذ احتياطات الصائد ، حجب عن يونس حقيقة انه متزوج ، حتى وهو مازال يظن ان البنت خطيبة ليونس ، او ربما زوجته . وكان قد فحص اصابع يونس بحثا عن دبلة خطوبة او زواج فلم يجدها ، ولكنه هو أيضا متزوج ولا يضع في اصبعه دبلة . كان لا يريد ان يعقد مقارنة بين تلك البنت وزوجته فاطمة ، كانت البنت ترتدى بنطلونا محزقا أسود فوقه بلوزة حمراء ، لها عينا قطة رومية ، شعرها أحمر منفوش ، « كدش » متوهج ، كأنه لهب مندفع من جسدها المشتعل بالأنوثة الى رأسها عندما سأل يونس وهما في السيارة هل هي خطيبته ، سمع النبأ الذى فتح له الطريق الذى يمضي فيه الآن ، انها شقيقة يونس . ارض معروضة للبيع ، قال لنفسه ذات مرة وهو شارد بعينيه في خلاء الصحراء .. لماذا لا اعترض طريقها عندما اعود الى الاسكندرية وما تكاد ترى الجاجوار حتى تركبها ويتم المراد . وانتظر الخميس الأول من الشهر ، وهو يراجع بخياله مشهد ركوبها بجواره .. تتتابع المشاهد حتى ينالها ، وقد يتذكر فاطمة زوجته التي ولدت له محاسن منذ عامين ، لا وجه للمقارنة بين فاطمة مهما كان جمالها ووسامتها ، وتلك اللهلوبة المتحركة المعجونة بماء العفاريت .

عندما اعترض طريقها في شارع صفية زغلول ، قالت له انها لا تستطيع ان تركب معه سيارته الجاجوار ، ولما رأت الجوع في عينيه قالت له بهدوء قاتل انها تذكره بأن اباها هو النائب العام وان ما يفعله قد يؤدي به الى السجن .. كاد ان يقبل التحدى ، ويهجم عليها وليكن ما يكون لولا انه تذكر ثروته ، وتذكر كلمات لأبيه الحاج مرسى فرج عندما سمع نبأ تعيين ابن النائب العام

شركة « اماركو » فبرق فى راسه خاطر انه يستطيع ان ينفذ الى البنت مباشرة عن طريق النائب العام نفسه . ولو بطلب يدها للزواج ، كان الحاج مرسى يشجع ابنه طلعت ويطمئنه ، وهو يهز راسه ببطء قائلا له ان اولاد البكوات والباشوات لا يساوون الآن فى مصر بصلة ولا فجلة ، كلهم شحاتين . فماذا يكون مرتب وزير أو نائب عام ، خمسمائة جنيه .. ستمائة ، سبعمائة ، الف فى الشهر ، ابوك يعتبر يومه اغبر لو كانت غلته اضعاف هذا المبلغ .

لم تخبر « سارة » شقيقها يونس بمحاولة طلعت .. ماذا كانت تقول له ؟ انه عرض عليها أن يوصلها بسيارته الى المكان الذى تريده .. او انها توهمت أن فى عينيه رغبة فى جسدها .. !!

عندما عاد يونس من الحفار داخل البحر بعد غيبته اياما ، دخل عليه طلعت الحمام عريانا ، ولفزع يونس كانه ليس رجلا انه يخجل من ذكورته ، يخجل من جسده ، ودعاه طلعت الى خيمته ودعا مستر كلارك ، واحضر سيد العتر الجوزة ، وبذل يونس جهدا يائسا ليكركر ويأخذ الأنفاس التى كان يخرجها بسرعة من فمه قبل ان يبتلعها فى جوفه ، كان يبدو عليه القلق والتوتر ولم ينتش ، ولم يفقد نفسه ولو لحظة واحدة ، ولم يشتم ، ولم ينغمس فى صحبة او محبة ، انه لا يعرف معنى المعاشرة ، ليس فيه ما يدل على أنه من جنس بنى آدم وان اباه آدم وامه حواء ، كلارك كان ينزعج منه . ورغم أن يونس يجيد الانجليزية التى تعلمها كما يبدو فى المدارس الأجنبية منذ الصغر ، وينطقها وكان امه انجليزية الا أن كلارك كان لا يستريح للحديث معه ، ويفضل ان يتحدث مع طلعت الذى يكاد يفك الخط بالانجليزية ، ولكنه استطاع ان يعلم كلارك مفردات كثيرة من العربية العامية « النبى عربى يا خواجة » و « خللى البساط احمدى » و « الاشيا معدن وكله السطه وآخر برمجة » و « عسل يا خواجة .. سكر عسل » والخواجة يحاول أن يتعلم ، ويقلد طلعت ، ويردد هذه التعبيرات كالببغاء وهو يضحك ويهتز بجسده الضخم ، وينسى نفسه ، أو ينسى انه خواجة قادم من أمريكا ، حتى يفسد يونس كل هذا بلغة المرحوم شكسبير ، فيضج مستر كلارك ويقول ليونس متهكما انه يخيل اليه أنه يعرف الانجليزية أكثر منه ، ورغم غيظ كلارك الواضح الا أنه لم يشتم يونس أبدا ، فهو لا يشتم الا الصديق ، ولذلك يتبادل الشتائم مع طلعت ، معبرا عن قمة الصداقة والاندماج والانسجام ، لا حواجز ولا قيود ولا ام ولا اب ولا اى شىء .. فوق الصداقة والجدعنة . كلارك يمنح طلعت الشتائم المنتقاة « صن أو بيتش » ابن الفاجرة . ويرد عليه طلعت « ستين صن أو بيتش » ستين ابن فاجرة .. كلارك خبير امريكى جدع ومجرم ، يفهم فى كل شىء ، خبير فى أنواع المخدرات ، مثلما هو خبير فى انواع البترول ودرجاته .

أما اذا قال طلعت نكته بذيئة ، رد عليها كلارك بعشر نكات اشد بذاءة ، فالمنافسة بين طلعت وكلارك تشمل النكات والشراب والحشيش والمرأة حتى عندما حكى طلعت ذات مرة لكلارك عن تجربة شذوذ جنسى مارسها وهو مراهق فى ورشة ابيه الأسطى مرسى فرج مع صبى فى الورشة ، وجد كلارك يحدثه عن تجاربه فى هذا المجال فى فيتنام ، ولما عرف كلارك ان سيد العتر كان يعمل صبيا فى ورشة الحاج مرسى فرج ، سأله ضاحكا اذا كان هو الصبى الذى تحدث عنه طلعت ، فلعنه سيد ، وشتمه بأقذع الشتائم وتماسكا بالأيدى ، ثم تصالحا . بالامس أقام طلعت سهرة فى خيمته دعا اليها يونس رغم اعتراض مستر كلارك وسيد العتر ، كان لابد وان يحاول مرة اخرى الاقتراب من يونس ، وكان قد صارحه بأنه يريد مقابلة والده ، وانه يريد أن يخطب شقيقته . كان يونس يقبع فى الخيمة كاللقمة فى الزور ، وانطلق طلعت يتحدث عن امجاد أبيه الحاج المليونير ، ليكتسح يونس ، وليقول له ان طلعت ابن رجل لا يقف ندا للنائب العام ، بل هو أكبر من ذلك .. هو ند لرؤساء وكبار .. فهو الذى تولى الانفاق على استقبال الرئيس نيكسون فى الاسكندرية ، لانه كان يعلم أن مجىء نيكسون لزيارة مصر يعنى أن القرش سوف يجرى بين الأيدى .

وأن العجلات سوف تجرى فى الطرقات ، فاذا ما جرت النقود وجرت العجلات انتعشت أحوال الناس ، ودالت دولة الأفنديات والموظفين من صغارهم الى كبارهم ، فهم الذين اساءوا الى البلد ، ونهبوها وسرقوها ، وجلبوا عليها الخراب والنحس ، ثم جلسوا على تلها . اقام الحاج سرادقات ، وجاء بمقرئين ، وذبح العجول ثلاث ليال تمتد من السرادق عند سيدى أبى الدرداء ، حتى نهاية شارع صلاح الدين عند الترام ، وحيث توجد الورشة الأصلية ، ورشة الأسطى مرسى فرج الميكانيكى ، الذى خرج منها غازيا ليتبوأ عرشه معلما ومليونيرا ، وسيدا صاحب كلمة . يقابله الرئيس الأمريكى فيشكر له صداقته الثمينة التى يحرص عليها لامريكا .

كان طلعت لا يكف عن الحديث .. يريد أن يفسل مخ يونس .. ان اباه اقوى فى هذا البلد من النائب العام ، واقوى واهم من اى وزير فى الوزارة .. المال فى يده يتيح له أن يأكلهم جميعا .. الوزير لا يركب المرسيدس الجديدة ، والجاجوار الجديدة ، كان طلعت مع ابيه الحاج وهو يشترى من المصنع فى المانيا ثلاث عربات مرسيدس مصنوعة خصيصا له ، كان مدير المصنع يقف فى انتظارهما عند البوابة ، يستقبلهما طبعا استقبالا يفوق استقبال الذى يعده لرئيس وزراء فشتان بين استقبال زبون يشترى ، ورئيس وزراء جاء ليقترض ، متسول يبحث عن قرض بلا فائدة أو منحة بلا مقابل ، كان حديث طلعت محموما ، لأنه يعبر عن مشاعر غامضة لا يستطيع تحديدها عندما تهاجمه ، وكان يواجهها بأن يقول لنفسه ان المال سوف يشترى سارة ، وانه واثق من ذلك ولكنه فى الحقيقة غير واثق لأنها امرأة من نوع غير الذى يعرفه .. نوع غير أمه ، وغير شقيقاته ، وزوجات أشقائه ، وغير زوجته فاطمة ، بنت بحرى ، الداهية الماكرة ، التى تلعب بالبيضة والحجر ، وهى تبدو ساكتة ساهتة ، انه ليس فى حاجة الى مكر وشطارة فاطمة وليس فى حاجة الى حبها .. وليس فى حاجة الى ابنتها محاسن .. انه يريد أن يكون له ولد .. وعندما يأتى هذا الولد فستكون أمه امرأة من تلك العينة التى تمثلها

سارة ، بشرط أن تكون شريفة طبعا ، والظواهر تدل حتى الآن أن سارة شريفة .. رغم ملابسها وكدشها الأحمر ، وربما هى شريفة بالرغم منها .. لأنها موضوعة دائما تحت الحراسة والرقابة ، ولكن هذا هو شأن كل النساء .. ناقصات عقل ودين ، ولا أمان لهن ، على أية حال الدنيا تغيرت ، وكما انتقل المال الينا ، لابد أن تنتقل الينا النسوان ، ولن تجد سارة ، اخت هذا الحيوان يونس ، من هو خير منه ، مالا وصحة وشبابا ، وفاطمة ليست مشكلة ، لا هى ولا ابنتها ، ولو صممت سارة على أن تكون وحدها بلا ضرة فسيطلق فاطمة ، ويترك لها محاسن تتسلى بها ، ولكن لا داعى لأن يستطرد مع هذه الخواطر قبل أن يصل الى نتيجة مع شقيقة يونس ، آه منكما انت وشقيقتك . كانت دهشة يونس فاضحة ، لم يصدق اذنيه ، وهو يسمع ان طلعت يريد مقابلة والده ليتقدم لخطبة شقيقته ، ولكنه استطاع ان يكتم انفعاله ، ولم يترك له طلعت الفرصة ليبدى رأيه ، قال له : الا شأن له كل المطلوب منه أن يعد اللقاء مع والده .. وانه لا يريد وساطته ، فهو ليس ابن رجل نكرة ، ولا يطلب مساعدة ولا معونة ، بل هو يتقدم ليغدق ، وليفتح أبواب خزائنه لمن يسعدها الحظ ويقع اختياره عليها . قال ليونس ، اذا كان هناك كلمة لابد ان يقولها .. فلتكن ان هذا العريس القادم البكم ، يستطيع بكلمة واحدة .. ان يضع مليونا من الجنيهات باسم عروسه فى نفس اللحظة التى تعلن موافقتها على الزواج به . وفتح يونس الغبى فمه ليقول كلاما خائبا . قال انه لا يظن ان المال هو الذى يغرى شقيقته فعاجله طلعت بطلبه الحاسم ، الا يتدخل ، والا يصدر أحكامه ، وان يترك الشأن لأصحاب الشأن ، وشعر طلعت انه مقبل على التعامل مع مخلوقات غريبة ، كل ما يتوقعه منهم اذا كانوا على شاكلة يونس ، هو العجز والنحس ، والنحول الذى يضرب على عقولهم .. ويشل حركتهم .. ان يونس هذا له رائحة عطنة تفوح من عقله .. كم يكرهه ، سحقا له . ولأبيه ولشقيقته ، وربما يأتى يوم يقول

فيه للنائب العام .. ابنك شاركني سهرات الحشيش ، وسوف ينسحق الرجل ويسقط من طوله اذا كان مثل ابنه ، لأنه يشعر بان ابنه ارتكب الجريمة ، ثم يعجز عن التصرف ، لأنه لن يتهم ابنه ويحاكمه بقانون العقوبات .. انهم يرتكبون جرائم ولا يتمتعون بها ، يرضخون للجرائم وهم خائفون من رفضها ، انهم نفاية البشر . ولسوف ياخذ سارة منهم يتمتع بها ، ويرغم انوفهم كيد لها .

سمع صوت سيد العتر يعلن أن البنزين يوشك أن ينفد .. ولابد أن يدخل بلدة الحمام ليزود السيارة بالبنزين .. فانهال طلعت عليه سبا وشتما ، كيف يحتمل ان يتاخر وصوله الى الاسكندرية .. انه يتعجل الوصول الى سارة .. يتعجل الأحداث. ولا يهمه ان فاطمة هي التي تنتظره الآن في بيتها بالابراهيمية . لا يهم أن يتاخر عنها الف يوم ، فهي لن تمل انتظاره ، وهو يعرفها جيدا ، فاطمة السهتانة ، اللئيمة اللذيذة .. مثل المهلبية ، انه يريد جسدها الذي غاب عنه ، جسدها الذي اعتاد عليه . اما سارة ، فهي مصيبة حارقة ، شخصية طاغية ، سوف يجد متعة لا حدود لها ، وهو يتحداها ويصطادها .. ويقتنيها .. سوف يقتحمها ، في حصنها ، حصن النائب العام ، بالسيارات ، والمجوهرات وارصدة البنوك سوف يكتسحها ببولدوزر لا يقاوم ، فمن الذي يقاوم هذا المال .

زعق طلعت في سيد ..

ـ هل جننت .. اتدخل الحمام لتعطلنا .. سوف اقتلك يا حيوان ..

الفصل الثاني

اما يونس ، فاوشك ان يقول ، انه سيتاخر عن قطار الخامسة المسافر الى القاهرة ، ثم عاد وسكت ، واستانف مراقبته لامواج البحر الهائجة المتلاطمة مع الصخور بحذاء الشاطيء .. تتدافع نحوه قطعان من الخيول البيض ، في سباق محموم يذكره بتلك التتابعات الموسيقية التي حاول ان يسمعها في ليالي الصحراء ، فسخروا منه . كم يسعد بان يقضي اسبوعا بعيدا عن طلعت وهذا الثعبان اللزج سيد العتر .. كم يسعد لو أنه هبط من السيارة الآن ، واتجه مباشرة الى البحر فاحتضنته هذه الأمواج وحملته بعيدا الى اى مكان في العالم ، بعيدا عن امثال طلعت وكلارك وسيد العتر ، ولكن ها هو طلعت يريد ان يلاحقه .. يريد ان يقابل والده في الاسكندرية أو القاهرة .. ان طلبه محال ، سارة سخرت من طلعت عندما راته ، قالت : انه قد يكون جزارا أو حلاقا، او اى شيء .. الا ان يكون مهندسا . اى ربكة سوف يعاني منها يونس بعد ان يسمع طلعت الرفض . ولكنه وقح ، وصفاقته تستحق ان تجد من يشكمها .. انه دائما يتورط بسبب تعامله مع هؤلاء الأشخاص ، خاصة امثال طلعت ، وان كانت صفاقته لا تخلو احيانا من طيبة ، وطموح قوى كانه طموح اطفال ، انه بكل تاكيد انسان غير مستقر .. أهوج الى أبعد حد .. ولكنه بكل تاكيد له نفوذ ، وثراؤه مخيف .

كانت اول مفاجأة ليونس ، عندما جاءه طلعت وقدم له نفسه

باعتباره مهندسا أقدم منه في شركة « أماركو » • لقد خدعه والده النائب العام ، فهو يتذكر كلماته التي قالها له امام والدته في فخار وزهو شديدين ، أنت يا يونس اول مهندس مصري يعين في الشركة. الأمريكان والطليان رحبوا بك •• •• وكانوا مهتمين جدا عندما عرفوا أن لي ابنا أريد تعيينه في الشركة •• قبلوا على الفور بترحاب شديد •• اول مرتب خمسمائة جنيه في الشهر سيصل خلال ستة شهور بالمكافآت الى ثمانمائة جنيه •

كانت زهيرة هانم في غاية الانبهار بالانجاز الذي حققه زوجها سعادة النائب العام •• شيء تستطيع ان تزهو به ، وأن ترويه في جلساتها ، فتقهر العوازل ، وتفقأ عيون الحساد ، وتصور يونس انه الفارس الأوحد ، المنتصر الذي فتح عكا • وفي خلال لحظة واحدة ، تبخرت الاوهام •• لقد اكتشف ان مهندسا مصريا من نفس دفعته من جامعة الاسكندرية قد سبقه بثلاثة شهور على الأقل، ومن هو انه ابن المليونير مرسي فرج ، الذي كان منذ سنوات قليلة ميكانيكيا له ورشة لاصلاح السيارات في شارع صلاح الدين • كيف تفوق ابن الميكانيكي على ابن النائب العام ، كيف وصل طلعت الى شركة « اماركو » قبله ، آه لو عرفت زهيرة هانم بكل عظمتها وفخامتها كسيدة مجتمع ،ان هذا الولد طلعت ، اقتحم الشركة الامريكية الايطالية قبله ، وان أباه لا يتحدث عن وزراء ومحافظين ، بل يتحدث عن علاقات على مستوى رؤساء دول ورؤساء شركات عالمية ودولية •• هل جاء طلعت الى هذه الشركة بنبوغه ، مستحيل •• لانه ليس من أوائل دفعته••قال صفوت بك فيما بعد، فيما يشبه الاعتذار له ، من ناحية وما يشبه اللوم له من ناحية أخرى •• لانه يحرجه ويربكه بأسئلته •• انه تحرى الأمر •• فعرف ان المليونير مرسي فرج والد المهندس طلعت زميله في الشركة . له صلة برئيس مجلس ادارة شركة أماركو الايطالي ، تعود الى أيام كان المعلم او الأسطى فرج يعمل صبيا في ورشة السنيور ماركو وشريكه السنيور ديلالي • وقد انفصل ديلالي عن ماركو عام ١٩٣٥ منذ حرب ايطاليا والحبشة ، وترك ماركو الورشة

للأسطى فرج عندما اعتقل أثناء الحرب العالمية الثانية •• ولكن الأسطى فرج لم يستولي على الورشة الا في ايام عبد الناصر عندما ترك الأجانب البلاد بعد موجات التمصير والتأميم •

والآن عاد ماركو الى الاسكندرية مستثمرا في البترول •• وكان اول مكان زاره هو ورشته القديمة ، وأول شخص التقى به في الاسكندرية هو المعلم مرسي فرج • الذي حصل في الحال على كل عمليات النقل والصيانة لشركة أماركو ، ليتحول في بضع سنوات الى واحد من أكبر اثرياء الاسكندرية بل مصر كلها •• وكان ابنه طلعت هو أول مهندس مصري يعين في الشركة ، فدخلها وكأنه احد اصحابها •• فالكل يعلم في الشركة •• ان الذي امر بتعيينه •• هو صاحبها ، ورئيس مجلس ادارتها السنيور ماركو بنفسه •

حاول يونس ان يصاحب طلعت ، اراد ان يتفاهم معه •• ان يقترب على الأقل منه ، ولكن طلعت حيوان بدائي ، حيوان بمعنى الكلمة ، مندفع بلا حدود لا انضباط ولا تربية ، لا صلة له بالتهذيب والأدب ، يفعل ما شاء ، تخرج من فمه ألفاظ بذيئة جارحة ، وتخرج من فمه او جسده أصوات مقززة ، وكأنه وحده لا يوجد من يراقبه او من يخجل منه ، أحيانا يتهور ويبدو انه لو ترك نفسه كما يريد ، ربما انتحر في لحظة اندفاع •• لن ينسى يونس تلك الليلة التي سكر فيها طلعت مع مستر كلارك ، وشربا من الحشيش ما يكفي لتخدير مائة رجل ، ثم انطلق طلعت يهاجمه بلا مبرر ، كان سخيفا الى أقصى حد ، فقد عقله تماما ، كانت لحظة غريبة ، عندما هجم عليه طلعت وامسكه من كتفه وهو يصوب اليه عينيه المجنونتين ، كأنه يريد ان يقول بهما : انا قاتل او مقتول لا يهمني ما يحدث •• ولن يقف في طريقي شيء كان طلعت يسأله عن اسم امه •• ما اسمها •• هل انت مكسوف •• لماذا يحمر وجهك •• أليس لأمك اسم كان اصرار طلعت والحاحه خارجين عن أي منطق •• ان يونس لا يخجل من ذكر إسم امه •• احيانا يقرأ اسمها في المجلات •• كل اصدقاء والده يتادونها باسمها ••

زهيرة هانم . اية غرابة فى هذا . طلعت وحده .. وبموقفه الغريب . ولهجة سؤاله . ونظرات عينيه . هو الذى جعل بكل هـذا من البوح بالاسم شيئا معقدا . كأنه فضيحة .. عيناه تلمعان بالشر . وربما بالكراهيـة . وان كان يونس لا يجد مبررا لأن يكرهه طلعت .. ولكن ها هى بشرته السمراء تكتسى بصفار غريب . الدم يغيض من جسمه . وحبات عرق على جبينه . كأنه محموم يهذى . ويردد .. لماذا لا تخبرنى باسم امك . أريد أن اعرفه . وركب العناد راس يونس . فلاذ بالصمت . ليزداد طلعت غضبا او هياجا . او رغبـة فى التدمير والانتحـار . انه يحـارب ليعرف اسـم أم يونس . يقاتل . وعيناه تضيقان فى تصميم . الشر يكمن فى اغوارهمـا . وتتسع ابتسامته الصفراء . ويعلن لاهثا انه اشجع من يونس وانه سيخبره باسم امه هو .. بشرط أن يعرف هو ايضا اسم امه .. كأنهما يتبادلان الأسرى .. اسم الأم مقابل اسم الأم .. وصمت طلعت برهة . وهو يحدق فى وجه يونس وقد احمرت عيناه . ثم قال فجـاة فى خجل حقيقى وغريب لأنه غير متوقع منه . خجـل تصاحبه ابتسامة باهتة . وهمس .. امى اسمها بكيزة . وخفض عينيه . فقال له يونس فى دهشـة ان هذا الاسم ليس فيه شىء يثير الخجل . فقال طلعت وقد رفع صوته قليلا :

ــ بكيزة اسم غير مفهوم .. اسم عبيط .

فقال يونس :

ــ يبدو أنه اسم تركى .

فقال طلعت بسرعة :

ــ اسم فظيع .. لا احبه .

ثم التفت الى يونس . وسأله هذه المرة بلهجة فيها توسل :

ــ والآن ما اسم أمك ؟

همس يونس .. فلم يعد النطق باسم أمه فضيحة بعد ان تراجع طلعت وظهرت عليه فيما يشـبه المعجزة . عـلامات خجـل :

ــ زهيرة ..

فردد طلعت الاسم على مهل .. وكأنه يتذوق طعم الاسـم فى فمـه :

ــ زهيرة .. زهيرة .

وصاح فجأة مهللا . وقد استعاد عنفوانه .. زهيرة .

ــ أى انك ابن زهيرة .. ابن الست أم يونس .. زهيرة . بماذا يناديها أبوك .. زهيرة أو أم يونس .

وجعل يصيح . ويرفع عقيرته . يريد أن ينفى انه كان منذ لحظات يتظاهر بالخجل :

ــ امك اسمها زهيرة .. الست خجلا من هـذا الاسـم البلدى ؟ هل توجد امرأة اسمها زهيرة ...

هـا هـا هـا .

ثم قال بلهجة تمثيلية .. متعالية . فيها تشف ورغبـة فى العـدوان :

ــ اسم بكيزة أكثر اناقة .. من زهيرة . امى أحسـن من امـك .

كانت ليلة غريبة . كأنها كابوس . وكان اغرب منها ما حدث فى صباح اليوم التالى .. عندما جاءه سيد العتر . خائفا . من غضبه وقـال له :

ــ لا تصدق طلعت .. أمه ليس اسمها بكيزة .. انه فشار وانا اعرف امه .. اسمها حميدة .

وفكر يونس أن يواجه طلعت بما عرفه .. وان يفضحـه ويذله تماما كما حاول طلعت أن يفضحه وان يذله . ولكنـه لم يجرؤ وشعر ان طلعت يتألم لأن أمه اسمها حميدة كان بينـه وبين هذا الاسم عداوة .. والآن ها هو ابن حميدة .. الست أم طلعت . يريد أن يتزوج سارة ..

واضح انه يريد ان يقفز بأموال ابيه الى مركز اجتماعى يشعر انه محروم منه .

بالأمس ، كان طلعت يتحدث عن ثرائه ، ونفوذ والده .. ولكن مهما كان الثراء والنفوذ ، فلا قيمة لهما اذا كان صاحبهما لا يعرف كيف يتكلم وكيف يتعامل دون ان يسقط فى حضيض السوقية ، ولا يخرج فى تصرفاته عن اسلوب الرعاع ، ويعيش على الأرض وكأن لا شىء آخر غير شهواته ونزواته يستحق الاهتمام .

كانت سوقيته فوق اى احتمال ، وهو يسأله :

ـ هل انت متأكد ان والدك فى الاسكندرية ؟ !

قال يونس :

ـ نعم ..

فاستمر طلعت يسأله :

ـ وأمك .. واختك طبعا مع ابيك ..

انقبض صدر يونس .. وهو يسمع كلمات طلعت تنطلق كالحجارة .. أمك .. اختك .. ابوك .. كلمات كالدبش ، ليس هكذا يتحدث الناس .

قال يونس بصوت خفيض ، محاولا تلطيف تلك السوقية الفاضحة التى لا يملك مواجهتها حتى لا يستثيرها ..

ـ نعم ..

فسأله طلعت :

ـ ولماذا لا يبحثون عن بيت يشترونه فى الاسكندرية ...

فهمس يونس بدهشة :

ـ بيت ؟

فعاجله طلعت بالسؤال :

ـ كم يدفع ابوك .. وانا اجد له البيت ؟ !

قال يونس :

ـ يدفع الشىء المعقول ..

قال طلعت بالحاح :

ـ يدفع المعقول .. يعنى .. كم ؟

اجاب يونس :

ـ انه يريد ان يستأجر شقة .. فى حدود اربعمائة او خمسمائة جنيه فى الشهر ..

قال طلعت بامتعاض وسخرية :

ـ احسن له ان يستأجر بهذا المبلغ عشة فراخ .

ثم اردف بسرعة :

ـ لكنى استطيع ان اجد لكم ما تريدون ..

انه يلوح بالرشوة .. يريد ان يشترى سارة بأمواله .. هل هذا ممكن .. طبعا مستحيل .. ولكنه سوف يمتحن اهله سيمتحن اباه وأمه وشقيقته .. يمتحنهم .. وهو واثق من نجاحهم .

سؤال الامتحان هو ، هل تقبلون هذا الزوج بكل ما فيه من بذاءة وسوقية وانحطاط ؟ !

الاجابة معروفة ومضمونة .. فكل ملايين الأرض لا تعوض من سوقية طلعت فرج . المال لا قيمة له اذا تملكته الحيوانات .

كانت العربة الجيب ، قد دخلت الحمام .. وانتقلت من مكان الى مكان ، ويونس مستسلم لما يراه عبر النافذة ، من ازقة ، وبيوت صغيرة ، وحوانيت ، حتى سمع صوت سيد العتر يقول :

ـ لو قلنا لهم فى مركز الشرطة ، ان معنا ابن سعادة النائب العام .. سيعطوننا البنزين فورا .

حاول يونس ان يقول شيئا ، ولكن الصوت لم يخرج من فمه ، واكتفى بمراقبة الصوت الذى يريد ان يخرجه ، وهو يهز

اعماقه . محذرا من استخدام اسم والده . فليس هذا هو التصرف السليم ، وهم يفرضون عليه الحرج بمثل هذا الإعلان المج عن والده واستغلال اسمه .. ماله هو ووالده انه ليس لعبة ولا اداة تتحرك باذن والده .. وهو لن يسمح لأحد بان يستغله .. ومع ذلك ها هي السيارة مندفعة . يثير الغبار حولها وخلفها . وها هي تقف امام مركز الشرطة . ويقفز سيد العتر من السيارة .. ويختفي في مركز الشرطة . بينما يلتفت طلعت اليه .. وكأنه ينتهز فرصة وجودهما وحدهما .. ويقول له :

— مهما تأخرت .. فأرجو ان تخبر والدك باني اريد أن اراه في اسرع وقت ..

ثم أردف طلعت :

— وسوف اتصل بك غدا صباحا .. لاعرف منك الموعد ..

هز يونس رأسه في وجوم ..

ولم يكترث طلعت لوجومه .. فلن يكون يونس هذا عقبة في طريقه بأي حال من الأحوال .

وجاء سيد العتر لاهثا يطلب من يونس وطلعت التفضل بشرب فنجان قهوة مع حضرة الضابط .. واعلن سيد النبأ الذي جاء به الى يونس ..

— حضرة الضابط يقول ان سعادة النائب العام والدك . سافر صباح اليوم الى القاهرة .. في قضية كبيرة .. ضبطوا فيها قنابل وديناميت لو انفجرت تنسف نصف القاهرة ...

وصاح طلعت غاضبا

— يخرب بيتك .. يعني ساضطر الى السفر الى القاهرة .

ولم يفهم سيد العتر ما الذي يعنيه طلعت فرح بانه مضطر للسفر .. ولو كان في ظروف اخرى لسعى لمعرفة السبب ولكنه في تلك اللحظة كان مشغولا .. بخطته التي دبرها .

الفصـــل الثـــالث

لن يخطر ببال احد ان سيد العتر قد دبر عن عمد هذا التوقف في بلدة الحمام . كان قد شرع في تنفيذ خطة درس تفاصيلها واعد لتنفيذها بدقة متناهية . فهو يعلم ان في هذه الساعة من عصر يوم الخميس تتوقف محطة البنزين الوحيدة في بلدة الحمام عن الضخ ، اذ يغيب صاحبها عن البلدة ، ولا يعود حتى صباح الجمعة .

وهو يعلم ان المكان الوحيد الذي سوف يلجأ اليه طلبا للمعونة . هو مركز الشرطة ، وهذا على وجه التحديد هو هدفه . أن يثير ضجة وان يعلم جميع من في المركز من اصغر عسكري الى اكبر ضابط . ان سيد العتر هو سائق سيارة يركبها ابن سعادة النائب العام . ولسوف يسارعون بامداد السيارة بالبنزين مجاملة للنائب العام وابن النائب العام . وكان سيد يتوقع ان يرتبك يونس . فقد درسه وتفرس فيه طوال الشهور الماضية ، وعرف انه خجول يستر خجله ترفعا وغرورا يثيران كراهية سيد . ولكنه يعلم أيضا ان يونس لا يقاوم الالحاح . يستسلم بسرعة للضغوط الاجتماعية .. وسوف يترك سيد يفعل به ما يشاء .. وهو منكمش متقوقع في نفسه . وكانت المشكلة بالنسبة لسيد العتر تنحصر في طلعت فرح .. فهو وقح وسافل ، وسوف يثار من الضجة التي تثار حول يونس ، واهتمام ضابط المركز به .. وترديده لاسم والده سعادة النائب العام . لن يحتمل طلعت ان

يكون نائما ، او لا يحتل مركز الصدارة في اية جلسة ، وها هو ما كاد يسمع ان الضابط يدعوهما الى فنجان قهوة حتى انطلق يسب ويشتم واسرع بالهبوط قبل يونس حتى يسبقه في دخول مبنى المركز ، وها هو يتظاهر بانه سيسافر الى القاهرة ليلحق بالنائب العام ، وفسر سيد الأمر على انه محاولة فاضحة من طلعت ليوهم العساكر انه هو ابن النائب العام . لقد جن ابن المحروقة . حتى هذه يريد ان يخطفها من سيد .. الذى دبر وخطط ليعلم الجميع انه على صلة بالنائب العام ، فاذا ما صادفوه بعد ذلك يقود السيارة التى يسرقها .. لم يسهوا الا لسبب امعنوه الى زعمهم وهى ان هذا الشخص على صلة بالنائب العام . فطلق الاستامات وسوارق بسرعة ريب وانظرو . ولن يخطر ببال احد ان السيارة التي يقودها سيد ، مهربة ، او مسروقة ، هذا هو المبرر المشروع لأن يصنع سيد العتر هذا المشهد ، فما هو مبرر طلعت ولماذا يزعم انه سيسافر الى القاهرة ليلحق بالنائب العام . انه ذاهب الى فاطمة زوجته بالاسكندرية ، ولن يذهب الى النائب العام . واذا ترك فاطمة ، فسوف يذهب الى كاباريه « الديك الذهبي » حيث ترقص صاحبته جمالات . فلماذا يكذب . أم هي غريزة غامضة مركبة فيه تجعله يشعر بما يريده الآخرون ، خاصة ما يريده سيد العتر ، فيهجم عليه ويأخذه منه فاذا كان سيد يريد ان يفهم أمام الناس انه على صلة بالسلطة ممثلة في النائب العام . فهو يسارع ويفهمهم انه على علاقة حميمة بالنائب العام وانه مضطر الى ان يلحق به في القاهرة . كل شيء يخطفه ، مثلما فعل مع فاطمة ، سيد أرادها لنفسه بل هو واثق انها في وقت ما كانت لا تحب سواه ، فهو الوسيم ذو الوجه الصبوح في تلك الأيام ... أيام الطفولة ، كانت المنافسة شريفة ، والندية متوافرة بين سيد وطلعت .. كلاهما ابوه ميكانيكي ، كلاهما بيته مثل بيت الآخر . طلعت ينام في حضن أم سيد ، وسيد ينام في حضن أم طلعت .

ولكن الأيام دارت ، وها هو طلعت له المال .. وله فاطمة ،

وله الهيصة ، أما سيد العتر ، فليس له شيء الا ما يخطفه .. وليكن . فهو سوف يخطف كل ما يستطيع ان يخطفه .. وهو سوف يسرق كل ما يستطيع ان يسرقه . ولسوف يجمع من المال ما يطفيء به النار الحارقة في صدره ، عندما مات الأستاذ زكريا الفنان المونولوجست ابو فاطمة .. ظن سيد العتر انها سوف ترضى به .. قال لها طلعت لن يتزوجك .. ولن تصلح حياتك معه .

وعندما صممت على رفضه ، هجم عليها لولا انها عضته وسال الدم من اصبعه . ولولا ان تزوج طلعت فاطمة ، لكان استولى عليها . كان يرفض عليها ان تخضع له . وان تعرف من هو سيد العتر . ولكن الفقيرة الحقيرة باعت جمالها لطلعت ، باعت جسدها بالمال

كان صوت طلعت يجلجل في حجرة الضابط ، بينما سيد مشغول بالاشراف على رؤية السيارة بالبنزين وكما توقع سيد كان طلعت يسارع بمقاطعة يونس كلما فتح فمه وشرع في الكلام . حتى عندما انطلق الضابط يروى عن العصابة التى تاتمها واشرف على التحقيق فيها سعادة عبد الحميد بك صفوت النائب العام .

كان طلعت يحول الموضوع بسرعة . فهو لا يطيق لحظة اهتمام يستأثر بها يونس ، أو ابوه ولا يعنيه ان يسمع عن مفاجآت كادت ان تنسف ميونا واحياء . ولا يظن ان في مثل هذا الحديث فائدة من اى نوع . لفظ في لفظ ، ولا قيمة لهذا الكلام والدنيا ليست هذا الكلام الطائش الذى يرددونه . وليست هذه الأحداث التى تبدو وكأنها أكاذيب ، او قصص يؤلفونها في السينما . وهو لا يكترث بحماس الضابط لبقوم تدور في الرواية طالما هذا الحماس موجه الى يونس ، الذى لا يستطيع ان يتجاوب مع من يحدثه ، وها هو منكمش يتراجع في جلسته كأنه سيختفي بطريقة ما ، بمعجزة ما ، في ظهر مقعده ، ان يونس أضعف من ان يحصل على اهتمام أحد . انه مخلوق غريب يختلف عن البشر كما يعرفهم طلعت ، والضابط المسكين ، يحاول ان يجامل وان يتملق

وما هو يعرض على يونس ان يتحدث في التليفون مع الاسكندرية اذا شاء وقبل أن يجيب يونس بشيء . كان طلعت تولى مهمة الاجابة بينما يزداد يونس انكماشا ، وهو عاجز تماما عن التعامل مع احد . متى يدرك الناس ، ان يونس وامثاله صنف من الناس او الحيوانات لا قيمة له ويوشك أن ينقرض .

كان سيد العتر في هذه الأثناء يدب ويدور ، ويدخل الحجرة ويخرج منها ، ويتحدث كالغراب ، وما هو يرفع يده بالتحية مقلدا تحية الجنود لرؤسائهم ، معلنا ان « كله السلطة يا افندم » كان قد تعرف على احد الجنود ، وسؤال يدور الآن في رأسه اذا كان يستطيع ان يخفي السيارة التي يسرقها في فناء مركز الشرطة بمساعدة هذا الجندي . ام الافضل ان يقودها كالمعتاد الى معسكر « اماركو » حيث ورشة الصيانة التي يشرف عليها وحده وقبل ان يصل سيد الى قرار خرج من افكاره ، ليؤدي مشهدا تمثيليا ، عندما صمم على أن يدفع ثمن البنزين ، رغم محاولات الضابط اعتبار المبلغ على حساب الخدمة الميكانيكية او حتى على حسابه الخاص . فمركز الشرطة لا يبيع البنزين . وليس من مهامه تحصيل اموال من بيع أو ايجار . ولكن عملية دفع ثمن البنزين كانت نقطة هامة في خطة سيد العتر ، فهو يريد تسجيل المشهد في ذاكرة الجميع ، يريد أن يخرج محفظة النقود من جيبه امامهم ، ويعد الأوراق المالية ، ويسلمها للجندي ، فيراه الجميع ويعلمون مدى دقته وحرصه على أداء واجباته وهو الذي يعمل في خدمة النائب العام ، او ابنه ، لابد ان يكون على المستوى الرفيع من النزاهة والامانة ، حتى يدحض أي خاطر يجول برأس أحد من رجال هذا المركز اذا ما قابلوه اثناء مهامه الليلية ، عندما يتحول سيد العتر ، الى سيد فولفو او بيجو ، او مرسيدس . عندما يؤكد سيد العتر وضعه كأشهر واخرا لصوص السيارات في الاسكندرية، وأسرع من يفك السيارة ، ويحولها في لمح البصر الى قطع غيار معروضة في السوق .

عندما عاودت السيارة الجيب انطلاقها على الطريق الاسفلت

مستأنفة رحلتها الى الاسكندرية ، كان سيد يهنىء نفسه على نجاح خطته ، فها هو ما يراه في خياله يتحول الى واقع ، انه يرسم صورته في صبر واناة كواحد من المقربين الى السلطة . وهو منذ أن اشتغل يونس بالشركة ، وهو يروج المعلومات حول نفسه في المقاهي ، وبين الورش والجراجات وفي اقسام الشرطة بالمدينة . سيد العتر على صلة بالنائب العام ، ربما قريب بعيد من اقاربه ، سيد العتر على صلة بالحكومة . سيد العتر عنده الأخبار .

وهكذا كان يدور الهمس حول سيد ، حتى شهد نظرات الضباط فيها معرفة به ، خاصة ضباط المباحث ، والمخبرين الذين يتعاملون معهم .

أصبحوا يتحدثون معه وكأنه واحد منهم ، كأن بينهم قرابة او ينتمون الى قبيلة واحدة . وكان لابد ان يلتف حول سيد من لهم طلبات يستطيع ان يلبيها النائب العام ، طبعا عن طريق ابنه ، وهل يرفض الأب طلبا لابنه ، خاصة وهو ابنه الوحيد ، وهل يرفض ابن النائب العام ، طلبا لسيد العتر ، وهو الذي يسهر معه ، ومع الحشيش الامريكي ، ويأخذ الجوزة من يد سيد ويبقى معه حتى الصباح . كان سيد يعلم ان يونس لن يفعل شيئا اذا ما قدم له طلبا من تلك الطلبات التي حملها كوسيط بين صاحب الطلب وابن النائب العام .

فمنذ أول محاولة ، ارتبك يونس ، واخذ منه الورق الذي جاء به سيد ، ووعد بأن يخاطب أباه عندما يعود الى بيته في الاجازة ، ولكن في اليوم التالي وقبل ان يأتي يوم الاجازة جاء يونس متجهم الوجه ، وكأنه قد اتخذ قرارا خطيرا ، وقال بانفعال وعصبية لا مبرر لهما في مخاطبة سيد انه يرفض ان يقدم اي طلب لوالده ، فالنائب العام ، او اي رجل قضاء غير مسموح بالتدخل في قضاياه ، لأنها مسألة ضمير واقتناع بعد تحقيق . وعبثا حاول سيد ان يقول له ان الطلبات التي معه لا صلة لها بالقضايا ، وانها طلبات بسيطة من جنود صغار بينهم من يريد نقله الى قسم شرطة قريب من بيته ، أو من يريد نقله الى حرس الوزارات

او الامن المركزي . كلها طلبات انسانية يا يونس بك . ولكن يونس كان قد اعتق ابديه واعتق عقله ، ودس الأوراق في يد سيد وامره الا يعاود الكرة ويطلب منه شيئا . ومع ذلك تحقق كل ما طلبه سيد . لأنه كان ينتهز فرصة وجوده بالاسكندرية ، فيلتقي بسائق سيارة النائب العام ، ويصاحبه ، ويحكي له عن ابن سعادة النائب العام ، بل ويتطوع احيانا بوضع سيارة الشركة وجهوده كسائق ، في معاونة سائق النائب العام ، الذي يكلفه سعادة البك بأن يذهب الى بيت احد رؤساء النيابة لاحضاره ، الى فندق سيسل حيث يقيم النائب العام ، او يكلفه بأن يعود بضيفه الى بيته بعد انتهاء الزيارة . ولقد حدث هذا مرتين . استغلهما سيد أحسن استغلال . فكان يروي للراكب الذي تطوع بنقله ، عن صلته بالبك الصغير الباشمهندس يونس . ويروي قصصا عنه وعن نشاطه في الصحراء ، ومرتبه الكبير الذي يفوق مرتب سعادة البك والده . وفي النهاية يتقدم سيد الى ضيف النائب العام بالطلب الذي لديه . وهكذا تم نقل عبد الرحمن الدراوي الى شرطة الجمارك . ونقل حسان البلبوطي الى المحافظة . ان سيد يستطيع ان يخترق الحواجز ، بنعومته شطارته ، وبوسامته . الناس تستريح لوجهه الوسيم . وهو يعلم ذلك ويعلق عليه اهمية كبرى . ذلك الوجه العربي الذي جاء به احد اجداده من المغرب الى الاسكندرية في سالف الزمان انه يشعر كلما خرج من الاسكندرية متجها الى الغرب في طريق الاسفلت كما لو كان عائدا الى المكان الذي جاء منه اجداده هناك في أقصى الطريق . هذا الشعور يمنحه قوة لا حدود لها لأنه الشعور الوحيد الذي يمنحه بعض الراحة . رغم انه لم يكمل الطريق ابدا حتى منتهاه ، سيأتي يوم ويستمر في انطلاقاته بعيدا عن كل ما يخلفه وراءه ، حكاياته القديمة . ابوه الذي مات قبل الأوان وتركه للفقر . وضاع منه دكانه الذي استولى عليه صديقه مرسي فرج . فاطمة التي كانت اجمل احلامه . واجمل ما لمست يداه ، وما رأت عيناه . والتي اهانته ، وعضته واسالت الدم الذي كان يفور ويحن لها . فاطمة

افقر من في الحي ، بنت زكريا الأمبوبجي . عقدت صفقتها مع طلعت ، صديق الطفولة الذي اصبح السيد بينما السيد اصبح الخادم . انه لن يضيع في هذا البلد . ولن يخدعه احد . وهو لن يتفرج على طلعت وامثاله يهبرون وينهشون اللحم ثم يتركون عليه مصمصة العظام . هل كل هذا يحدث له ، لأن اباه الفقير مات . كانت الحجرة التي ينامون فيها رطبة ، والباب يندفع منه تيار هواء ، صارخ وصاص ، وقالوا ان غيبا اصاب الأسطى العتر كان يوم خميس مثل هذا اليوم . وكان سيد الصغير يرتع بيكي التصادم من الناكي العات . عندما سمع الأسطى مرسي فرج ينادي على الأسطى العتر .. مالك يا ابو سيد . صوت مرسي في ذلك اليوم .. في تلك اللحظة وسؤاله ، كان بداية النحس . ان سؤالا عن الصحة او عن المال ، او عن السعادة اي سؤال عن حال الانسان . يكون احيانا كسكين يشق الغيب يمزق استارا وحجبا كانت مسدلة . فيمزقها السؤال ، ويرفعها ، فتندفع كل الشرور والامراض والحماقات انقبض قلب سيد ، وهو يسمع صوت مرسي فرج يسأل ويقول لابيه « مالك ؟ » بعد يومين . من الخميس الى الأحد ، كان الأسطى العتر قد مات ، واشترى مرسي الورشة . وضاعت من سيد فاطمة بنت الشحات الامبوبجي ، الذي كان يقول المونولوجات والنكات في الأفراح ، ويضربونه على قفاه كل ليلة ، كان الف رحمة عليه ، يأكل بقايا موائد الأفراح ، ويدس بعض الطعام في صرة لتأكل فاطمة وأمها شفيقة ولكنه كان يذهب الى غرزة حبشي يسطل ، ويعود بلا طعام وبلا نقود . فتضربه شفيقة ، ويجلجل صوتها في الحارة .

عندما عرف ان فاطمة تقابل طلعت خلسة ، انتهز فرصة موكب فرح الأسطى شاكر . وحالفه الحظ عندما رآهما يسيران على رصيف الكورنيش امام سيدي ابو العباس اتجه اليهما ومعه بقية الموتوسيكلات التي يركبها شباب الحي . تجمعت الموتوسيكلات وسلطوا الكشافات عليهما - فاطمة وطلعت . بنت المونولوجست زكريا ، افقر بنات الحي مع طلعت اقبح واغنى اولاد الحي ، الولد

الذي تمرد على الحي والأصحاب ويذهب كل صباح الى كلية الهندسة ليصبح مهندسا نملك الغضب الجميع . هجموا على طلعت، وانتزعوا فاطمة من بين براثنه .. وأعادوها برفقة الى بيت أبيها ، الذي ثار عندما علم بما حدث ، وزعق وصرخ ، وضرب فاطمة وأمها شفيقة ثم ذهب الى اسحاج مرسي ، وانهار امامه متوسلا باكيا . ان يساعده على المحافظة على عرض ابنته . كانت لحظة عظيمة ، لم يجرؤ طلعت بعدها ان يقابل فاطمة . كان انتصارا كبير لسعد ولكنه لم يدم ؟ لقد تحدى طلعت الجميع وتزوج وهو طالب فاطمه في بيئة زفافها أقدم سعد على اول مغامرة له . استولى على سيارة عليها نمر القاهرة . كانت تقف في طريق عبد الناصر ، عند محطة السريس بجوار النادي قاد السيارة ، وهو لا يخشى احدا ، كان واثق ثقة مطلقة ، ان احدا لن يقف في طريقه . وان ما في جسده من طاقات غضب وحقد كفيلة بأن تدمر العالم كله اذا شاء . افترس السيارة وباع أجزاءها . وقرر ان يكون هو ايضا صاحب ثروة من يدري ربما يأتي يوم يحمل فيه ثروته ، ومعه امرأة يحبها وتحبه ويمضي في ذلك الطريق الأسفلت ، لا الى الاسكندرية كما هو متجه الآن ، بل الى الغرب . الى حيث يجد حياة أخرى . وحتى يأتي ذلك اليوم عليه أن يحارب بكل ما لديه من ذكاء وجد . تقول له الست ميرة العالمة التي كان يعمل معها زكريا ، ان لديها البنت التي تناسبه ، تريد منه أن يتزوج واحدة من بناتها ، ويستقر معها في البيت ، ويساعدها على ادارته . عندما فوجئت بالبنات يتسربن من فرقتها واحدة بعد الأخرى ، ويتزوجن من رجال قادمين من الغرب ، سألها كيف ستواجه المشكلة . قالت بسرعة ، وقد اعدت الجواب واتخذت القرار . انها سوف تصر على ان يكون الزواج بمعرفتها . وتحصل على نسبة من المهر الذي يدفعه العريس الذي يتزوج احدى بنات فرقتها ، واضافت ان هذه النسبة تقدر اليوم بالمئات ، وأحيانا بالآلاف . عندما سمعها خطر له فجأة ، ان فاطمة بنت زكريا كانت تصلح كصفقة تستفيد منها ميرة ، وأدهشه هذا الخاطر .. كيف تراوده هذه

الرغبة ، ايريد أن ينتزعها من براثن طلعت بأية وسيلة ، انه يرى فاطمة الآن بعد أن أصبحت اما لبنت العمة الصغيرة ، يراها وهو يحمل الى بيتها الفاكهة والأقفاص والصناديق ، تحتوى على ما يؤكل وما يشرب وما يلبس مما يشتريه طلعت .

الخادم يحمل للسيدة مشتريات السيد زوجها . نظراتها باردة كأنها لم تعرفه أبدا . ولا شك ان حقده عليها بارد ايضا فهو لا شك يحقد عليها ، حقد المهزوم ، المجروح ، حقد من سيأتي يوم له ، بعد أن كانت هناك أيام عليه ، وعندئذ لابد أن ينتقم يشفي على الأقل غليله .

استقبل سعد الحر ، مدخل الاسكندرية عند المكس .. وهو يرى نفسه مليونيرا بين المليونيرات ، ينتقم فيه من كل الاهانات من كل الخطوط السيئة . سوف يعلو ويسمو فوقهم جميعا . فيرى حذاءه فوق رأس هذا الوغد طلعت الذي يحتمي بجواره . لك يوم يا طلعت ، وأنت يا فاطمة . هذا هو الذي يربطني بكما ، والا كنت تركت كل هذا . ولكن كل لحظة تمر اراك يا طلعت تتمتع فيها بنعومتك وسيادتك على ستسمح بأن تراني عندا صغيرا. خادما مطيعا . ولكن انتظر . فكل ما تسمح به الآن هو وقود الحريق الكبير الذي سوف يحرقك انت وفاطمة .

وحين من سعد التفاته الى المرآة ، فرأى يونس جالسا في المقعد الخلفي فانفجرت في أعماقه ابتسامة ساخرة لم يظهر منها على شفتيه سوى طيف لا يلحظه أحد . هذا هو المغفل الذي لا يدري عما يجري في الدنيا شيئا . أمثال يونس هذا تستغلهم كما تشاء . وهو على العموم لا قيمة له بين الرجال .

الفصل الرابع

وقفت فاطمة في المطبخ تعد القهوة على نار هادئة ، وقد تركت طلعت مع ابنتها محاسن . كانت تشعر ان شيئا ما قد انتاب طلعت .. انه ليس هو الذي تعودت ان تستقبله . لا لأن شيئا ما قد تغير فيه ، او بدر منه ما يثير ريبتها ..

ولكن شعورها هو الذي يرفض أن يصدق ان طلعت الذي معها الآن ، هو طلعت الذي عرفته من قبل . ان حيويته زائدة ، ونظرة عينيها كمن ويعوق ما تعودت منه رغم غلته العويصة . ونهمه في الأكل مفرط ، ورغبته في جسدها مانع لها . ولكن كل هذا يصدر عن كيان يتحكم فيه ارادة جامحة هوجاء مندفعة بشوق واشتياق . ان جسدها ذكي حساس . أدرك على الفور انه لا يستقبل رغبة محمولة بالرقة والحنان ، وان ما يصدر منه هو تعبير عن فشل في التعامل . عجز عن التفاهم والتواصل فهو يملي ارادته ، معتمدا على قدرات عضلية وطاقات بدنية وكأنه يتخلص منها . بعدها ... فيبقى بينهما أخذ وعطاء . شعرت انها تريد أن تسأله في كل لحظة : ماذا به . ولو كانت تملك القدرة على التعبير عن مشاعرها المبهمة ، لعاتبته انه ليس طلعت الذي كان يعطي بسخاء وهو واثق من نفسه . كان أحلى ما فيه هذه الثقة المرتبطة بالنفس والتي منحتها الطمأنينة ، واشعرتها بالحماية فهابت لأن تستقبل في ظلها هذه الحياة الدائمة التي خرجت منها فأنستها محاسن .

هذا هو ما عوضها على ما فقدته بعد الزواج من مشاعر اخرى تعودت عليها وتشعر بحنين اليها بين وقت وآخر . رغم انها

لو فكرت بعقلها لطردت ذكريات الماضي بكل ما كانت تحمله من تعاسة وألم . ولكن ما حيلتها وهي ترتجف شوقا الى نوع من الرقة والحنان ، فيهما ضعف كبير ، نوع من المشاعر المجروحة المهانة ، ولكنها تمتد الى القلب وتدفيه ، تلك المشاعر التي كانت تنتقل اليها عبر نظرات من اعماق عيني ابيها ، ترسلان اليها ذلك الألم الساخن ، الذي يستعطف ويستنجد ، فيملىء جسدها بالشجن ، والرغبة في البكاء ، او الرغبة في ان تحتضن في الفضاء او الرغبة في ان تجري هائمة على وجهها في الشوارع تحمل معها هذه المشاعر . هذه الجروح . تستقبلها من عيني تقولان لها : انا بلا حول ولا قوة يا ابنتي ، ولكني قادر اذا شئت انت ، ان افديك بروحي ، انا ضعيف مثلك يا ابنتي ، ضاعت حياتي ، ولا أملك سوى حنجرة تطلق صوتا متحشرجا بالمونولوجات ، وجسدا يحييه الأفيون ويقتله . ومع ذلك اشعر معك بأني ملك جبار ، صاحب مملكة . واذا شئت يا ... على استعداد ان تفديني بروحك . من يريد ان يملك اكثر من هذا في هذه الدنيا الرخيصة المصنوعة من تراب ، ومآلها التراب . الكل يهزأ مني ، ولن أخدع نفسي فأنا جربوع بين الجرابيع .. احيانا اتوهم اني فنان عظيم سيىء الحظ ، ولكني فنان غلبان على باب الله ، مواهبي محدودة ، فأين انا من اسماعيل يس ومحمود شكوكو . ومع ذلك تأكدي يا فاطمة ، اني اضع حياتي في كفة ، وان يمس أحد شعرة من رأسك في كفة اخرى . مشاعري نحوك تسيل مع دمائي . نزيف مستمر ، فأنت كل ما بقي لأبيك زكريا ، واطالبك يا كل حياتي ، الا تتخلي عني . فأنت وحدك القادرة على ان تمنحني لمسة حنان حقيقية ، هي الدنيا كلها .

كانت علاقة فاطمة بأبيها ، علاقة صاخبة ، متلاطمة كموج البحر في الشتاء . اما طلعت فهو المرفأ الهادىء . تبحر اليه لتنجو من عواصف القلق ودوامات الضعف . قادتها اليه غرائز استشعار فطرية ، لتخلصها من أيام الخوف والذعر ، عندما كانت امها شهيقة تصرخ وتولول ، ويشق صوتها الحاد ليالي الحي وهي

بسبب حظها الأسود وسوء بختها الذى جعل المقادير ترميها فى بيت زكريا المولوحست . كان صوتها يدوى ويجلجل ، فاذا كان الناس فى الحى المجاور يستيقظون على صوت المؤذن فى مسجد سيدى أبى الدرداء ، أو يوقظهم صياح ديك ، او اجراس منبهات ، او حتى صرير عجلات ترام تأتى من بعيد ، فسكان حارتها يستيقظون على صوت شفيقة ، ولقد رضى الجيران بهذا الصراخ ، خاصة النسوة ، فقد وفرت عليهن شفيقة ، مشقة تحذير او تهديد أزواجهن ، ألا يتأخروا خارج البيوت ، حتى لا يواجه أحدهم ما يواجهه زكريا من شفيقة ، وهذا هو ما كانت تردده الحاجة فهيمة زوجة أبو طلعت . وكان صراخ شفيقة يصل اليها فى بيت الحاج مرسى عند ناصية الحارة ، فتظهر العطف والشفقة عليها وتدافع عنها أمام زوجها الحاج ، وتطالبه بأن يتدخل لردع زكريا ويخرجه من غيبوبته ليتحمل مسئوليات زوجته وعياله . وكانت فاطمة ترقب أمها وهى مذعورة ، فترى جسد شفيقة يتمايل براسها وكتفيها فى حركة رتيبة كأنها فى حلقة ذكر ، وهى تلطم بين حين وحين خديها ، فى ايقاع بطىء ، تصاحبه تأوهات متقطعة . وكانت موجات منتظمة من الألم تستولى عليها بين لحظة وأخرى . وكانت شفيقة ، تطلق مع تأوهاتها تساؤلات ملتاعة عن زكريا كيف يمشى زكريا الآن وهو مسطول فى الشوارع ، لابد أن سيارة سوف تدهسه ، واذا لم تدهسه اليوم فلابد أن تدهسه غدا ، واذا نجا من السيارة ، فلن ينجو من معركة فى فرح ، او طعنة بسكين . واذا لم تصبه الطعنة اليوم فلابد أن تصيبه غدا واذا لم تقبض عليه الشرطة فى غرزة اليوم فلابد أنهم سيقبضون عليه غدا . كانت الكارثة محدقة بزكريا ، مقبلة لا ريب فيها ، ولا مفر من الاستسلام لها ، فحتى لو نجا زكريا من حادث او طعنة ولم تقبض عليه الشرطة ، فسيأتى يوم قريب ، تتخلى فيه عنه الست منيرة صاحبة الفرقة التى يعمل معها فى الأفراح فهى امرأة لا قلب لها ، تستغل سذاجة زكريا وبلاهته ، فحولته من فنان الى خادم ترسله هنا وهناك ، ويشترى لها حاجاتها من السوق ولا تتورع عن أن تطلب

منه كنس السلالم ومسح البلاط استعدادا لاستقبال احد الزبائن الكبار . هكذا شاءت شفيقة ان ترى حياتها مع زوجها ، وان تلاحقه فى كل لحظة تراه فيها باللوم والسخرية والاهانة ، حتى أصبحت بالنسبة له هى المرأة النكد والمرأة النحس ، والسبب المباشر للجوئه الى الأفيون هربا من نكدها .

وكان اذا اختفى زكريا وغاب حتى الصباح ولم يعد الى بيته ، أرسلت شفيقة ابنتها فاطمة الى الاسطى مرسى الميكانيكى عند أول الحارة ، فكان يرسل معها ابنه طلعت الذى يقفز الى موتوسيكل وتركب خلفه ، ويطوفان بالأماكن التى يحتمل ان يعثرا فيها على زكريا . وعرفت فاطمة كل الأماكن التى كان يتردد عليها أبوها . عرفت بيت ست منيرة العالمة ، المرأة السمينة البضة ، ذات الخدود الموردة ، والتى كانت تعطى فاطمة قطعة لوكوم مرشوشة بالسكر ، تأكلها وهى تواجه عينى منيرة المكحلتين ، عينا بقرة ورأس صغير فوق صدر منفوش كان طلعت يقول ساخرا بأنه منفوخ كاطار السيارة على ثمانية وعشرين . وكانت تقاس فاطمة أحيانا وهى راقدة ، فى السرير ، والأساور الذهبية تحيط بذراعيها السمينتين فتضغط على لحمهما وتصنع فيه حلقات بارزة تجذب أنظار فاطمة . بينما تدعوها منيرة لأن تبقى معها وتنجو بنفسها من الحياة مع أبيها ، فلا فائدة منه ولا معنى للقلق لأن عمر الشقى بقى . وأحيانا كانت تعثر على زكريا راقدا فى بير سلم بيت منيرة ، وأحيانا تعثر عليه هائما على وجهه لا يدرى أين هو ، ولا من هو ، ويتعرف عليها بصعوبة ، وأحيانا كان سيد العتر هو الذى يعثر عليه ، ويتطوع باحضاره ، من أماكن لا يدرى عنها أحد شيئا . وكان سيد يحرص على أن يعثر على زكريا قبل أن تلجأ فاطمة الى طلعت وكان يريد أن يؤكد لها باستمرار أنه هو القادر على احضار أبيها ، وأنه أقرب اليها من طلعت ، وان نفوذه فى الشوارع والحارات من بداية الليل حتى مطلع الفجر لا يعادله نفوذ ، فهو ملك الليل ، ولا يخفى عنه تحركات أحد ، وهو صديق منيرة ، لأنه يتولى عمليات نقلها هى وبناتها الى الأفراح .

انتبهت فاطمة من خواطرها ، على صراخ حاد تطلقه محاسن كانت قد فرغت من صب القهوة في فنجان . فأسرعت خارجة من المطبخ ، لترى لدهشتها محاسن وحدها في صالة البيت . أما طلعت فكان في حجرة النوم وقد فتح حقيبة على السرير يعد فيها ملابسه . ما الذي حدث ، ان أمامه أسبوعا قبل ان يعود الى عمله ، ولكنه يقول لها انه ينتظر مكالمة هامة من مصر ، وقد يسافر الى القاهرة غدا .

ايــة مكالمــة ؟

ومن الذي سيكلمك ؟

قال لها طلعت :

— ان الأمر خاص بوالده وأعمال خاصــة كلفه بها . ومرة أخرى هجم عليها هذا الشعور الغامض ، ان في الأمر شيئا . وسألته ملتاعة .. ماذا به ؟ أجاب بسرعة .. لا شيء .

فأعادت السؤال ، فأجاب بعصبية وهو يقذف بقميصه في الحقيبة ان تسكت ، فلما صممت على السؤال ، صرخ فيها ان تخرس وتتركه يشرب قهوته في هدوء . ولم تتركــه ، هاجمته بشراسة كيف يترك ابنته تصرخ في صالة البيت وحدها . ما هذه العجلة في اعداد الحقيبة وهو لن يسافر في هذه اللحظــة ، شيء تضمره يا طلعت ، ما هو ؟ هددها ان واصلت الكلام ان يترك لها البيت ويخرج . مثل هــذا التهديد يفجر كل طاقات التدمير التي قد تمتلكها فاطمة . تدمير الآخرين ، وتدمير الذات . انها مندفعة في درب نهايته الموت ، الموت لها ، وله ، الموت للدنيا كلها لابد أن تمضي حتى تقع الواقعة ، حتى ينفذ التهديد ، حتى يتم تدمير كل ما يمكن تدميره . ليست هذه أول مرة يتعاركان فيهــا ثم تصالحا ، ولكن هــذه هي أخطر المرات ، أنا أو أنت ، اما ان تضحي بحياتك من أجلي ، أو أضحي بحيــاتي من أجلك . لا تريد الحياة معه ، فليطلقها ، فليطلق سراحها ، انها لا تريده ، ولا تريد ابنته ، التي تذكرها به ، كانت تصرخ في جنون ، حتى هوى بكفه

على وجهها ، فترنحت ، وانهال عليهــا ضربا ، حتى تكومت على الأرض ، فركلها بقدمه وترك البيت وخرج . عندما سمعت الباب وهو يغلقه وراءه ، نهضت تترنح ، ورأت أن الحقيبة قد اختفت من فوق السرير . أحست بجوع ، ألم في بطنها كالجوع ، وجرت الى محاسن .. كان بكاؤها متقطعا ، فحملتهــا وضمتهــا الى صدرها ، وذهبت الى المطبخ وأخرجت من الثلاجة طبق مهلبية ، وشرعت في اطعام محاسن والدموع تنهمر من عينيها ، وبين لحظــة وأخرى ، تبتلع ملعقة مهلبية . عندما كانت صغيرة ربما في الخامسة، أكبر من محاسن بسنتين أو ثلاث ، كان أبوها يعود الى البيت هائجا صاخبا يضرب أمها ثم يصالحها أيام كان يغني « الغيرة يا نار الغيرة » ، و « لو كنت حصــان » أيام كان لها أشقاء تكاد تذكر أسماءهم ، وملامح مشوشــة مختلطة لوجودهم .. عبد الفتــاح ، ومختار ، واسماعيل .. أين ذهبوا ، أين اختفوا لا أحد يدري ، لا خطابات ولا رســل تأتي بالأخبار ، ربمــا ماتوا ربما أصبحوا أثرياء . ولكنهم ذهبوا . الرجال طفشوا ولم يبق الا فاطمــة ، العجيب ان أباها كان لا يرتاح لطلعت كلما رآه قادما مع فاطمة يبحث عنه في بيت صبرة ، أو مقهى المعلم شكري أو اذا قابلهــا صدفة ، لغضب ، مع أنها كانت لا تزال صغيرة ، في الثانيــة عشرة أو الثالثة عشرة ، ولكنها كانت قد اكملت أنوثتها بالنضوج وكان عرس فرج لا يأخذ كلام أبيها مأخذ الجد ، وكان طلعت لا يخفي عليها ما يسمعه من أبيه ورأيه في أبيها . رجل عقله ناعم ، مثل تروس الدورباج ، عندما تفوت ولا تتماســك . وتسمع فاطمــة ما يقول طلعت نقلا عن أبيه ، فتزداد ألمــا وتزداد حماسا . ولكنها كما تشعر الآن ، ترى أن عليها ان تواجه حياة هشة ، مع زوج لا يحترم أبيها ، يستخف بها ، ولا قيمــة البتة لكل ما كان يقدمه من حب أو رغبة . فكل هــذا يوشك أن يتحول الى مصــدر خطر ، تهب منه عاصفة تجتاح كل شيء . وربما كان طلعت أكثر شرا من صبيه العسر التي جاءها يعرض عليها الزواج بعد موت أبيهــا ، كان

ناعمـا ، وكان لا يستقر فى مكان ، يظهر لها فجـأة فى الطـريق ويعترضها ، وكأنه كان يراقبهـا او يتربص بها . فيحمر قلبهـا خوفا منه . منذ بدأت تعي وتدرك ما يجرى حولها فى الحـارة . وهي تسمع الشتائم تنهال على الولد سيد ابن الأسطى العتر . انه ولد شاذ بين الأولاد وربما لم ينج ولد فى الحـارة كلها من مثل هذه الشتيمة او الاتهام . ولكن وسامة سيد ونعومته كانت ترفع الشتيمة او الاتهام الى مشارف اليقين . ولكن أخطر ما فى سيد ، هي انانيته الكامنة فى عينيه ، كأنه لا يرى بعينيه سوى نفسه ، كان الجميع مرآة له . قال لها بصـوته الناعم يحذرها من طلعت انه ابن المعلم ، وربما فتح عليهم والمـال كتر فى جيوبهم . خرب الله بيوتهم . انه ليس طلعت الذى كنت اعرفه وكنت تعرفينه ، ليس طلعت الذى كان ينام الليـالي فى حضني ، وكنا لا نفترق ليـل نهار ، ليس طلعت الذى كان ابي يعطيه قرشـا مصروفا مثل القرش الذى يعطيه لي .. بينما ابوه الأسـطى فرج يحرمه من المصروف ويكنز الصاغ فوق الصاغ .

يوم مات زكريا فى بيت الست منيرة ، كان سيد العتر هو الذى تطوع وحمل الجثة وعاد بها فى سيارة زبون عند الأسـطى مـرسى .

قالوا انه أكل الى حد التخمة فى فرح براس التين ثم كبس الأفيون على قلبه ، وسرت اشاعة لم يتحقق منها احد ، أنه مات فى بيت منيرة ، وهو يكنس لها السـلالم ، ولم تهتم شفيقة كثيرا بتقصى الحقيقة . فقد كانت تتوقع الكارثة كل يوم ، ولو كان حدث غير ذلك ومات زكريا فى بيته وعلى سريره ، وبعد مرض طويل ، شأنه شأن أغلب الناس ، لكانت شفيقة شعرت بخيبة امل ، لأنهـا اضاعت كل جهودها فى البكاء ، والولولة تتنبأ عبثا بأنهم سـوف يحملون جثة زكريا ويدخلون بها عليها فى يوم قريب ، فعلى الأقل تحققت توقعاتها او نبوءتها ، ولم يخب ظنها فى هذا الأمر .

أيكون طلعت قد ذهب الى المـأذون ليطلقها . مستحيل ، هذا

لن يحدث ابدا ، سـوف يعود . لا لأنه يحبها ، ولا لأنها تحبه . سوف يعود لأنه لابد ان يعود . والا كيف رضي بالزواج منها . لماذا قبل هذا الزواج الذى ما كان يحدث بعد أن تغيرت أحوال الحاج مرسي وصار من أغنى أغنياء البلد . وما الذى جمع بين طلعت الباشمهندس ، وابنة الشحات الأفيونجي وشفيقة المعدمة . لم يتزوجها شفقة ، ولا عطفا ورثاء . انها اقدار حكمت وقضـاء ابرم وهو لن يطلقها ، ولن يتركهـا ، لأن الأمر ليس فى يده ، وإذا كانت قد طالبته بالطلاق . فهي تتحدى كل ما كان يدعوه الى عدم الزواج منها . كل اعداء الزواج . المـال الوفير ، النفوذ والقوة ، العلم الذى حصـل عليه فى المدارس . كل ما يفخرون به كل ما يدفعهم الى الفرار من امرأة مثلها ، أبوها منولوجست غلبان ، لا اعتبـار له . مهان ، خادم لمنيرة ، ومهزأة فى الأفراح وغرز الحشيش .

وربما لو لم يتم هذا الزواج ، الذى نفذته وفرضته ارادة عليا اقوى من البشر ، كانت اختارت لنفسها حيـاة أخرى ، او على الأصح كانت اضطرت الى حياة اخرى ، كانت ستضطر مرغمـة بأن تعمل مع الست منيرة وفرقتها . وربما كانت الآن فاطمـة الراقصة اللولبية التي ورثت الفن عن ابيها الكبير المرحوم زكريا لم تتأخر منيرة عن شيء . مال او كسوة او طعام . ولكنها لم تستطع أن تحصل على رضاء فاطمة بالعمل معها . ما الذى تنتظرينـه يا فاطمة . هل كانت تستطيع ان تقول لها انها كانت تنتظر طلعت ابن الحـاج مرسي . ابدا . أين هو واين هي . الحي الواحـد الذى جمعهمـا له شـوارع وحـارات ، يخرج منها الناس الى دنيا أخرى . ولقد خرج طلعت الى المدارس والجامعـة ، بينمـا بقيت هي فى بيتها الحقير مع أمها شفيقة ، تعيشان من صدقة يرسلها الحاج مرسي أو غيره من أسطوات الحي الذين يذكرون ان زكريـا كان يغني فى افراح اولادهم . او صدقة تتعطف بها منيرة ، وهي تنتظر ما يجب ان يكون ، ان تحل فاطمة محل ابيها فى الفرقة .

ما الذى حدث ، ما الذى جعلها تنتظر ، فى الحقيقة انها لم تنتظر ، ولم تتوقع ، كل ما فى الأمر أنها لا تجيـد لغـة العقـل

ولا تسمعها ، وهي تستسلم لهمسات غامضة ، مشاعر مبهمة ، واحيانا كانت تستسلم لما هو اغرب ، وهو تلك الهمسات في جسدها ، همسات لها تاريخ ، وليس لها تفسير ، فمنذ الطفولة وهذه الهمسات تلازمها عندما كانت هي وطلعت يلعبان لعبة العريس والعروسة في سطح بيت الأسطى مرسى ، وكانت سركه يمرح على غرائب جسدها المختبية ، وتمرح هي على غرائب جسده المختبية ، جسدان مختفيان يشعران معا باحداث يشدهما ، له مذاق في الفم واللعاب ، وله حرارة في الصدر والأنفاس ، وله لسعة ورعشة في الأطراف . هذا الهمس لم ينقطع بينها وبين طلعت ، حتى وهو طالب في الجامعة ، كان يكفي أن تلتقي عيناه بعينيها ، ليعاود جسدها همساته التي لا ترجمة لها ، وهي لا تريد أن تفكر ولا تريد أن تحلم ، ولا تريد أن تسمع بصريح ولا خيال ولا أمنيات .. كل ما كانت تريده .. أو ربما تراقبه وهي في دهشة من امرها ، هو تلك الهمسات في جسدها وأن جسدها يسمع وكأنه يرغمها على أن تواجه طلعت كل يوم .. كل يوم . جسدها أمام جسده ، عيناها في عينيه ، هو يهمس وهي تتنفس وهو ينظر ، وهي تنظر ، ثم هو يبتعد عنها ، وهي تبتعد عنه .

لو أن فاطمة عرفت كيف ادمن ابوها الأفيون ، ودرست كيف سيطر المخدر عليه ، لقالت .. انها تلقت الدرس الذي يصنع به الادمان . ولكنه ادمان مشترك . بينها وبينه ، وبين فاطمة وطلعت لا أحد فيهما السبب ، ولا أحد النتيجة ، كلاهما متفقان ، متوافقان ، كلاهما يشعر برعشة احيانا واضحة واحيانا خفية وهو يواجه الآخر كلاهما يشعر مذاق فمه ولعابه ، وهو يواجه الآخر . وكان لا مفر ان يراها وان تراه ، اذا لم تقابله في ذهابه الى الجامعة في الصباح ، انتظرت عودته اذا مرض اقتحمت بيته بأية حجة تطلب احسانا ، تطلب مشوره كان لابد أن يخرج لها ، وان يراها ، عندما لم يخرج من حجرته ذات مرة قالت للحاجة زوجة أبيه ، فأم طلعت ماتت وهو صغير ، انها ستنظف لها حجرات البيت وتكنسها ، ولم تترك لها فرصة للرفض ، وكنست البيت ، وكنست

حجرة طلعت المريض . ورآها بعينين محمومتين ، ورآها بعينين اكثر حمى وسكينت فيه من وجودها ، أكثر مما يستطيع أن يحصل عليه المدمن وهو في تمام صحته وكانت لا تخطط ولا تدبر ، هي تتصرف بفطرتها - او غريزتها ، حتى جاءت تلك الأيام التي ارهق فيها طلعت من المذاكرة مع اقتراب موعد الامتحان ، وتلك الحالة النفسية التي اصابته جعلته مكتئبا ، يطلق لحيته ويرفض المذاكرة وانتابته تشنجات أشبه بالصرع . وهمس العارفون من حكماء الحي للحاج مرسى ان شفاء مثل هذه الحالات معروف فحاجة الولد للمرأة وما يعانيه من كبت هو سر كل هذا البلاء ولم يتردد الحاج في مصارحة ابنه . هل تريد ان تتزوج يا طلعت واجاب طلعت بغير تفكير نعم . اريد الزواج . قال الحاج على الفور وهو يدرك ان الظرف لا يحتمل التأجيل ، حتى يتفرغ المهندس لشهادته التي سوف تغير تاريخ الأسرة وتمحو كآبته ، انه سوف يختار لابنه احسن عروس في مصر .

وكم كانت دهشة الحاج ، بل ودهشة طلعت أيضا ، الذي قال بغير تفكير ، انه يريد فاطمة .

كانت المفاجأة قاسية للحاج ، ورفض الاسم على الفور بدهشته ، وعدم تصديقه لما يسمعه ، ولكنه كان اعقل من أن يثور او ينفعل أمام ابنه الصبي الغرير .

قال الحاج مرسى متخلصا بدهشته ومتحصنا بها :

- وهل يتزوج الباشمهندس صاحب الشهادة .. فاطمة بنت زكريا .. هل ترضى لنفسك بهذا .

قاطعه طلعت بصوت حاسم يحمل معاني لم تخطر ببال الحاج ، ان الأمر بالنسبة له الآن ، ليس في الزواج ، انه في المرأة ، في حاجة الى جسد لا يؤرقه التفكير فيه ، في اطفاء رغبته في فاطمة . هذه هي الحقيقة .. هذا هو كل ما في الأمر . فاطمة اذا تزوجها لن تشغله عن المذاكرة .

صاح طلعت في ابيه :

ـ الذي يمرضني ·· اني اقاوم الاعتداء عليها لا اريد ان اغتصبها ·· هل تفهم ·· لو اردت استطيع ان افعل ذلك ولن يقف في طريقي شيء ·

ادرك الحاج ابعاد الموقف ·· وارتاح لما يقوله طلعت فهو لم يحس ، ولم يفقد عقله · كل ما في الأمر ، ان طاقاته المخزونة تبحث عن مخرج وهو لا يتحدث عن فاطمة كزوجة ولا ام عيال ولا مركز اجتماعي يسعى اليه · الوله وضع الامور في نصابها انه يطلب متوى من ابيه هل يأخذ الست عنوة ، ام يحصل عليها شرعا ، في حدود هذا الطلب ، من الممكن ان يحصل طلعت على فاطمة شرعا ، لأن الحرام يرتد الى نحر صاحبه ومرتكبه الوله لا يطلب اكثر من جارية سرير ، له ان يتمتع ، ثم يلفظها وقتما يشاء ، فهو لا يبدو انه يريدها لحياته ، يريدها فقط لمتعته ومثل هذه المتعة لها وقت ، ثم سرعان ما تتحول الى مصدر ملل وقرف ·

قال الحاج منتعشا :

ـ يعني كل ما تطلبه هو امرأة ·· لا زوجة ·

اجاب طلعت وهو يدرك لأول مرة ، ان الشيء الذي يدمر نفسه ، يثير كراهيته ، بقدر ما يثير رغبته وانه يشعر بالتحدي ل بقدر ما يشعر بخضوع مهين له · كان يكتشف لأول مرة ابعاد من الكراهية لفاطمة توازي تماما تلك الرغبة المحمومة في الاستيلا عليها ·

ـ نعم ·· كل ما اريده ·· هو بنت الكلب هذه ·

صاح الحاج :

ـ خذها واشبع منها وارحنا وارح نفسك ·

ثم اردف متعجبا :

ـ الولايا لهم رب ·· من يصدق ان فاطمة تفوز منك ·· وانا لا اجد في نفسي رغبة في مقاومة هذا الزواج ومنعه ·· هذ لا يحدث ولا في المنام ·

ثم عاد الحاج يواسي نفسه ، ويفلسف قراره ·

الواحدة كالبردعه ·· اركبها وانت مستريح ·· ولعل زواجك منها يكون صدقة مقبولة ، تشهد لنا يوم القيامة بأننا رفضنا الحرام واخذنا بالحلال ·· ولكن غدا بعد ان تنالها سوف تتركها وربما تندم ·

كل هذا شيء تقوله فاطمة ، او سمعت اطرافا منه ، صارحها بها طلعت ، عندما يحتدم بينهما شجار ، انها ليست اكثر من بردعة · ليست الا انثى لتصريف طاقات فائضة ·· كلام وكلام ، يبدده حديث الجسد ، وهمساته ، ولكن الجسد انشغل بهمس آخر ، احتلته مخاوف · ومنذ ذلك الوقت والهمس يضعف ولا تستعيده الا اذا تحدث كل تلك الأسباب التي كانت تحتم الا يتم هذا الزواج ·

غدا سوف يعود طلعت · فتتآكل صحنا آخر من المهلبية ·· وتحاول ان تنام وفي حضنها مخاوف ، وفجأة شعرت بذعر يهاجمها · واسئلة عن المال الذي في البيت ، وتحولت حاجتها الى الطعام الى حاجة في دولاب حجرة النوم · جرت ترتعد كأنها مقبلة على مواجهة غول يفتح فم الفقر البشع ليبتلعها ، وفتحت الدولاب ، فوجدت النقود ، كان طلعت يقول انها عشرة آلاف امسكت بالرزم ، وشرعت تعدها فوق السرير ، ومخاوف نائمة بجوارها ·

الفصـــل الخـامس

عبد الحميد بك صفوت ـ النائب العـام ـ رجل محافظ ، المظاهر عنده لها أهميـة تبلغ حد القدسيـة •• وهو يعرف كيف يحـافظ على مظاهره ••• فاذا كان هناك شيء يتفوق فيه ، أكثر من معرفـة القـانون ، أو فهـم للمواقف السياسية ، وأحوال الناس الاجتماعية ، فهو طقوس المظاهر •

ومعروف انه تزوج زهيرة هانم لأنها بنت عائلة من كبـار اثرياء الفلاحين في شمال الدلتا ، امتازوا بمظـاهرهم الفخمة التى تجلت فى الأفراح التى اقاموها بمناسـة الزواج • تحدث عنها المجتمع المصرى الراقى لأكثر من عام •• وقد تذكر عبد الحميد بك تلك الأيام الخوالى ، وهو يسمع من ابنه يونس ، ان المهنـدس طلعت فرج ابن المليونير المعروف فى الاسكندرية يريد ان يقـابله ليتقدم لخطبة سارة •

لم يكترث عبد الحميـد بك أول الأمر ، بالاعتراضـات التى ابداها يونس ، او لعله لم يسمعها . فقد كان كل همـه ان يبلغ زهيرة هانم النبأ • وان يعيش تلك اللحظـة الهامة ، التى يقول فيها لزهيرة ، ان ابن المليونير يريد ان يتقدم لنا طالبا القرب منا فى سارة • وربما بعد أن يستقر هـذا المشهد ، بكل أبعـاده ، وهو مشهد فخم وجليل فيه مليونير يريد أن يتزوج من ابنته ، يمكنه بعد ذلك ان يفكر فى الأمور الأخرى . مثل بحث أوجه الاعتراض التى يبدو أن يونس يريد أن يثيرها •• وهو على أية حال شاب

عالم لا صلة له بالدنيـا ، حيلته قليلة •• وعزوفه عن المظاهر واضح • وهذا هو ما قالته زهيرة هانم عندما دخل عليها عبد الحميد حجرة النوم فوجدها راقـدة فى السرير تستريح من ارهـاق مستمر لازمها فى السنوات الاخيرة مصاحبة بأمراض المهدئات التى تتعامل معها وكأنها الأمل الوحيد لها لتحصـل على بعض الراحة السكينة فى هـذه الحياه •

كان يونس يتحدث عن قطاطة طلعت ، وعن سوقيته ، بينما يقول عبد الحميد لنفسـه • كل ما اريده هو ان احـافظ على مركزى ، لا اريد شيئا أفضـل مما أنا فيه الآن • ولن اطمع فى ان اكون ملكا او رئيس جمهورية ولقد احسست ما فيه الكفايـة من السلطة فى القضـاء •• حكمت بالبراءة كما حكمت بالاعـدام • ووقف امامى كبار الوزراء يرتعدون •• وتحول بعضهم الى متهمين ولقد حاربنى الثورة لانى من عائلة اقطاعيـة ، وحاربت عائلة زوجتى ، واخرجونى من القضـاء مثلى لمحرومين عن عرشى • ولكنى عدت اليه وعاندا فى اكبر المناصب نفوذا وهيبة وسلطة • فأنا النائب العام • وكل شيء على ما يرام لولا ان أمامى سنـة واحدة وابلغ الستين واحال الى المعـاش وفى هذه السنة ، هذه الشهور ، بل هذه الأيام يجب أن احافظ عليها على حصيلة العمر كله •• يجب ان اجمع فى بوتقة ايامى الحـاضرة كل المـاضى وكل المستقبل ، وان أعمل جهدى على أن تتحقق المعجزة وان ابقى فى منصبى • وان يصـدر قرار من رئيس الجمهورية بمد فترة خدمتى سنتين أو ثلاثا • ان كل لحظـة تمر الآن هى لحظة سلطة ، لحظة نفوذ ، لحظة تأكيد حاضر قوى مع ذروة قوته ، يدافع عن نشـوة هذه الذروة •• وزهيرة عاجزة عن التفكير فيما أنا فيه ، انهـا لا تفكر فى احتمالات المستقبل وتتعامل مع الحـاضر وكأنى نائب عام أبد الدهر •• وهـذه واحدة من الهموم الثقيلة التى يجب ان اواجهها ، ولكن كيف - احيانا يخيل الى أنها جنت عندما تحدثنى عن بناء فيللا فى العجمى وتقول لى انها ستطلب من المهنـدس المعمارى أن يعد لى جناحا مستقلا على نظـام السلاملك فى موتنا

القديمة يليق بي وأنا نائب عام أن استقبل فيه المحامين العامين ورؤساء النيابات ، وأنا في المصيف ، عندما يأتون الى لمناقشة القضايا السياسية الكبرى التي تكتب عنها الصحف ، وتنشر صورتي واسمي في صدر الصفحات ، ترى هل تتحقق المعجزة ، فأرى نفسي جالسا بعد سنوات في تلك الفيلا على شاطىء البحر واسطول من سيارات المحققين الذين يسيطرون على سلطة الاتهام باسم المجتمع وباسمي انا شخصيا ، مرصوص امام سور الفيلا الذي يقف عنده الحراس وامامي الشاطىء وامواج البحر وانا القي تعليماتي وتوجيهاتي واصدر قراراتي واوقع بامضائي على الأوراق .

كانت هذه الهمسات والصور الحالمة تجتاح رأس عبد الحميد ، لتقاوم اعتراضات يونس ، التي اصبحت غير واضحة ولا محددة ، بينما هناك بريق أمل ان تكون صفة النسب بالمليونير مرسي فرج طريقا مضمونا نحو الهدف المطلوب ، وهو عبر سنوات الخدمة لعبد الحميد منذ الذي نظر الى ابنه قلقا ، يخشى ان يهدم بكلامه فتتحطم آماله .

ولكنه لن يظهر شيئا مما يعاني منه ، انه قادر دائما على المحافظة على المظهر ، وهو دائما امام الجميع ، الرجل القوي الذي يستطيع ان يصدر القرار في أية لحظة .. حتى لو كان الضعف ينهشه والمخاوف الحقيقية تراوده ، وهو يرى الأيام تجري نحو وقت الاحالة الى المعاش والشيخوخة والمرض وانحسار كل مظاهر القوة والسلطة والنفوذ .. ومن يدري فقد يأتي مع كل هذا الفقر .. ولحاجة الملحة الى المال فتكاليف الحياة تزداد ، ونفقات زهيرة وسارة تتضخم ، ان فستانا واحدا تشتريه واحدة منهما يساوي مرتب شهر . كيف يلاحق هذه المصاريف ، وربما يكون الأمل يوما ما في يونس ، عندما تتدفق عليه أموال المترول ، فيسعفه بالمال ولكن هذا الخاطر مزعج أشد الازعاج ، انه هزيمة نكراء لكل المظاهر ، أن ينفق الابناء على الآباء ، امر اشبه

بالكارثة . وهو يتمنى الا يضطر اليها والا يأتي اليوم الذي يحصل على المعونة حتى ولو في السر من ابنه . هل يأتي الزمن الذي يعد فيه نفسه لهذا المشهد التعس .. الذي يطلب فيه من يونس معونة مالية ، ترى اية لهجة ، واية كلمات يلجأ اليها .. أيقول متوسلا .. المعاش لا يكفي . دخل الأرض لا يكفي ، مصاريف امك زادت ، الحياة صعبة .

ارتجف عبد الحميد صفوت في اعماقه ، وقاوم نجاح اى مظاهر خارجية للقشعريرة تسري في اوصاله ، وهو يتساءل بينه وبين نفسه ، اذا ما كان عليه ان يتملق ابنه ، لقد يحتاج اليه في المستقبل ، او يتجاهله ، رغم ما يبدو عليه من ضيق شديد بالعريس القادم . ويمضي قدما في مشروع الزواج الذي يفتح باب الأمل في معجزة استمرار السلطة والنفوذ ، وانطلاق احلام زهيرة في المجد الدائم المتصل . وها هي زهيرة تتحدث فتنقذ الموقف ، بكلام عملي رائع فهي ليست حالمة تماما ، وليست مجنونة كما يشك أحيانا من كثرة ما تبتلعه من اقراص المهدئات حتى ينتفخ وجهها وتتورم عيناها ، انها نشيطة تماما الآن .. تتحدث عن حبها لسارة ، وعن تصميمها على ان تتزوج احسن وافضل الأزواج وتتحدث في نفس الوقت بلباقة ومهارة تحسد عليها عن العروس التي ستختارها ليونس ، ستكون اميرة بين الأميرات جميلة بين الجميلات ، تسبح في النعيم والمال ، انها تنقل بحديثها عبد الحميد زوجها ، ويونس ابنها ، الى عالم اشبه بعالم الأساطير . ولكن يونس ينتفض ، ويقاوم هذه اللوحة من التفاؤل ، ويرفع صوته على غير عادته ، انه يريد رأى سارة ، عندما تعود من زيارة صديقتها ، وهو واثق انها سترفض .. اما عن الأميرة التي تتحدث عنها امه كروحة له . فهو يقول لأمه . انه لم يبق في مصر اميرات ذات مال ، فالثروات مع المهربين والمختلسين وتجار المخدرات ، اليس كذلك يا ابي . اليس المتهمون هم اصحاب الملايين بينما المحامون من الوزراء السابقين ، وكبار رجال الدولة ، هم الذين يتحركون كحاشية لهم .

لم يجب عبد الحميد بك على تساؤلات ابنه ، ولكنه كان يرى في خياله ، السيارات المرسيدس تتجمع عند سراي النيابة ، يهبط منها اصحاب المال .. والنفوذ ، تحوم حولهم التهم ، بينما سيارته الحكومية ذات الموديل القديم طائف بتعبيرها بالحاح ويوشك السنة المالية أن ينقضي قبل أن تصله المرسيدس التي وعدوه بها .. هذه السيارة الحكومية حريصة في حق مظهره . انها تعلن بقسوة لا مبرر لها ، ان مستواه أقل من مستوى المجرمين المتهمين ، والمدافعين عنهم ، والذين يتوسطون لهم .. ان مظاهرة مثل هذه ، كفيلة في رأيه بأن توجه الى العدالة طعنة في الصميم . فالعدل هيبة ومظاهر . لأن الناس تحترم المظاهر قبل ان تحترم الحكمة . والناس في كنف الهيبة اكثر من أمانها بالمنطق واحكامه .

قالت زهيرة لابنها بحسم الأمر .. ان الأفضل الا يقول شيئا لسارة ، حتى يرى طلعت بنفسها وتحكم عليه ، وعندما قال عبد الحميد بك .. انه مهما كان الأمر .. فان اللباقة ، تقتضي الا يواجه يونس زميله الذي هو ابن شخصية بارزة في الاسكندرية برفض المقابلة . وانه لا داعي للمواقف العصبية أو المتشنجة ، فليس هذا من شيم العائلات الكبيرة التي تعرف الأصول .. ولذلك هو ينتظر المهندس طلعت مرسي فرج ويرحب بزيارته ، دون أن يتعهد بشيء ، أو يتورط في كلمة تصدر منه .. وانه موافق تماما على أن الأمر متروك لما تراه صاحبة الشأن . سارة .

في صباح اليوم التالي لهذه المناقشة التي جرت في بيت النائب العام ، فوجىء يونس بأن طلعت قد جاء الى القاهرة . قبل أن يسمع منه أن والده قد حدد له موعدا ، وهكذا بدا ليونس كما لو كان طلعت مصمما على ما يريده في وقاحة وغرور لا نظير لهما ولكن عبد الحميد بك رحب باللقاء في بيته عصر نفس اليوم .

انتظرت سارة وصول الجاجوار من نافذتها . وكانت امها قد اخبرتها بأن العريس ابن المليونير قادم .. وطلبت منها أن

تتظاهر امام شقيقها بأنها تجهل الأمر .. فضحكت سارة ، وكان في ضحكتها ما جعل زهيرة تستريب في الأمر .. ولم تتركها سارة نهبا للهواجس . فقد حكت لها ما حدث من طلعت في الاسكندرية وكيف انه عرض عليها ان تركب معه سيارته الجاجوار ، وانه اراد ان يغازلها ، لولا انها هددته بأن ترسله الى السجن ، اعجبت زهيرة بهذه الأسرار التي لا يعرفها يونس العبيط ، كان يظن أنها سوف ترفض طلعت ، لأنه يبدو كما لو كان من السوقة .. وضحكت سارة مع أمها ، وهما يقرران بسرعة أن صاحب الملايين من المستحيل ان يكون من السوقة ، وان كل ما ينقصه هو المرأة التي تعلمه كيف يكون وجيها بين الناس .. وان طلعت قد اظهر انه يحبها وهو بملايينه صفقة لا ترفض .. وفرصة من فرص العمر .

واذا صح ما يقال عن جاذبية السيارات ، فها هي الجاجوار تجذب بقوة أنظار سارة ، ويهبط منها ذلك الشاب الربعة المدكوك ، يتقدم الى بوابة الحديقة ويتبادل الحديث مع الحارس .. ها هو مشروع الوجيه الجديد ، ابن الذوات الجديد الذي ستتولى صناعته . واضح من مظهره ومن مشيته ومن الطريقة التي يلوح بها بيديه ، انه من وسط اجتماعي متخلف . ان مثل هذه الأشياء يستحيل اخفاؤها حتى مع الثراء والبذخ الشديدين ، لابد من وقت ، قبل ان يتعلم ويتعود ، وتتغير حركاته ولفتاته ، ويتغير صوته ، ويتغير حذاؤه . وهي تقبل أن تتولى مهمة التغيير ، ان تحول هذا الجلف .. أن تغسله وتنظفه وتهذبه وتقطع أية صلة بينه وبين ماضيه .. لأنه سوف يدفع ثمنا بعقا عن أى نادم او معترض ثم هو يريدها ، ومثله سوف يركع تحت قدميها ، ويعمل على اسعادها ، ويتمنى ان يرضيها بأية وسيلة . ولا شك في رجولته وفحولته . نعم انها لا تمانع ، وسوف تدخل التجربة ، فمهما كان الأمر ، سوف تسكن قصرا وتركب افخم السيارات ، وتجوب العالم في أفخر الفنادق . كل ما هو مطلوب الآن .. هو ان تطمئن الى أن هذا الشاب من الممكن ترويضه ، وانه جاد بالفعل

يطلب الخضوع ، جاء يستسلم لأسياده ويقول لهم اسحقوني بركتكم ، وادحرجوني في زمرتكم وانا على استعداد لأن ادفع الثمن .

دخلت زهيرة على طلعت .. وهو يجلس مع النائب العام ، فصدمها مظهره . حتى ادبه مصطنع ، يحاول ان يتظرف ، ولكن سوقيته واضحة . يتكلم عن يونس وفي عينيه سخرية ووقاحة ، ولكنه بكل تأكيد قوي ، يتحدث بطريقة فجة عن الثروة التي يملكها والتي سيضعها تحت تصرف ابنتهم .

يتحدث بزهو شديد عن ابيه ، الذي سوف يأتي حتما بعد هذا اللقاء التمهيدي ، ليتقدم رسميا يطلب يد الهانم الصغيرة . انه الآن مشغول بأصدقاء اجانب في ضيافته بالاسكندرية . وهو مريض ، حركته محدودة ، ولاحظت زهيرة انه يتحدث عن مرض ابيه بلا نبرة شفقة او اسى ، بل كادت تلمح ما تخيلت انه طيف ابتسامة لها مغزى وكأنه ما ذكر مرض ابيه ، الا ليقول ان الملايين توشك ان تنتقل اليه بعد قليل . ولذلك لم تتمالك ان تسأله .. عن اشقائه . فأجابها ساخرا ان عددهم كالأرز .. كثيرون ، ثم عاد وقال انهم عشرة ، ثم صحح الرقم وقال انهم اثنا عشر من ثلاث زوجات .. وان أمه كانت الزوجة الأولى للأسطى مرسي الميكانيكي . قالها ضاحكا . وكأنه يمتحن رد الفعل عندما يذكر لهم في عقر دارهم انه ابن الميكانيكي . ولبس ابن الباشوات والبكوات . وهو يمتحن من مركز قوة ، وبلا ادنى خوف ، او تردد ، فهو يلقي الكلمات تتحدى وتستفز ، دون ان يخطر بباله ان الذين يستمعون اليه قادرون على ردعه ، او مهاجمته وكان محقا في توقعاته . فعبد الحميد صفوت كان مشغولا رغما عنه بمدى صلة الأجانب الذين يستضيفهم المليونير مرسي فرج بالسلطة ، وما تأثير ذلك ، في مد خدمته بعد المعاش . اما طلعت فهو يواصل اجابته بوقاحة نادرة على سؤال زهيرة . فيقول لها : ان المهم هو ان ما يرثه عن ابيه لن يقل بحال عن عشرة ملايين . اعطيها بأسمه اليوم حتى لا يتورط في دفع ضريبة التركات . انه ذكي جسور ، لا يتورع عن شيء هكذا اصحاب الملايين . وهو يفرض قوته . فيكاد يجعل من سوقيته شيئا

لا معنى له . ان تهذيب مثل هذا الرجل هو نوع من الرفاهية ، نوع من الدهشة ، التي تضاف الى القوة التي يملكها ولا يحتاج في حقيقة الأمر الى سواها ليفرض وجوده .

تحدث عبد الحميد صفوت عن اتجاه الحكومة اليوم مع الانفتاح وصداقة الأمريكان .. فقال له طلعت ان هؤلاء الأمريكان قادرون على ان يفعلوا اي شيء ، فهز عبد الحميد بك رأسه مؤمنا على كلامه ، وهو يشعر بغبطة غير عادية ، ان ابواب مد خدمته تنفتح امامه .

كان يونس يراقب كل هذا ، وهو لا يكاد يصدق ما يراه ، وكأن اباه ليس اباه ، وكأن امه ليست امه . بل وكأن طلعت ايضا ليس هو طلعت الذي يعرفه . لقد تمر مع تغير الظروف ، فهو يتعامل مع والده معاملة الند ، بينما ينكمش ابوه ، النائب العام ، في مقعده . انكماشا كان يبدو اول الأمر نوعا من التحفظ ، لولا تلك الأسئلة التي يثيرها ، عن الانفتاح ، وعن الأجانب ، ونفس الشيء حدث لأمه ، فقد كانت متعالية في بداية اللقاء ، يكاد يجزم ان في عينيها قرفا من هذا الضيف . وكان من المنطقي ان تثور اعصابها بعد هذه المعاناة من القرف والاشمئزاز وتطرد طلعت ، ولكنها لم تفعل . وها هي تسأله عن اشقائه . وطلعت يجيب ويضحك ، ويتحدث عن الملايين التي يمسكها ويلعب بها ، او يعبث بأعصاب سامعيه .

وانتاب يونس احساس بالغربة كأن وجود طلعت قد طرده من بيته . وعاد يفكر في البحر ، أو يتذكر نظراته الشاردة في الأفق البعيد عبر الأمواج . انه لا يكاد يفهم ما يراه وما يسمعه . من اين جاء ، حتى يشعر بهذه الغربة . اليس هو ابن هذا الأب ، وهذه الأم لماذا هما قادران على مواجهة طلعت . بينما يزداد هو بعدا وعزلة .

ودخل الخادم بعربة الشاي . وهنا كان امتحانا جديدا لزهيرة بعدما خرجت تلك الأصوات المنفرة من طلعت وهو يشرب الشاي

وتحققت مذعورة بعينيها ، ولجأت الى يونس ، الذى نظر اليها مستنجدا لعلها تعيد الأمور الى نصابها ، أن تعبر عما تشعر به ، ان تصدق فيما تقوله ، وهي التي ظلت سنوات عمرها تحسم مواقف أكثر تفاهة مما تواجهه الآن • وترفض اللقاء بالرعاع الذين لا يعرفون آداب الكلام والسلوك الاجتماعي • وكانت زهرة تحدث نفسها ، بهذه القصة التي تراها ، وأى جهد لابد ان تبذله سارة مع الحرير الذى امتدت يده وامسك باصابعه قطعة جاتوه « ميلفي » يأكلها بشراهة متناثر فتاتها على صدره ، ويلتصق السكر بشفتيه فيلعقه بلسانه •

وقفزت زهرة واقفة ها هي قد كشفت عن حقيقتها ، وسوف تنهي المقابلة ، أو تخرج من الحجرة وتترك هذا المشهد الوضيع لمواجهة الرجال وحدهم ، ولكنها لم تفعل شيئا من هذا ، كانت تمسك بفوطة ، تقدمها لطلعت ، وتطلب منه أن يمسح الفتات عن صدره وفمه •

واخذ طلعت الفوطة منها باسما ، واعتذر لها بذكاء شديد عن صعيديته وقال لها انه انسان غير متحضر يقضي معظم وقته في الصحراء ، ولكن ما هي الفرصة التي تسنح له أن يتحول الى انسان متحضر •

كلمات بسيطة قالها ، فاشتعل حماس زهرة • انه قادم ليستنير ، ليتحضر ، وليتعلم • انه يشتري انه محتاج ، انه يعترف بعجزه رغم قوته ، هل هناك ما هو افضل من ذلك • أن تشعر الزوجة بـ قدرة على السيطرة على زوجها رغم قوته •

عندما انصرف طلعت نادت زهرة سارة وقالت لها ، ان عريسها جاء يخطبها وفاجأت سارة شقيقها بأن قالت انها رأته وهو يركب الجاجوار خارجا من النادي • كانت تطل بالصدفة من نافذتها • ولم تبد خجلا او حياء •

تحدثت كما لو كانت تملك بالفعل الجاجوار ، والملايين التي يملكها طلعت •

قالت :

ــ لا مانع عندي •

وصاح يونس غاضبا ، وربما من نفسه ، أكثر من غضبه منها ، لأنه عجز عن فهم حقيقة مشاعرها •

ــ أليس هذا هو ما سخرت منه ؟ •

قالت سارة :

ــ لن اترك هذه الملايين •• انها تصنع المعجزات •• والتفت يونس الى أبيه يائسا •

وكان عبد الحميد بك صموت ، قد استعد للموقف النهائي الذى يحافظ على المظاهر واستعان هذه المرة بأسلوب التحقيق في القضايا السياسية الهامة ، فقال بنبرة شديدة ، وكأنه في مؤتمر من المحامين العامين شارحا كلماته الأخيرة التي عابها لطلعت موضحا :

ــ الآن ، أمامنا خطوة لابد منها قبل اى شيء •• وقبل ان اعطي كلمة للباشمهندس طلعت • لابد أن اتصل بمحافظ الاسكندرية وأطلب منه التحرى عن أخلاقه • ليطمئن قلبي • واتخذ قراري • لذلك لم اظهر له موافقتي • ولكني لم اظهر له أي معارضة •

كان يتكلم بلهجة مطمئنة واثقة ، واستمعت اليه زهرة ، وهي معجبة باتزانه ووقاره • وزادت سارة تعلقا به ، وهو يعلن لها عن موافقته بهذا الأسلوب الرائع ، الذى يحافظ على مظاهر الاتزان وعدم الاندفاع •

وهمس يونس :

ــ يعني أنت موافق •• ولن تعدل عن رأيك ؟

قالها ، وكأنه يتقلم ، ينتزع أستار المظاهر ، ويكتشف استسلامهم ، ولهفتهم جميعا على المال •• يفضح عجزهم وخواء

نفوسهم امام صاحب الملايين . وضياع كل القيم التي زعموا انهم يعيشون بها ، عن اجدادهم واسلافهم وضياع تقاليد الأصالة والنبالة ، والتعالي على السوقية وعبادة المال .

قال النائب العام مواجها اتهام يونس ..

ــ ساوافق .. عندما يقول لي محافظ الاسكندرية ، انه لا مأخذ على سلوك زميلك ..

قالها بثقة ، رفعت معنويات زهرة ، وسارة ، انه لن يتحمل وحده مسئولية الزواج ، بل المحافظ هو اول من يصدر القرار . وهذا ضمان كامل للمظاهر . لن ينكره او يعترض عليه احد .

ووجه النائب العام ضربته الصائبة ليونس قائلا في وقار :

ــ لا تنس يا ابني انك الذي جاء بهذا العريس زميلك في العمل ..

وشعرت سارة ، بأن يونس غير مستريح . فاقبلت عليه وامسكت بيده ، وقالت وهي تنظر في عينيه في رقة :

ــ اعلم انك تدافع عني ، وتظن اني اقبل الزواج منه رغم اني اتهمه بالسوقية لانني محتاجة الى امواله . ولكن هذا غير صحيح .. صدقني اني اتزوجه بنفس الشعور الذي عندك عندما قبلت العمل في شركة البترول حيث تتحمل الحياة على غير ما تعودتها في معسكر ، حياة خشنة مرهقة .. ولكنك تمارس عملا وتؤدي واجبا .. وأنا اريد أن اعمل في مشروع طموح .. مشروع أن أجعل منه انسانا محترما بعد ان عجز على احترام نفسه ، رغم كل ما يملكه من مال ..

ثم ابتسمت قائلة بدلال .

ــ وما المانع يا أخي من وجود المال ..

قال يونس :

ــ ان مشكلته ليست في عدم احترامه لنفسه ، انه لا يحترم أحدا على الاطلاق سوى نفسه .

قالت سارة :

ــ هذا غير صحيح . انه ضعيف اكثر مما تتصور ..

قال يونس محتارا

ــ لا افهمك ..

ضحكت سارة قائلة

ــ لأنك لست امرأة ..

وهنا اختتم عبد الحميد بك صفوت المناقشة بحزم قائلا

ــ هذه المناقشات لا معنى لها .. حتى تصلنا التحريات .

وقالت زهيرة

ــ نعم .. غدا صباحا .. تتصل بالمحافظ ..

قال عبد الحميد بك :

ــ سأطلب منه ايضا .. ان يتصل بمرسي فرج .. ليعرف حقيقة موقفه من طلب ابنه ..

قالت زهيرة باهتمام واعجاب :

ــ هذا ما يجب ان نتأكد منه قبل اي شيء .. فقال عبد الحميد بك وهو يهز رأسه بتؤدة

ــ وهل يفوتني أمر مثل هذا يا زهيرة ؟ !

الفصــل الســادس

اهتم شهدى أبو اللطف محافظ الاسكندرية، بتلك المكالمة التليفونية الخاصة من عبد الحميد صفوت النائب العام فهذا هو الرجل المحافظ المتزمت، الذى يتعامل بالرسميات ويبتعد عن العلاقات العامة والاتصالات الاجتماعية، يلجأ اليه فى خدمة شخصية، ويريد ان يجعل منه واسطة خير فى عقد قران مزمع بين ابن مرسى فرج واحد من اهم رجال الاسكندرية، واكثرهم مالا ونفوذا، وابنة صاحب سلطة الاتهام فى الدولة.

ان المحافظ لسعيد حقا بأن يكون له دور فى هذه المصاهرة الهامة. انه يعرف جيدا أن كل طلبات مرسى فرج لابد ان تجاب. فهو لو غضب، غضب معه، مستثمرون امريكان وطليان وغضبت الرياسة وغضبت الصحافة، ليس فى مصر وحدها بل سوف يهال النقد فى كبريات الصحف الأمريكية والاوروبية. يتهم الاداره المصريه بمرض البروقراطية وتعطيل الانتاج والفساد. ولقد تلقى المحافظ درسه كاملا، عندما وبخه رئيس الجمهورية فى اجتماع عام بسبب تكدس البضائع فى الميناء. وكان المحافظ يعلم، كما يعلم الرئيس الذى يوبخه أن هذا الوضع بسبب أوامر اصدرها المحافظ خطأ باعطاء الأولوية فى التفريغ لمواد تموينية كان يعتقد ان الحاجة ماسة اليها وعاجلة، ولن يحدث ضرر اذا ما تأخرت عملية تفريغ حاويات مرسى فرج يوما واحدا. كما يعلم المحافظ الا يخدعه مظهر التواضع الشديد الذى يبدو به

مرسى فرج، وهو تواضع يجمع بين أدب الجرسونات الذى تعلمه مرسى عن صنعته القديمة بيونانيين وطليان أيام كان يعمل ميكانيكيا فى ورشة ماركو وديلانى بالاضافة الى أدب وتواضع الحاج مسلم التقى الورع، وعندما يزور شهدى ابو اللطف مكتب مرسى فرج فى شارع النبى دانيال يهتم مرسى بأن يدير تسجيلا لواحد من مشاهير المقرئين.. فيختلط الحديث بصوت التلاوه وهو ما يسره شهدى بذكاء ضابط المخابرات السابق، بان مرسى فرج يحاول أن يضفى جوا من الايمان والدين، يعوض به ما يشعر به من نقص فى ثقافته. وهو نقص يبذل الرجل جهدا كبيرا لتغطيته والتغلب عليه، حتى أنه أحيانا يستعمل كلمات ايطالية أو يونانية فى حديثه، فى نفس الوقت الذى يدعم فيه حضوره بتلاوة القرآن.

وقد سمع شهدى أبو اللطف من عبد الحميد صفوت ان المهندس طلعت تقدم يطلب يد ابنته كان أول انطباع له انه سمع فى مناسبة ما انه متزوج. ولكنه احتاط فلم يخبر النائب العام بهذه المعلومات التى لم يكن واثقا منها. كل ما قاله. هو انه كان يظن ان هذا المهندس متزوج، ثم تراجع امام ارتفاع صوت صفوت هادرا من التليفون، لابد أن يكون شخصا آخر الذى يتحدث عنه. لأن المهندس طلعت كان يزوره بالامس، يطلب يد ابنته.

وفرح شهدى لانه توقع ان يكون مرسى فرج سعيدا بهذه المصاهرة بين ملايينه وسلطة الاتهام، ولا شك أن عملية الزواج هذه، مشروع خطط له مرسى فرج وهو يقوم ببسط نفوذ امبراطوريته، وانضمام عبد الحميد صفوت الى عائلة هذه الامبراطورية، مفيد حقا، وهو يطمئن شهدى، الذى اصبح يعتمد فى كثير من تصرفاته وقراراته على نشاط مرسى فرج. وهو يساهم فى عضوية مجلس ادارة بنك الاعتمادات الدولية، وشركات الفنادق والبلاستيك والأخشاب التى يمتلك أسهمها مرسى فرج، وقد أرسل له منذ اسبوع هدية عبارة عن اسهم تأسيس فى شركة الملاحة الحديثة، التى ستساهم فى عمليات نقل البترول فى البحر الأبيض المتوسط.

طلب شهدى موعدا مع مرسى فرج ، وذهب لمقابلته فى بيته بحى الفراعنة . وما كاد شهدى يفتح الحديث فى الموضوع الذى جاء من اجله ، حتى ادرك ان الحاج ليست لديه اية معلومات . ولكنه كما توقع ، بدا عليه الاهتمام والترحيب بالأمر . فقد اعاد سؤال شهدى عن تلك المكالمة التى تمت بينه وبين النائب العام ، وماذا قال له . وكرر السؤال ، واستمع لما يقوله شهدى بدقة وحذر ، ثم انفرجت اساريره ، وقال انه كان يتوقع ان يقوم طلعت بهذه الخطوة . وانه قد آن اوانها . ولكنه لم يكد يعلن رأيه ، حتى قال لشهدى وهو ينظر فى عينيه نظرات قوية فيها مزيج من الأمر والرجاء :

ـ اسمع يا شهدى .. طبعا هناك مشكلة .. ولكنها بسيطة ومقدور عليها .

وروى مرسى لشهدى ان طلعت متزوج ، وانه اب لبنت توشك ان تبلغ الثالثة .

قال شهدى وهو يبتلع ريقه والمشكلة تبرز واضحة أمامه .

ـ ولكن صفوت بك ليست لديه اية فكرة .

فقاطعه مرسى فرج بحسم :

ـ ولا داعى لأن يعرف .. لأن طلعت سيطلق البنت ، وكان الزواج لم يكن . كان طيش عيال .. تزوجها وهو فى البكالوريوس .. لعب عيال .. لكن منذ اليوم ستكون هذه الزوجة تحت مسئوليتى انا .. وهى وابنتها .. ولا شأن لطلعت بهما . هذا هو ما قدرته منذ سنوات .

همس شهدى مرددا :

ـ ولكن صفوت بك .. يجب ان يعرف .. بمثل هذه الأمور ...

فقاطعه مرسى فرج محتدا :

ـ طبعا سيعرف يا شهدى .. وانا الذى سأقول له .. ولكن ليس الآن .. بعد أن يتم الطلاق .. بعد ان تنتهى هذه الحكاية .. وسوف انتهى منها الليلة . لن احرجك يا شهدى .. ويمكنك ان تحدد من الآن موعدا مع صفوت بك لاقابله .. ولكن اترك لى الأمر .

وافق شهدى ابو النطف على الامتثال لرغبة مرسى فرج .. وما كان يتوقع ان يفعل غير ذلك ، لولا انه لما عاد الى مكتبه فى المحافظة ، بدات هواجس تحاصره ، وتثير مخاوفه . ما ادراه ان مرسى فرج يخفى اشياء اخرى عن ابنه طلعت . ربما تزوج اكثر من واحدة ، وربما له اكثر من طفل وطفلة . وهو لا يستطيع ان يغامر مع النائب العام فيشترك فى الكذب عليه ، وفى امر يأتمنه عليه ، امر ليس بالهين ، فهو خاص بزواج ابنته ، ومصاهرة وزواج سيكون حديث كل الناس ، هل يحتمل عداوة النائب العام هل يحميه مرسى فرج أم يتخلى عنه ، ويفقد كل شىء ، انه وضع محرج ، ولابد ان يجد لنفسه مخرجا منه .

قضى شهدى ابو النطف ، ساعات قلقة ، حتى اهتدى لحل مؤقت ، وهو أن يطلب تحريات خاصة عن طريق مدير الأمن والمباحث ، عن المهندس طلعت ، وزوجته ، واولاده .. وعلى ضوء المعلومات التى تصل اليه سوف يتخذ قراره فى عدم ابلاغ النائب العام او ابلاغه ما لديه من معلومات .

وهكذا طلب مدير الأمن ، وقال له بعض الحكاية ، وطلب المدير رئيس المباحث الذى كلف احد ضباطه بالتحرى . وكان كل واحد يهمس للآخر بالسر .. المهندس طلعت سيتزوج ابنة النائب العام . وهو السر الذى استمر الذين يقومون بالتحرى يهمسون به ، حتى وصلوا الى اهم مصدر للمعلومات فى نظرهم ، وهو سيد العتر . وكان الضابط الذى استدعاه حريصا كل الحرص على ان يجمع كل ما يمكنه من معلومات ، لذلك اخبر سيد العتر بخطورة الموضوع ، وانه خاص بزواج ابنة النائب العام ، شقيقة يونس الذى تسوق سيارته ، هو والخطيب المتقدم للزواج ، طلعت ابن مرسى فرج .

عندما برز سيد العتر فجأة أمام باب فاطمة ، وثب قلبها بين ضلوعها ، ادركت بحدسها أنه يحمل انباء سيئة ، وربما ساعد على احساسها بذلك بريق فى عينيه ، وأنه لا يحمل بين يديه شيئا .. فطلعت الذى احتفى لم يرسل معه ما يسترضيها به وهى مضطرة الى ان تسمع ما سوف يقوله ، ولسوف يؤلمها ما يقوله .

بادرها سيد بتحية تمتم بها ، وعيناه تبرقان ، تتحصانها كأنه يبحث عن النقطة التى يصوب اليها السهم الذى سيطلقه يبحث عن نقطة ضعفها . كأنه لا يعرف ان ما يصيبها ، انما يأتى من العيون . نقطة ضعفها هى العيون التى تراها ، فالعيون قد تسحرها ، او تحسدها ، او تعرها . العيون قادرة على أن تفعل بها كل شىء . احيانا ترى العيون تقتحمها فتشعر بالاهانة أو تشعر باللذة ، أما عينا سيد فهما تلمعان وتبرقان بومضات خبث وشر

وما هى تسمع ما يجب أن تسمعه من عينيه ، قبل أن يتكلم بصوته ، وما هو يرفع صوته :

ــ طلعت سيتزوج .

ارادت الا تصدقه ، أن تشتمه ، أن تقاوم كل هذا الذى يحدث بها . ولكنها لم تستطع . كانت تتمنى ان تكون اقوى من سيد وأن تظهر له شيئا من قدرتها على مواجهة المصائب والكوارث ولكنها لم تفعل ما كانت تتمناه . وجدت نفسها تتورط شيئا فشيئا فى اسئلة ملهوفة متتابعة . وكان واضحا لها أن سيد فى قمة نشوته وهو يواجهها بمعلوماته ، ويبتسم لها ، كأنه صديق او حليف . وما هو يجيب على الأسئلة بافاضة . هذه المرأة التى سيتزوجها هى ابنة النائب العام . ولكن هناك احتمالا أن يرفضوا! قالت لنفسها كيف يرفضون طلعت . انهم لا يعرفونه كما تعرفه اذا اراد شيئا فسوف يصل اليه . رغم كل شىء . انه لا يتورع عن شىء . اما ما يقوله سيد أن ابنة النائب العام تجهل ان طلعت متزوج ، فهو امر لا أهمية له . انها تسعى وراء ماله . كما يسعى طلعت وراء نفوذها . اوشكت فاطمة على الانهيار ، او أن تقع فريسة جنون مؤقت ، وهى تواجه منافسة ، بين فاطمة ابنة زكريا الترزى وجست ، وتلك المرأة ابنة النائب العام .. ما اسمها ؟!

اجاب سيد انه لا يعرف ، ولكن شقيقها زميل طلعت فى ماركو اسمه يونس ، وهو جاف متعال ، لا يريد ان يكلم أحدا .

قال سيد وهو ينظر بقوة فى عينى فاطمة :

ــ ما رايك فى أن اقول له ان طلعت متزوج .. اعتقد انه سوف يلغى الزواج .

قالت فاطمة وهى تفكر :

ــ واين ستذهب له !

قال سيد :

ــ فى فندق سميل .. عندما يعود من مصر .

قالت فاطمة وهى تسترد كل قواها فى محاولة لطرد اوهام كثيرة تحاصرها :

ــ أنا التى ستقول له .

كانت قد قررت الا تستسلم ، وأن تحارب من اجل الاحتفاظ بطلعت ، وكانت تعلم أن لها اعداء ، فى صف النائب العام وابنته وشقيقها ، وهى لا تعرف على وجه محدد معنى لقب النائب العام ، حتى وسيد يشرح لها انه الرئيس الكبير للنيابة والشرطة .. فكانت تترجف لبرهة خاطفة ، ثم تعود وتسأله ، وما شكلها ، وما الذى اعجب طلعت فيها . سوى انها ابنة رجل له اهميته .. ولكن لماذا يحتاج طلعت الى أن يتصل بمثل هذا الرجل . لماذا يتخلى عنها وعن ابنته ، ما الذى سوف يحصل عليه ، ما الذى يكسبه ؟

قال لها سيد محذرا ، انها يجب ان تعلم ما دامت تصمم على مواجهة الأمر بنفسها ، انها امام ناس اشرار ، لا يتورعون عن القاء الابرياء فى السجن ، وانهم من عالم آخر ــ غير عالمنا يا فاطمة ــ والاقتراب منهم خطر وكله ضرر ، ومعرفتهم لا تجلب الا الخسارة .

استمعت اليه فاطمة ، فازداد التحدي في عروقها ..
وهكذا دهبت تبحث عن يونس في فندق سيسل .. ووجدته لأنه كان قد ترك البيت ، وعاد الى الاسكندرية .. وهو يشعر بحزن واكتئاب لما رآه في لهجة ابيه وامه واخته ، على هذا الزواج الذي يرفضه طلعت .. ما كان يتصور انهم قد بلغوا هذه الدرجة من الانهيار ، ومن الخواء ، ومن الافلاس .. ولم يتحمل البقاء معهم ، ولم يمانعوا في سفره .. بل كأنهم رحبوا بأن يبتعد بنظراته وأسئلته التي كلها اتهام لهم .. كما شعر ابوه انه من الأفضل الا يمانع في سفره المبكر ، ليكون قريبا من مقر الأحداث ، وقال ليونس وهو يودعه :

ــ عندما تصل الى الاسكندرية ، اتصل فورا بالمحافظ واستمع لما يقوله .. وابلغني به ..

همس يونس :

ــ لا أريد ان احشر نفسي في هذا الموضوع ..

فقال الأب غاضبا :

ــ هذا واجبك .. نحو شقيقتك .. لا اريد ان اسمع منك هذه النغمة مرة أخرى .. هل تفهمني ؟ ! .

ونكس يونس رأسه ، لا ينبس بكلمة ، وهو ما تصوره صفوت بك انه استسلام من يونس واقرار منه بذلك ..

وكان يونس في حجرته بالفندق ، عندما دق التليفون ، وقال له موظف الاستقبال :

ــ ان سيدة تنتظره وتريد مقابلته ..

وقال الموظف بلهجة غريبة

ــ ان السيدة تلح في رؤيته ، ويبدو ان لها طلبا في النيابة ، وانه لا يدري ماذا يفعل أمام الحاحها .. وقد حاول أن يتخلص منها ، ولكنها ظلت واقفة امام الباب ، وطلب من البواب أن يبعدها ، لأنه يبدو من طريقة ملابسها انها ليست من رواد الفنادق ، وقد تكون

امرأة مشبوهة .. لولا ان لهجتها الجادة ، وروح التحدي والاصرار ، لا يتفق مع هذا الحكم ..

وفجأة همس الموظف انها تقترب منه ..

استمع يونس بدهشة .. حتى قال الموظف بلهجة مختلفة ،

ــ انها تقول انها زوجة صديق لك .. ها هي يا سيدي بجواري .. تريد أن تخاطبك ..

زوجة أي صديق .. لم يفهم يونس شيئا ..

حتى سمع صوتها يأتيه عبر الأسلاك .. صوت انثى ، صوت رخيم دافئ ..

ــ أنا امرأة .. الباشمهندس طلعت ..

هتف يونس في اعماقه .. ان هذا مستحيل ، لكنه أسرع بالهبوط ليقابلها ..

وجد في انتظاره امرأة مشرقة اقرب الى الامتلاء دون ان تفقد قواما رشيقا مشرقا .. تستخدم المكياج بكثافة ، صورة من بنات بحري كما رسمهن محمد سعيد .. العيون الكحيلة ، البشرة الناعمة ، الوجه الممتلئ .. الشعر الأصفر المصبوغ ، الدمشقة ، الذهب في الذراعين ، الفستان الأحمر ، فوقه بالطو اسود .. جمال بلدي ، الوان فاقعة ساخنة .. عينان جريئتان .. الصوت دافئ يتسلل الى الأذن :

ــ أنا زوجة طلعت زميلك .. الباشمهندس طلعت ابن الحاج مرسي فرج ..

لابد أن يصدقها .. لا يستطيع أن يطردها ، ويتهمها بالكذب ، لابد أن يصبر حتى ينقشع الضباب ، لابد ان يتماسك ، ولا يترك نفسه تتداعى وهو يفكر فيما سوف يحدث في البيت لشقيقته ولأمه ولأبيه ..

قالت وهي تنظر في عينيه ، توشك أن تهاجمه بشيء ما .. ربما كانت تخفيه .. فهكذا بدت متحفزة متنمرة :

- هل كنت تعلم أنه متزوج .. وله ست ؟

همس يونس

- لا ..

فقاطعته محتدة

- هل صحيح أنه يريد أن يتزوج أختك ؟

قال يونس مستنكرا ، وهو واثق أن كل ما سوف يقوله من الآن فصاعدا هو ما يعبر عن الحقيقة .. كما كان يجب أن تكون ، كما كان يجب أن يعبر أبوه وامه وسارة قبل أن تصفعهم الصبيحة :

- من قال لك ذلك .. لا صلة لأختي به .

فاذا بها لا تكترث بانكاره وتكرر السؤال في عناد وتحد :

- صحيح أم غير صحيح ؟

صاح يونس

- طبعا غير صحيح .

قالت تواجهه .

- سيطلقني بسببكم .

صاح يونس

- مستحيل .. انه عاقل .

قالت بما يشبه ازدراء لما يقوله

- أنت لا تعرفه .

ثم أردفت

- تستطيع أن تمنعه .. اذا كنت لا تريد أن يتزوج أختك .

قال صحرا .

- انه لن يتزوجها .

قالت وكأنها لم تسمعه ، أو لا تصدقه :

- النهاية هي أبوك .. يستطيع أبوك أن يرفض .. ينصحه ويقول له .. كفى فضائح .

قال يونس

- كل ما يستطيع أبي أن يعمله .. هو أن يؤكد لك لا صلة له بشقيقتي .

قالت تتفرس في هذا الوجه الكاذب الذي تتشكك في كل كلمة يقولها

- ألم تطلب من طلعت أن يطلقني ؟

صاح مذعورا :

- أنا .. مستحيل .. مستحيل .

قالت في هدوء تقرر حقيقة لاشك فيها :

- أبوك هو الذي طلب .

قال بكل ما يملك من طاقة للصبر ويقنعها بصدق تصره :

- مستحيل . أبي لا يعمل ذلك

قالت ساخرة في مرارة :

- لي رب يحميني .

رد يونس بلهجة آلية .

طبعا .. طبعا .

ثم رفع صوته قائلا بصوت قوي .

- سوف أحضر لك طلعت بنفسي .. واجعله يقر أمامك بالحقيقة .

نظرت اليه في ألم .. كانت تدرك بفطرتها ، أن الحقيقة غالبا ما تكون مصدر ألم وهي لا تريد أن تسمع أن أحدا سوف يحضر لها طلعت ، انها لا ترجو ولا تتوسل ، ولا تنتظر عطفا واحسانا ،

طلعت سوف يأتي من تلقاء نفسه ، فلا شأن لأحد به ، ستواجههم جميعا ، لن تتركهم يخطفون طلعت منها ومن ابنتها .

قالت ليونس :

ـ لست أريد منك شيئا سوى ان تهتم بشفقتك وتبعدها عن طريقي .

قالتها بصوتها الرخيم الذى اكتسب قوة ، وهى تشعر بأن أشباحا تترصى بها ، لها أسماء عجيبة مثل النيابة ، والنائب العام ، وكانت تشعر ، بأن طلعت يختفي وراء هذه الأشباح ، وربما معه أبوه الحاج مرسى ، وسيد العتر الذى كان يحذرها منهم ويقول انهم أشرار .

رفعت صوتها محتدة ، مندفعة نحو هذا الشر وتلك الأشباح التي تترصى بها تتحداها ، تريد أن تصل معها الى آخر المدى .

ـ سوف أفضحكم .. يا خطافين الرجال ..

همس يونس مذعورا :

ـ اطمئنى .. ارجوك .. اقسم لك ..

لم يسمح لها ان تندفع ، ان تواصل المسيرة ، فى عينيه ألم ، وربما صدق ، ولكنها واثقة أنه شرير من عالم الأشرار .

صاحت :

ـ أنت تكذب .

قال فى ألم :

ـ صدقينى .. لن يحدث شيء مما تقولين .

ما كاد يودعها ، أو يتخلص منها ، حتى أسرع يتصل بشهدى أبو النطف الذى استقبله فى الحال واستمع اليه وقلبه يدق بشدة . ان يونس يعرف كل شيء لقد قابلته زوجة طلعت ، وبدأت تثير العضائم . ان الموقف يتأزم ولابد من تصرف سريع . بعد أن فرغ يونس من حكايته . قال شهدى بوقار يحسده عليه أى ممثل ،

ان الأمر من الخطورة بحيث يستدعى التحقق منه . فمن يدرى ، قد تكون تلك المرأة التى قابلها ، تدعى أنها زوجة طلعت . ولابد من تفسير نسمعه اولا من أصحاب الشأن ، قبل أن نتورط فى موقف يسىء الى الجميع .

وابتسم المحافظ قائلا :

ـ أنا فى هذا الموضوع واسطة خير .. ولن أكون سببا فى مشكلة أو سوء تفاهم بين صديقين عزيزين ، والبك الذى كلفنى بهذه المهمة الخاصة الدقيقة ، والحاج مرسى ، وهو رجل كبير وله مركزه ، ولا نستطيع أن ندعي عليه أو على ابنه ما قد يسىء اليهما .

قال يونس وهو يرى بخياله وجه فاطمة :

ـ لكنى أشعر .. أنها كانت صادقة ..

نظر اليه المحافظ يريد ان يسبر اغواره ، يريد أن يعرف الى أى مدى يستطيع أن يواصل تمثيليته ليكسب وقتا ثمينا ، يبلغ فيه الحاج مرسى بتطورات الموقف .

وقال شهدى أبو النطف :

ـ على أية حال .. كل ما أطلبه هو التروى .. ساعتين فقط أو ثلاثا .. قبل أن اتصل بوالدك .. حتى نتحقق من الأمر .

وأرجأ المحافظ اجتماعاته وألغى مقابلاته وأسرع الى بيت مرسى فرج يبحث معه الأمر .

الفصل السابع

وصل شهدي أبو اللطف الى بيت الحاج مرسي فرج • فوجد ان الأحداث قد بلغت ذروتها، كان طلعت مع والده ، يتفق معه على طلاق فاطمة • وما يعملونه بها وبابنتها فلما سمع الحاج الأنباء التي جاء بها شهدي وعرف ان فاطمة ذهبت الى يونس شقيق العروسة وابن النائب العام • وقالت له انها زوجة طلعت وعلى ذمته ، ثار الرجل ، وهو عندما يثور ، يهاجم الجميع بلا استثناء ، فهاجم طلعت وسأله كيف عرفت بنت زكريا المنولوجست انه اعتزم الزواج من بنت النائب العام •• ونفى طلعت انه تحدث في الأمر مع احد ، غير يونس شقيق العروسة ، وطبعا تحدث مع النائب العام وزوجته في بيته ، وهو لا يتصور ان احدا من هؤلاء هو الذى اخبر فاطمة •

فصاح الحاج أن أحدا لابد عرف بالأمر وأن القاعدة الأولى لنجاح اى عمل ، وهي الكتمان ، قد انهارت بسبب خيانة ما ، ولابد ان نعرف مصدرها • والتفت الحاج الى شهدي ابو اللطف ، الذي كان يشعر بحرج شديد ويحاول ان يبدي دهشته مما يسمعه ولكن محاولته فشلت • فقد هاجمه الحاج مرسي وقال له ان كل شيء واضح امامه ، فهي رجال شهدي من يتجسس على اخباره وليست هذه هي المرة الأولى • وهو لا يعرف كيف يشكمهم •

وخطرهم ليس على الحاج وحده ، بل خطرهم الأول على الرئاسة وهذا هو ما يجب أن يفهمه شهدي وإلا أخطأ في حساباته •

كان شهدي يدرك تماما معنى كلام مرسي فرج ، انه يهدده بتغييره ، وهو يعرف أن الرجل قادر على أن يفعل ذلك • فالشكوك والوساوس تزداد وتتضخم كل يوم • حول ناس اشتراهم الشيوعيون • او اشترتهم ليبيا ، او اشترتهم ايران ، وكل يوم يدخل الساحة مشترون جدد •

وأصبح هذا هو التفسير المقبول والوحيد لأى مشكلة تحدث ، سواء عامة أو خاصة ، سواء كانت مشكلة عمال النسيج وتذمرهم الذى أدى الى تكديس البضائع في الميناء او مشكلة فاطمة زوجة ابن الحاج ، التى تدافع عن بيتها حتى لا يطلقها زوجها •

وكان شهدي أعقل من أن يعارض الحاج •

وكان يعرف انه لابد وأن يقدم ضحية قربانا يسترضي به ذلك المليونير الغاضب الثائر • انه لن يقبل ان تصبح ثورته هباء ، ولابد ان يقتنع في الحال انه سيد مرهوب الجانب •

قال شهدي ابو اللطف انه يرى ان الأمر فعلا خطير وانه سبق وان قال للحاج انه غير مطمئن لعمل مدير الأمن ، فهو صديق رئيس الوزراء السابق ، الذى يرسله الرئيس من وقت لآخر برسائل الى الدول الشيوعية لانه على علاقة طيبة بهم • واذا كانت مقتضيات الدبلوماسية تتطلب مثل هذه الصلات الا ان اعوان رئيس الوزراء السابق يتوهمون انه سيعود الى السلطة ، وهو يشجعهم على ذلك • فيعملون على خدمته بكل الوسائل ، وهو لا يشك الآن في ان مدير الأمن كان وراء ما حدث ، لانه أخبره بنفسه وما كان يتوقع أن يخونه مدير الأمن •

قال الحاج وهو يفحص وجه شهدي بنظرات حادة :

— أنت يا شهدي الذى أخبرته •• ؟

همس شهدي :

— نعم يا حاج ..

فسأله الحاج :

— لماذا .. ؟

فشرح شهدي مدافعا عن نفسه ، بأنه خشي أن يلجأ النائب العام الى أحد أعوانه ، ليتصل مباشرة برجال الأمن ويطلب منهم تحريات عن طلعت . فاراد ان يخبر مدير الأمن ان بنت النائب العام مخطوبة لطلعت ، حتى اذا حدث أى طلب للتحرى فسيخبروه به واختتم شهدي دفاعه ، بأنه كان لا يتوقع ابدا ان تصل الأمور الى هذا الحد ، باستغلال هذا الظرف الشخصي لاثارة متاعب باسلوب منحط وضيع .

وهنا ثار الحاج مرسى على النائب العام الذي يفكر في ان يتحرى عن ابنه . فمن يكون هذا الرجل وهو ليس أكثر من موظف يتقاضى مرتبه من الحكومة ، وهنا تدخل طلعت وقد رأى الهجوم يتجه بعيدا عنه . فقال ان ما حدث من فاطمة يفرض عليه الآن ان يطلقها ، وهو لن يكتفي بالطلاق . فسيضربها اولا علقة لن تنساها وسوف يكسر لها ساقا حتى تقعد كسيحة فلا تعاود حماقاتها وفضائحها ، او تلف وتدور على الناس تحكي حكايتها في كل مكان وزاد هياج طلعت وهو يتكلم فاقسم بشرفه انها لو فتحت فمها بكلمة واحدة امام اى مخلوق بعد الآن فسوف يفقأ لها عينا او يشوه وجهها حتى تندم طوال حياتها انها عاشت في هذه الدنيا .

فقال شهدي أبو اللطف ، وهو يلتقط انفاسه ، بعد أن تغير اتجاه العاصفة ، ان العنف لن يفيد مع مثل هذه المرأة ، وان من الممكن محاصرتها بطرق أخرى ، دون حاجة الى كسر ساق أو ان يفقأ لها عينا ، وهنا تدخل الحاج متحدثا بلهجة ساخرة ان شهدي قد إعترف بأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا ، لأنه يعتمد على رجال غير موثوق بهم . فكيف سيحاصر فاطمة وبأية وسيلة هل سيعتمد على مدير الأمن أم ماذا ؟

فقال شهدي ، ان له رجاله الذين يأتمرون بأوامره . أما مدير الأمن فله معه شأن آخر ، وهو يتوسل الى الحاج مرسى ان يوضح حقيقة هذا الرجل للرئاسة ، قبل ان يتمادى في عبثه وخيانته .

فقال الحاج مرسى بهدوء :

— لن يطلع عليه الصباح وهو مدير الأمن في هذا البلد .

واستمع شهدي الى كلمات الحاج في وجوم ، وقلبه يدق بعنف ، وقد استولت عليه رهبة عجز عن اخفائها وهو يردد :

— تمام يا حاج .. تمام .. تمام .

بينما التفت الحاج الى طلعت وقال انه يريد منه أن يأخذ الأمر بهدوء ، والشيء الذي على طلعت ان يقدم عليه في كل الأحوال ، هو ان يتم الطلاق . لأنه لن يقبل أن تشهر به فاطمة بنت زكريا وشفيقة .

قال طلعت : ان هذا الطلاق سوف يتم في الحال ، وضحك ضحكة عصبية وقال انه واثق بعد مقابلته للنائب العام وزوجته ، انهما لن يفرطا في عريس مثله .

وهنا سارع شهدي ابو اللطف بتأييده ، فقد وجدها فرصة لأن يعبر عن مشاعره نحو الحاج وابنه . ويقول ان طاقة ليلة القدر قد انفتحت للنائب العام اذا قبل طلعت الزواج من ابنته . لكن الحاج مرسى هز رأسه وقال ان تجربته في الحياة قد علمته ان هناك نوعا من الناس يبلغ بهم الحمق انهم يهتمون بالمظاهر الى أقصى حد . ومن بينهم الأفنديات امثال عبد الحميد صفوت النائب العام . وليس غريبا ان يغضب ويعتبرها اهانة لا تغتفر ان تقدم طلعت للزواج من ابنته الوحيدة البكر كزوجة ثانية له .

فاعترض طلعت على كلام أبيه . وقال ان هذا الذي يقوله تفكير قديم لا يتفق مع عقلية الناس في هذه الأيام . ولكن الحاج رفض أن يستمع اليه وقال مقاطعا ان عبد الحميد صفوت تفكيره أيضا قديم ، فهو ليس مثل اولاد هذه الأيام ، سيبحث عن صفقته

بأية طريقة . فدخن طلعت مرة أخرى ، وقال بلهجة ثائرة .. ومن يكون عبد الحميد صفوت ؟ تقول أنه لا يملك سوى المظاهر . يعني انسان أحمق مغفل . ولكنه مهما بلغ حمقه فلن يرفض ما تقدمه له .

وهنا تدخل شهدي أبو النطف ، وقد وجد أمامه الفرصة لأن يزداد اقترابا من الأب والابن . وقال بانفعال ان هذا الذي يقوله طلعت صحيح مائة في المائة ، والرجل كما قال الحاج موظف في الحكومة وهذه خدمته كدائب عام ستنتهي بعد شهور قليلة في يناير او فبراير القادمين عندما يبلغ السن ويحال الى المعاش وعندئذ لن يكون موظفا له أية قيمة في المجتمع ولن يكون معه مال ، وسوف يقبل اليد التي تمتد لمساعدته ، او تتوسط لمد فترة خدمته لسنتين او ثلاث سنوات . ولذلك هو مستعد أن يراهن على أن عبد الحميد بك صفوت لكي يحفظ مركزه ووقاره وتزمته ، سوف يرضخ ويرضى لابنته بطلعت ، سواء كان متزوجا ام مطلقا .

تابع الحاج مرسي كلام شهدي باهتمام ، ولعله رحب له ولكنه اراد أن يمتحن مدى صدقه . فسأل بلهجة من لا يصدق ما يسمعه

ـ انت تتحدث يا شهدي عن الرجل كما لو كان مستعدا لأن يبيع نفسه وابنته . من أجل أن يبقى في منصبه .

فارتبك شهدي . وخيل اليه ان الحاج يتهمه هو بأنه على استعداد لأن يبيع أي شيء ليبقى في منصب المحافظ .

وارتفع صوت طلعت :

ـ هذه هي الحقيقة .. فانا اشترى البنت .. لانها البضاعة التي اريدها ..

فقال شهدي مرحبا بتدخل طلعت ومبهورا بالتفسير الذي يقدمه :

ـ البنت جميلة .. وبضاعة ممتازة فعلا .

كان لابد أن يندفع شهدي الى تأييد ومساندة طلعت ، ليكسبه ، ولأنه في قرارة نفسه يعلم ان الأب في نهاية المطاف ، ومهما حدث ، لن يتخلى عن ابنه ، وان الطريق الذي لا يخطيء لكسب رضاء الحاج هو الوقوف الى جانب ابنه حتى لو عارض اباه لبعض الوقت . وهو اسلوب في التقرب من المليونير مرسي فرج تعلمه شهدي من مبادىء الاستراتيجية التي درسها في كلية اركان الحرب . فكان يقول لنفسه اذا كان الهدف امامه هو التقرب من الرئاسة والحصول على رضاها فكي تنفتح امامه الابواب للترقي والتربع على أكبر المناصب والاستيلاء على أكبر نصيب من السلطة والنفوذ . فهذا لا يتحقق كما درس في علوم الاستراتيجية بالاقتراب المباشر من الرئيس بل يتحقق بصورة اسرع وافضل عن طريق الاقتراب غير المباشر . ولذلك هو يقترب من الرئاسة عن طريق غير مباشر هو الحاج مرسي فرج صاحب الحظوة والعلاقات الوثيقة بالرئاسة وهو يقترب من الحاج عن طريق غير مباشر وهو ابنه طلعت ، وهكذا كسب وطد علاقاته وصلاته غير المباشرة بأهدافه الرئيسية كان اقترابه اسرع نحوها وبأمن تكتيكة محكمة ..

ومضى شهدي يقول :

ـ البنت من أصل ارستقراطي .. من أمها زمردة هانم ..

فاذا بطلعت يعارضه بلهجة ساخرة

ـ لو الجمال وحده هو الذي يهمني ما شغلت نفسي بهذه البنت ، والجمال انواع واشكال والوان ومهما كان جمال المرأة فلابد أن تملها بعد شهر او ستة شهور على الأكثر . أنا اشترى هذه البنت ، لأني اريد ان أعيش حياة أفضل مما انا فيه . ستعلمني كيف اتحرك بين الناس . لا أقصد هنا .. ولكني أريد ان أذهب الى اوروبا ، وتكون لي علاقات عالية وتجارية .. وعندا

يحتاج الى تعامل بأسلوب مختلف عن الذى تعودناه هنا فى حياتنا .

كان الحاج يستمع الى طلعت باعجاب ، وقال بصوت قوى :

ربما يحميك يا ابنى ..

والتفت الى شهدى وقال

— الولد على حق .. ولذلك .. اريد أن أخلصه من الماضى الذى يقيد حركته .. انه مع فاطمة لن يشعر بحرية كما يجب لأنها ستكون عبئا عليه . وسوف نتخلص منه الآن .

وجاء المأذون ، ووقع الطلاق وكان شهدى أبو اللطف محافظ الاسكندرية شاهدا على الطلاق . ومعه عبد الحميد سائق سيارة الحاج .. وما كاد المأذون يفرغ من مهامه ، حتى نهض طلعت ، وأعلن انه سيذهب الى يونس ، ليخبره بنفسه بأنه كان زوجا لفاطمة وسيطلب منه أن يبلغ والده ، بأن تلك المرأة كانت مطلقته ، وانها شىء فى حياته لا أهمية له . ورحب شهدى باقتراح طلعت لأنه يوفر عليه الحرج الذى سيواجهه وهو يكذب على النائب العام ، ويخفى عنه أن الطلاق تم الآن فقط .

وقرر طلعت أن يأخذ يونس على غرة ، فذهب الى الفندق ، وتأكد من وجوده فى حجرته ، وصعد اليه بلا استئذان ، واقتحم الحجرة ، ليواجه يونس الذى كان راقدا على السرير مرتديا القميص والبنطلون وما كاد يرى طلعت ، حتى قفز مرتبكا ، يتراجع بخطوات الى الوراء ، يكاد لا يصدق عينيه ، وطلعت يصيح فى شراسة نمر هائج

— أين زوجتى .. قالوا لى أنها جاءت اليك .

قال يونس بصوت متحشرج وقد تعطلت قدرته على التفكير

— قابلتها تحت .. لم تصعد الى هنا .

فزعق طلعت :

— لا تكذب .. أين أخفيتها .. سأبلغ الشرطة ، سأبلغ النيابة ..

فتوسل يونس فى هلع

— صدقنى .. انها لم تصعد الى هنا ..

فجلس طلعت على حافة السرير ، وابتسم ابتسامة وقحة .

وقال .. تصعد الى هنا .. او لا تصعد . هذا لا يهمنى .

واستمع اليه يونس ذاهلا ، فتقدم منه طلعت بخطوات ثابتة ، وقال :

— انها ليست زوجتى يا مغفل .. أقسم لك انها ليست زوجتى ..

كان يونس ينظر اليه متفحصا .. فأكمل :

— كانت يوما ما زوجتى .. ولكنى طلقتها .. ولا شأن لى بها .. وسوف أكسر رجلها حتى لا تتصرف كما فعلت معك هذا الصباح .

همس يونس محاولا أن يفهم :

— يعنى انها كانت زوجتك .. ؟

قال طلعت متحديا :

— نعم ..

أطلقها كما لو كانت رصاصة يريد بها مقتلا فى يونس .

فقال يونس بصوت خفيض ليخفف من انفعاله .. والمعلومات التى يعترف بها طلعت خناجر تغوص فى لحمه .

— كان يجب أن تقول لى .. قبل ..

فقاطعه طلعت قبل أن يكمل .. كان لا يريد أن يترك له فرصة لأن يتهمه .. لا لأنه خائف من يونس ، ولكنه واثق انه لن يقبل أى لوم من يونس .. ولا من أبيه .. وسوف ينفجر ثائرا

لو حدث هـذا ، وسيحطم كل شيء ، ويلغي مشروع الزواج .. وهو لا يريد ان يصل الى هذه النتيجة ، لذلك .. لابد ان يمنع يونس من ان يوجه اليه لوما ، او تأنيبا ، لابد ان يظل يونس في موقف الدفاع ، وهو في موقف الهجوم . فهذا هو الوضع الطبيعي لكليهما . اما لو حاول يونس ان يخرج من منطقة الدفـاع ويتحول الى الهجوم ، فعندئذ سوف يصفقه طلعت . سوف يسفه ، وهو حقيقة لا يريد ان يصل الى هذه النتيجة التي تنسف هدفـا من أهدافه ، ولا يريد ان يقول لنفسه ، انه بذل جهودا من بينها السفر الى القاهرة ومقابلة النائب العام وزوجتـه ، وبعد ان انفق أياما ولياليَ ، وهو يتحايل ويتصور ويشتهي ويرغب ثم تصبح كل هذه الجهود هباء .

قال طلعت يفرض نفسه بصوت مرتفع وهو يمد كفه امام وجه يونس :

ــ انظر .. ليس في اصبعي دبلة .. لا دبلة زواج ولا دبلة خطوبة ..ارجوك لا تسألني اسئلة سخيفة ولست على استعداد لأن يحقق معي أحد ..

ثم ضحك ضحكة عالية ساخرة وقال :

ــ الا اذا كان الذي يحقق هو النائب العام .. لا ابنه ..
وهو يدم يربت على كتف يونس قائلا باستخفاف

ــ اسمع يا ابني .. اطلب والدك . واخبره بما قلته لك .
ولننته من هذا الموضوع ..

قال يونس بهدوء :

ــ لقد طلبته فعلا .. وانتظر مكالمته في أية لحظة .

وصمم طلعت على أن ينتظر المكالمـة . ولكن ما كاد يونس يروى الحكاية ، حتى ثار والده وسمع طلعت اطرافا من ثورة النائب العام « .. تقول انه متزوج .. كيف يجرؤ .. هذه فضيحة .. » وعبثا حاول يونس ان يقول لوالده ان طلعت بجواره .. كان مجرد

ذكر اسم طلعت كافيا لأن يشتط الرجل معلنا انه لا صلة له بعد اليوم بهؤلاء الرعاع ..

وكانت كلمة الرعاع هذه ، هي التي وصلت الى أذني طلعت فاختطف السماعة من يونس ، وصرخ في عبد الحميد بك بصوت ، انه ليس من حق رجل مثله أن يشتم أسياد الناس .. لأننا يا عبد الحميد بك ، تشرفت عندما نطلب يد ابنتك .

وصرخ طلعت :

ــ اسمعني يا عبد الحميد بك ..

كان الرجل قد انهى المكالمـة من جانبه . فالتفت طلعت ثائرا الى يونس وقال :

ــ الرجل لا يريد ان يفهم ..

قال يونس مرتبكا :

ــ انها مسألة تقاليد .. لا يتصور أن يخرج عليها ..

فصـــاح طلعت :

ــ اي تقاليد .. على حذائي هذه التقاليد .. من حقي ان اتزوج مثنى وثلاث ورباع . لن يحرم ابوك ما احله الله ولتعلم انني ما كنت سأنفقه على شقيقتك .. بل وعليه هو وامك .. لن يستطيع اي زوج آخر لها ان ينفقه في الف عام . وصراحة إسمعني .. وأبوك عجوز خرف .. لتعلم ان عروسكم ليست أول ولا آخر النساء في العـالم ولسوف ترى أي سأتزوج سيدة سيداتهـا ..

كان طلعت ثائرا ، محتدا وكان لا يدري ماذا يقول ، كأنـه أصيب بضربة على رأسـه افقدته توازنه كان غاضبا وكان يقسم ، وكان يدور حول نفسه وهو يتكلم ثم فتح باب حجرة يونس ، وخرج بعد أن صفق الباب وراءه ، كما لو كان يريد ان يحطم الحجرة بمن فيها .

ولم تصدق زهيرة هانم ما قاله لها عبد الحميد بك ..
وصممت على ان زوجها لم يفهم ، واساء تقدير الموقف ، واساء التصرف ، ولقد كان في تصرفها هذا شيء من الذكاء غير المتعمد ، لأنها رفضت ان تواجه الواقع الأليم ، وتجاهلت الحقائق ، لعلها تحصل على فترة من الوقت تفكر فيها ، وتجد مخرجا للمأزق الذي وقعت فيه وتورطت فيه ابنتها سارة . وكانت زهيرة تعرف ان سارة قد اسرت بالخبر لبعض صديقاتها وسألتهن اذا ما كانت تقبل الزواج من طلعت ابن المليونير ، أم ترفضه . وكانت فرحة وهي تسمع لهفة البنات على زيجة مثل هذه ، وعجبهن من مجرد ترددها وتساؤلها . فمن يرفض النعيم ، ومن لا يقبل دخول الجنة ، والمال يصنع من طلعت بإشرافها جنتلمانا اذا شاءت ، وآن ديلون ، او حتى ترافولتا اذا شاءت وكانت زهيرة قد بدأت تنسج مشاهد من افراح الف ليلة وليلة ، في فرح الموسم .. وتشيد قصورا للسعادة والرفاهية ، بعد ان انفتحت لها طاقة ليلة القدر .

ولكن كان لابد أن تواجه أخيرا الواقع ، وقد أبلغ شهدى أبو اللطف النائب العام بالحقيقة في محادثة خاصة بينهما .. وعرف النائب العام ان طلعت .. هذا الولد الرقيع المجنون دخل بيته ، وهو مازال متزوجا من زوجته ، وانه كذب وقال انها مطلقته في حين انه طلقها بعد ان اجبره ابوه وعمه شهدى ابو اللطف على أن يفعل هذا ، وقد روعت زهيرة بعض الوقت بهذه المعلومات التي كشفت عن ابعاد الفضيحة التي اوشكوا أن يتعرضوا لها ، عندما تتزوج ابنتهم على ضرة ، وهي لا تعلم ، ويقول الناس ان أباها وأمها باعاها لابن المليونير لقد تعرضوا لكارثة محققة . بسبب جهل يونس بأمور الحياة ، اذ كيف يتصور عاقل انه يعمل مع طلعت في عمل واحد ، يجمع بينهما في الصحراء ومع ذلك لا يصل الى علمه ان طلعت متزوج ، أية بلادة ، أي اهمال ، أية عزلة ضارة عن الناس تلك التي يعيش فيها يونس .

ولكن لوم يونس ، والقول بأن سارة نجت من ورطة او فضيحة ، كان مجرد كلام لا يعبر عن المشاعر التي استولت

على زهيرة هانم وابنتها سارة ، والتي اتضحت بعد أيام ، عندما انتاب سارة وجوم حقيقي ، وخوف من مواجهة صديقاتها باخبار الغاء مشروع الزواج ، لأن مثل هذه الأخبار تطلق ألسنة النساء في الصالونات في كل بيت في القاهرة والاسكندرية ، حتى يأتي بالخبر اليقين .

ثم هناك امرأة اسمها فاطمة في الاسكندرية على استعداد لاثارة الفضائح . فما العمل ، وكيف تكون مواجهة هذه الأزمة . وواصلت زهيرة هانم متابعة التحريات التي كان يجمعها النائب العام عن طريق شهدى عبد اللطيف ، وكان مصدرها دائما هو سيد العتر ينقلها عنه المخبرون وضباط المباحث . وكانت لهفة النائب العام على معرفة اخبار فاطمة وابنتها محاسن ، أهم عنده من اخبار اوكار القنابل والمتفجرات ، والجماعات الارهابية والفوضوية التي كانت ترسل له بين الحين والحين خطابات تهديد بالقتل او نسف سراي النيابة ، او اختطاف أسرته . كل شيء كان في كفة . واخبار طلعت في كفة اخرى ، لأنه كان يمثل له في لحظة ما الأمل الحقيقي في الاقتراب من الحاج مرسي صاحب الملايين ، وصاحب النفوذ السياسي بما له من صلات . كانت ستؤدى حتما الى طلب بقائه في منصبه عامين آخرين على الأقل . ان الأيام تمر بسرعة ، وبعد قليل سيواجه يوم الاحالة الى المعاش . كل لحظة محسوبة عليه ، كل يوم يمر لن يستطيع تعويضه ، وهو اذا أراد أن يبقى على بعض نفوذه ، وان يضمن زواجا ممتازا لابنته ، فعليه أن يتصرف بسرعة وخلال الشهور القادمة . والا فاته القطار كما يقولون ، وعندئذ سوف يواجه في شيخوخته أيام نكد ومذلة تقصف العمر ، وتجعل نهايته كئيبة ، وكان كل ما كان في الحياة من افراح ولحظات سعادة وانتصار هي مجرد اوهام ، وخدعة خبيثة تجر قدمه الى مزلق ، يهوى منه الى بئر المهانة والندم وزهيرة لن ترحمه ، وهي له بالمرصاد ، وسارة لن تغفر له انه ضحى بسعادتها ، انه احيانا يفسر لوم زهيرة له وهي تندد باساءته تقدير الموقف في تعامله مع طلعت ، بأنها كانت تتمنى لو أنه لم

يعصب ولم يرفض الزواج . وكان كل المطلوب منه هو ان يحافظ على التظاهر ويكتم السر . فلا يدرى احد ان طلعت كان متزوجا . ويمضى فى تنفيذ المشروع .. بينه وبين دنيا . لقد ابتسم له الحظ ولكنه رفضه . وربما عاقبته المقادير ويرفض الحظ ان يبتسم مرة اخرى لمن لم يبادله الابتسام .

وجاء يوم تحدث فيه صفوت مع زوجته ، عن اخبار غريبة وصلته بأن طلعت سوف يتزوج من بنت تنتمى الى الاسرة المالكة وما كادت زهرة هانم تسمع هذا الخبر ، حتى استولى عليها انفعال كبير ، ورفضت ان تصدق ما يقوله زوجها واتهمته بأنه ضحية من يخدعونه ، لأن طلعت كان جادا فى عرضه بأن يتزوج سارة ، واشاعة زواجه من فتاة اخرى . هى نوع من المناورة المكشوفة ، وحرب أعصاب ، يطلقها طلعت ، فهو يحب سارة ولن يتزوج غيرها . هذا ما تحدثها به غريزتها الأنثوية . وهذه اشياء لا تفهمها الا النساء . وزهرة واثقة ان طلعت سوف يعاود الكرة ويتقدم لسارة . لولا ان عبد الحميد بك ، لا يعرف كيف يتصرف ويونس ابنها ، هذا الخيبة التى لا مثل لها ، لا يريد ان يتدخل ، ويأتى بصديقه ليتزوج شقيقته سارة . وزهرة هانم لن تسطو ، ولن تقنع بحبه الرحب بمعرفتهم فى المصرف . وخاصة ان بعض الهوجس تساورها من حساب ان يبعد طلعت اراءه بعد ان يعد صبره ، وييأس من موافقة عبد الحميد صفوت على زواجه من ابنته ، فيتزوج اية فتاة اخرى ، لن تكون بكل تأكيد امرأة يحبها . لأنه لا يحب سوى سارة . واقدمت زهرة هانم على خطوة جريئة فطلبت ابنها يونس فى التليفون لتسأله عن حقيقة ما يجرى وما الذى سمعه من طلعت وألسن هناك احتمال لأن يأتى معه الى القاهرة فى الاجازة القادمة ، ولم يدهشها ان قال لها يونس ان طلعت لم يأت الى العمل وانه متغيب منذ فترة ، وانه سمع انه سيستقيل من الشركة . وطالبت زهرة زوجها بان يأتى لها بأخبار طلعت وسر تغيبه عن عمله . ولم تقف محاولات عبد الحميد صفوت التهرب من اجابة طلبها . ولم تفهم ما يقوله من انه لا معنى ولا تفسير

لأن يستمر فى تعقب طلعت بالتحرى عنه ، كانت زهرة ، مصممة على مطاردة طلعت ، ومعرفة كل صغيرة وكبيرة عنه .

ولقد كانت تريد اخبارا عن عاطفة ابنتها ، صحيحة الرغبة فى الزواج من سارة . فما الذ أن تتقدم على اشلاء ضحيته ، وما اروع ان تشعر ان هناك بشر يضيع حياتهم من اجل ان يبقى حياتك : ويعانون ويشقون من أجل ان تبتسم وان تسعد وكانت احيانا تقول لنفسها ان طلعت اذا تقدم على الطلاق مرة لن يكون مأمونا . وقد يطلق سارة بعد ان يتزوجها ، ثم تعرض هذه المخاوف التى تعرقل تفكيرها . وقد تواجه هذه المخاوف فيما بعد . اما الآن فهمها الأول ان يركع طلعت وان يعول ان الضحية التى اجهز عليها كانت قربانا للزواج من سارة . كم هو جميل ان يكون هناك شىء باهظ يدفع لارضائها وللزواج من سارة ابنتها . وكم هو جميل لو تم تنفيذه بكل تفصيلاته رغم الزواج وبعد ذلك تكون امامها فرصة ، للتفكير وهى مستريحة البال فى تفاصيل اخرى لابد من فرضها . وان كان فرضها هنا ومقدور عليه ، ولن يعجز عن مواجهة هذه التفاصيل زوج يملك الملايين وعلى استعداد لأن يقدم اى ضمانات مطلوبة منه حتى لا يتكرر منه تصرف خطير كالطلاق . سيقبل حتما ان يتعهد بدفع مؤخر صداق مناسب ، ربع مليون او نصف مليون على الأقل . بالاضافة الى شقة فاخرة ، او فيللا فى مكان مناسب تطل على النيل وسيارة فاخرة ، واثاث يشتريه من فرنسا او ايطاليا . وتأمين على الحياة ووديعة باسم سارة فى البنك . كل هذا من الممكن تحقيقه ، لو تحرك معها زوجها البائس النائم ، ان عجرفته وكبرياءه الكاذب كانا سببا فى هذا التلكؤ الذى نرجو الا يطول فقد آن الأوان لأن يعود طلعت الى سارة هذا العاشق الولهان الذى ضحى بكل نساء العالم وطلق زوجته من اجل ان يتزوج سارة .

كل هذه الأحلام ، انهارت فجأة . عندما فوجئت سارة بصديقة لها ، تتحدث معها فى التليفون ، وتسألها فى خبث عن اخبار طلعت

ثم تنقل اليها ما وصول دعوة لأبيها و ب؛ احضور حفل عقد قران المهندس طلعت فرج نجل رجل الأعمال مرسي فرج على الآنسة ميرفت مهيب ، حفيدة النبيل مختار مهيب وكريمة السيد علاء مهيب صاحب مطعم الياقوته الحمراء أفخر مطاعم القاهرة .

ألقت سارة بنفسها باكية بين أحضان امها . ان الفتيات يسخرن منها . وطلعت يتزوج من فتاة اخرى . وأباها لم يفعل شيئا بنفوذه .. او ربما يستطيع ان يفعل شيئا . فهو النائب العام . ولو أراد لوجه الاتهام الى مرسي فرج في ألف تهمة وتهمة .. وعليه ان يتدخل فورا لانقاذ الموقف بسلطته الجبارة .

وعاد الأب الى البيت لتقول له زهيرة ، أن طلعت يرسل بطاقات الدعوة الى حفل عقد قرانه .. ومد عبد الحميد بك صفوت يده في صمت الى جيبه واخرج بطاقة الدعوة التي وجهها طلعت اليه .. واصفر وجه زهيرة .. وهمست وهي تطحن أسنانها من الغيظ .

ــ الكلب .. انه يتعمد الاهانة ..

فقال عبد الحميد بلهجة متعالية ..

ــ هذا ما يجب أن نتوقعه من الرعاع .. انهم لا يهينون غير انفسهم يا زهيرة .

الفصل الثامن

لم تحضر عائلة عبد الحميد صفوت فرح الموسم الذي اقامه الحاج مرسي فرج احتفالا بزواج ابنه المهندس طلعت من سليلة المجد والشرف الآنسة ميرفت مهيب حفيدة النبيل مختار مهيب ، وكريمة رجل الاعمال علاء مهيب صاحب مطعم الياقوتة الحمراء . ولقد شهد الرئيس وعائلته الحفل الذي اقيم بحدائق أنطونيادس بالاسكندرية ، كما حملت الطائرات الى مصر كبار الشخصيات من جميع انحاء العالم جاءوا تلبية لدعوة المليونير مرسي فرج .

وكان بينهم كبار رجال البترول ، والثان من أهم تجار السلاح في المنطقة ، وممثلة هوليود الشقراء الفاتنة « ساندرا فورد » ومصمم الأزياء الباريسي « شارل ديجا » واشترك في احياء الحفل المطرب الاسباني « الفارو » والمطربة الايطالية « ايمانويلا » وقامت بزفة العروسة الراقصة « نوسة » .

واستمع يونس الى ما جرى في الحفل من الخبير الأمريكي مستر كلارك ، وهما جالسان امام خيمته ساعة الغروب .. وكان كلارك لا يكاد يصدق ما رآه . ولقد شرب كميات هائلة من الشمبانيا في صحة طلعت العريس . تكفي لأن تحتفظ للشارب بحالة من النشوة تستمر لأكثر من عام .

وقال كلارك فجأة :

ــ كنت أظن ان الذي بيني وبين طلعت صداقة حقيقية

وأنى افهمه تماما ، ولكنى اعترف لك انكم أيها المصريون تكشفون فجأة عن أشياء لا يتوقعها أحد ولا يفهمها .

كان يونس يستمع اليه ، وهو يراقب البحر الهادىء ، وقد اكتسى الأفق بلون أحمر حزين ، فهمس ، كأنه لا يريد أن يزعج بصوته أحزان الأفق

ـ ما الذى لا تفهمه ؟

فقال كلارك

ـ كنت لا أتوقع أن يطلق طلعت زوجته ، وبمجرد كلمة صدرت منه أمام المأذون فى بيت أبيه .

وتوقف كلارك عن الكلام فقد رأى يونس يهز رأسه ، فتوهم أنه يستنكر ما يسمعه أو يتشكك فيه .

وقال كلارك مستأنفا حديثه

ـ أنا لا أخترع ما أقوله .. طلعت اعترف لى بكل شىء .. هو الذى كشف لى عن شىء فى شخصيته كنت لا أتوقعه .

ونظر كلارك فى عينى يونس ، يريد أن ينقل اليه .. أنه يعلم كل ما حدث ، فأشاح يونس بنظراته بعيدا ، ورأى فى الأفق وجه [illegible] وعينيها الكحيلتين وكاد أن يسمع صوتها الدافىء [illegible] له نظرات زينة وهى تهمس أنها ستحافظ على زوجها ضد عدوان عائلة عبد الحميد صفوت . مسكينة فاطمة ، تركها طلعت كما لو كانت متاعا مستهلكا ، لم يعد فى حاجة اليه ، كأنها روبابكيا . مسكين أيضا طلعت ، انه يبحث عن حياة جديدة كما لو كانت حياته الماضية عارا لابد أن يتطهر منه ، يتمنى لو انسلخ من ماضيه .. لو انسلخ من عاداته .. لو انسلخ من جلده وتحول الى انسان آخر ، يعيش بعادات جديدة . وها هو يدفع ثمنا باهظا لهذا الشىء الذى يبحث وراءه بأسنانه وأظافره . والثمن الحقيقى الذى يدفعه هو تضحيته بفاطمة ، وتجاهله المحبب لابنه منها . ترى هل يكفى هذا الثمن ليحصل على ما يريد .

وابتسم كلارك وقال ، كأنه يشارك يونس فى خواطره

ـ لقد حكى لى طلعت عن رفضكم لزواجه من شقيقتك .

وبدا عليه التردد قبل أن يســأل :

ـ هل أستطيع أن أتكلم معك فى هذا ؟ ! .. أم تريد منى أن أغلق فمى .. لا تتردد فى أن تصارحنى بما تريده .

قال يونس محتفظا بهدوئه :

ـ ما الذى تريد أن تسأل عنه ؟

قــال كلارك :

ـ أريد أن أعرف .. هل رفضتم زواج طلعت لأســباب دينية .. أم لتقاليد خاصة تحافظون عليها .

قال يونس فى غير فهم :

ـ ماذا تعنى ؟

فقــال كلارك :

ـ أعنى .. هل لديكم هنا .. مثلما يوجد فى الهند .. نوع من التفرقة بين الطبقات على أســاس دينى . كأن تعتبرون واحدا مثل طلعت من طبقة المنبوذين .. لا يصح الزواج منه .. أعنى أنه محرم عليكم وعليه أن تتصــلوا برابطة زواج ؟

ارتبك يونــس ، وهو يتذكر أمه فى قمة غضبها بعد أن تأكدت أن طلعت سيتزوج فعلا بنت صاحب المطعم .. وكيف تحدثت عنه كما لو كان فعلا من المنبوذين أو من المصــابين بالجذام . وتحول طلعت فى نظرها الى ابن ميكانيكى ، وعروســه الجديدة الى ابنة طباخ . ثم كان ذلك المشهد الذى لن ينساه ، وأمه تخاطب والده وتطلب منه أن يصــدر أوامره بالقبض على عريس الفرح ، لأن كل الناس تعرف أنه لص ، وأنه مهرب ، وأنه يدفع الرشاوى . كانت زهيرة هانم قد فقدت سيطرتها على نفسهــا ، وكانت تريــد أن يثبت زوجهــا النائب العام أنه قــادر على مواجهة هؤلاء السفلة الذين يزعمون أنهم من علية القوم . وهاجمته ، لأنه عاجز عن التصرف ، لأنه ليس جديرا بمنصبه ، لأنه لا يملأ هدومه ، ويتهاون فى كرامته . ولم تسكت زهيرة حتى زوجها يصيح فيها أنها لا تفهم ماذا تقول . وأن شهورا قليلة أمامه قبل أن يخرج من

مصبه ، ويفقد كل شيء . بعث وكأنها لم تسمع هذه الكلمات كأن الرجل يكذب ، ويراوغ ليبرر تهاونه ، وصاحت فيه .. انه خائف من كلب حمر ، بينما لو قال عنه انه شيوعي ، فستطيع أن يقبض عليه ويودعه في السجن فورا . وهل يكون رجلا كان يعمل ميكانيكيا سوى واحد من طغمة الشيوعيين .

طافت هذه المشاحنات في صور خاطفة براس يونس ، فقال وهو يغطي ارتباكه بطف ابتسامة يخص بها كلارك ويسحب بها تلك المشاهد التي تطوف برأسه :

ـ لا .. ليس الأمر كذلك .. لا توجد تفرقة دينية ولا مسبوذون .

فقال كلارك :

ـ تصرفات طلعت هي التي جعلتني اتساءل .. انه يريد ان يتستر على نفسه .. ان ميوبرا منه في بلادنا . يصنع ما يريد ولا يشعر بالخجل من اي تصرف يقدم عليه .. بل كل ما يصنعه حتى لو كان شاذا يصبح مصدر زهو واعتزاز له . لأنه لا يفكر في أن يتخلص من طبيعته ، حتى لو كانت شاذة او غير مقبولة من المجتمع . انه لا يقلد أحدا بالعكس يتصرف بوحي من ذاته . وبثقة بالنفس ، ويتمتع بقوته التي تتيح له أن يحقق رغباته حتى لو كانت شاذة . الذي أدهشني في طلعت هو انه حائر رغم قوته . يستخدم ثراءه في تقليد الآخرين . في تقليد شخصيات تراها في الأفلام .. ما الذي يريد أن يبرهن عليه .. هل تفهم ما أعنيه ؟

كان كلارك يتكلم بسرعة وانفعال . واختتم كلامه قائلا

ـ لقد صارحته برأيي .. قلت له انت تتخلى عن اجمل ما فيك .

فقال يونس :

ـ انه يريد ان يسافر .. ويحلم بمشاريع في الخارج .

فأكمل كلارك

ـ نعم .. هذا هو ما قاله .. وهو يتوهم ان هذا يتطلب منه أن يتزوج امرأة .. مثل ...

ويردد كلارك لحظة خاطفة قبل ان يكمل

ـ أعني مثل شقيقتك .. وهذا غير صحيح . ان هذا لن يساعده على أن يتفاهم معنا .. لقد كنت أتفاهم معه وهو كما هو .. فلماذا يعتقد أن علاقته بنا سوف تكون أفضل عندما يتزوج امرأة تجيد لغة أجنبية ؟

وضحك كلارك ضحكة عريضة وقال

ـ طبعا ان مثل هذه الزوجة ترحب بها كزبون ممتاز يستهلك بضاعتنا .. ملابس أمريكية وأوربية .. وسيارات كاديلاك . وأشياء من هذا القبيل .. ولكن لا صلة بين هذه الأمور وعمليات استثمار الأموال وإقامة مشاريع .

كان يونس يتابع مرة أخرى وجه فاطمة في الأفق الدامي وقال كالمخاطب نفسه :

ـ ترى ماذا تعمل تلك المسكينة ؟

فسأله كلارك بدهشة :

ـ من تعني ؟

فقال يونس مستيقظا من هذا الذي يراه كحلم غريب .

ـ تذكرت زوجته التي طلقها .

فقال كلارك :

ـ انه مصمم على ان يأخذ ابنته .. ويعطيها لأبيه لتتولى تربيتها احدى شقيقاته .

فسأل يونس :

ـ هل تقبل ؟ .

فأجاب كلارك :

ـ ربما يتوقع انها ستضطر الى القبول امام حاجتها الى المال .

ثم ضحك وأردف قائلا في حماس واضح :

ـ ولكن من المؤكد انها شخصية قوية

ونظر كلارك الى يوسى ، وعيناه تلمعان ، واعتدل في جلسته معتقدا انه سيقول كلاما مثيرا .. وصمت :

ـ انت لم تسمع بما حدث في الحفل .. انها قصة الموسم . كيف فاتني أن احكي لك ما حدث .. كانت الحراسة شديدة طبعا ، بسبب وجود الرئيس والشخصيات الكبيرة .. الا ان الهمس كان يدور بين المدعوين .. بأن السبب الحقيقي في تشديد الحراسة انهم كانوا خائفين من هجوم تقوم به فاطمة على الحفل . ويشهد العالم مشهدا بينها وبين رئيسكم وهي تشكو ظلم طلبت له ولابنتها .. ولقد سرت هذه الاشاعة ، حتى أن بعض أصدقاء مرسى فرج قالوا ان شيوعيين اصطاديين مع المعارضة ، هم الذين يشنون هذا الهجوم لاحراج الرئيس . ولم اصدق هذا الكلام ، تصورت انه امر مبالغ فيه حتى جاء احد رجال سفارتي وهو صديق اعرفه منذ كنت في فيتنام ، وفتحت له زجاجة شمبانيا وسألته عن سبب تأخره فقال لي انه غير مستريح لبعض ما يحدث في الاسكندرية . فقد فرض المحافظ حصارا على عدة مواقع عند حديقة انطونيادس ، ومن بين هذه المواقع بيت زوجة سابقة لطلعت ، يقال انها مشتركة في مؤامرة . وان احد المخبرين مكلف بمنعها من الخروج من بيتها .

وتوقف كلارك عن الكلام ، وحدق في يوسى وسأله :

ـ هل تصدق شيئا من هذا .. هل هي خطر على الأمن .. هل هي من كبار المشتغلين بالسياسة .. أو زعيمة بين رجال العصابات ؟ .

فضحك يوسى ، وهو يتذكر امه من جديد ، وقال وهو ينفي خاطرا حقيقيا ان اباه قد يسمع هذا في الأمر بالقبض عليها او على مرسى فرج :

ـ هذا تخريف .

فصاح كلارك .

ـ انه جنون .. انهم يفكرون كما لو كانوا في مستشفى مجاذيب .

ـ قال يوسى .

ـ تقصد كما لو كانوا المحامين .. في المستشفى ؟

فقال كلارك :

ـ طبعا .. علمت أتصور انهم الأطباء .. ومن المستحيل أن يكونوا عقلاء .

رغم الضحكات والابتسامات والتعليقات الساخرة ، شعر يوسى باكتئاب يزحف على نفسيته بعد هذا الحديث ولازمه الاكتئاب طويلا بعد غياب الشمس وقدوم الليل وكان يتذكر فاطمة على فترات متقاربة ، وكأنها موجات ترتد على دقات ممسة فتؤثر في عقله واعصابه ، وكان يلازم تذكره لها ..

خواطر تزعجه بأن عائلته .. شقيقه وامه وابنه كانوا على نحو ما سببا في هذا الشقاء الذى اصاب فاطمة .

كيف يتجاهل قسوة امه وزعمها في مطاردة فاطمة ، والاصرار على تتبع اخبارها كما تطارد الحيوانات الحالمة فريستها الجريحة . كيف يتجاهل استغلال امه وشقيقه من انطلاق وكأنه مصدر سعادة وانتصار ودليل على ان ستارة لها مقامها العالي . فهي الهة صغيرة ، تقدم لها العائلة الولهان قربانا آدميا في صورة امراة مذبوحة او امراة مطلقة فالأمر سيان . كانت مشاعرهم بعيدة عن العدل . هل هو يخطىء عندما يفكر في العدالة ، اليس هذا هو الهدف الذى يسعى اليه أبوه .. العدل .. العدالة .. التحقق لتطبيق القانون بالعدل .. اليس هذا هو مصدر فخره انه يشعر بنوع من الحصانة ، وانه يمتلك احتراما لا شك فيه للنفس . لأنه ينتمي الى أسرة قضائية . ولأن اباه رجل عدالة .. ولكن ما واجهه في اسرته يكاد يهزأ بكل هذا الذى كان يعيش به . نظرات فاطمة التى كانت تستريب فيه .. تشعره الآن بأنه عريان وكاذب ، بأنه انسان ضائع لا أهل له . انه لا يستطيع ان

يتخلص من شعور بالذنب لا يستطيع أن يهرب ويتخلى عن مسئوليه ما تورط فيه امده ، ان طلعت لم يتزوج سارة . ولكن هذا لا يغير من الموقف شيئا . انه مذنب ، وعائلته ليست كما كان يتوهم عائلة لها امتيازها بما يمثله الأب من مثل عليا . انهم ذوو اطماع مثل بقية الناس ، في الجاه والثروة والنفوذ . انهم يزعمون انهم قدوة للناس . وهذا غير صحيح . فما يرتكبونه يلاحق يونس بمشاعر الاحساس بالذنب التي توشك ان تعصف بكل ما كان يتمسك به او يتعلق به كسبب من اسباب وجوده .

وجاء سيد العمر الى المعسكر ، ليعود الى الاسكندرية بيونس في اجازته . كان يركب سيارة فولفو لونها أحمر براق وقال ليونس ان طلعت يريد أن يراه وانه ينتظره الليلة بمصيف فلسطين وانه مسافر غدا الى اوربا مع زوجته الجديدة . وواصل سيد حديثه طوال العودة ، عن طلاق طلعت من فاطمة . كان حديثا وقحا وكان يونس يتفرس في وجه سيد وهو يتحدث . فرق وسامته قد تحولت الى دمامة . بل خيل الى يونس ان سيد له وجه تمساح شرير . وكان يتحدث عن فاطمة متحررا من اية قيود . وكان طلعت يسافر مع زوجته الجديدة ليتركها لاطماع سيد . الذي قال ليونس وابتسامة صفراء تبرز اللؤم في ملامح وجهه ، ان بنت الأفوكاتو ارادت أن تكون سيدة ، ولكنها لا تصلح لشيء ولو كانت سيدة حقا لاستطاعت ان تجمع ثروة . ولكن طلعت تركها وهي يا مولاي كما خلقتني . كانت معها نقود تركها طلعت في الدولاب . ولكنه عاد اليها بعد الطلاق وصرخ واخذ منها النقود . حتى لا يكون تحت يدها سوى النفقة الشهرية التي سيرسلها لها . وبذلك يضمن خضوعها له . ولكن الى متى . حتى تتخلى عن محاسن .

كان يونس يستمع اليه في وجوم ، كأنه يعاني من كابوس لا حيلة له في الخروج منه . وها هو سيد يتحدث كوحش عن فريسة يطمع فيها . وسمع سيد يقول له باسما :

ـ الم تلاحظ اني أركب عربة جديدة .. ما رأيك .. هل تشتريها ؟

نظر اليه يونس مترددا ، يجد صعوبة في أن يدخل مع سيد في حديث ومعاملات وشراء وبيع . ولكن سيد واصل كلامه غير مكترث بتردده ، وقال له :

ـ ان صاحبها يريد ثمنا معقولا . وانها فرصة ، وقد جدد لها المحرك واعاد طلاءها .

فتمتم يونس :

ـ دعني افكر .

قال سيد . انه ينصحه بأن يقرر بسرعة ، قبل أن تفلت الفرصة ، ثم قال متشفيا :

ـ كما ضاعت الفرصة من فاطمة .

لم يجب يونس . ولكنه قال لنفسه . ان سيد يزداد جرأة ووقاحة . وانه لابد ان يوقفه عند حده . بالا يعطيه فرصة للاستمرار في الحديث . فيتشاغل عنه ، ولكن سيد مضى في ثرثرته وقال ان مصير فاطمة هو ان تتزوج اذا اسعدها الحظ بواحد قادم من ليبيا ، وان منيرة العالمة هي الوحيدة التي تستطيع أن تساعدها .

همس يونس مرغما :

ـ والبنت ؟

فهز سيد كتفه ، كأنه يدهش لاقحام الطفلة في هذا الحديث باعتبار أنها مشكلة تستحق الاهتمام وقال باستخفاف .

ـ البنت تذهب الى اي بني آدم .

سأل يونس قلقا :

ـ تذهب الى بيت جدها ؟

قال سيد :

ـ تذهب الى من يريد ان يأخذها .

شعر يونس بالخوف . سرت قشعريرة باردة في بطنه . وانتابه ذلك الاحساس بأنه مشترك في جريمة .

وشجع سيد باسئلة يونس رغم اقتضابها . ورغم انه عاد الى صمته ، فسأل يونس ببهجة فيها نوع من الألفة لم يعود عليه

ـ الم تلاحظ بنفسك ان فاطمة هذه .. لا تصلح زوجة لطلعت ؟

قال يونس ببرود :

ـ ما ادراني بهذا !

فقال سيد العتر ، وهو لم ينتبه بعد الى ما طرأ على نفسية يونس .

ـ الم ترها يا باشمهندس .. الم تذهب اليك في المصنع . لابد أنك عاينتها .

وظهرت الابتسامة الشريرة على وجهه . وبرقت عيناه .

فقطعه يونس بجفاء :

ـ ارجوك .. انا لا افهم هذا الكلام .. انها سيدة محترمة .. وهي زوجة زميل لي .

فقال سيد بانفعال

ـ لا هي محترمة .. ولا هي زوجة لزميل سيادتك .. انها منذ الآن .. امرأة ستدور على حل شعرها .. وانا اعرف ما الذي سيحدث لها .

قال يونس بصوت ثائر

ـ ارجوك كفى .

كانت لهجة يونس مبالية عصبية الى الدرجة التي اسكتت سيد لفتر وجعلته يحنق على يونس ويود لو هجم عليه وصرعه . ومع ذلك فهو ليس في حاجة الى ان يصطدم بهذا الشاب المغفل لانه يحتاج اليه . ويستغله ويكفى انه يركب هذه العربة التي سرقها ، والاسكندرية كلها تراه وهو يقودها وداخلها ابن النائب العام . وقبل أن يأتي بها الى المعسكر . كان كل من يراه راكبا السيارة يقول له انها سيارة المهندس يونس عبد الحميد

صفوت . ولسوف يبيعها له او حتى لأبيه ، الذي يركب سيارات الحكومة . ولكنه بعد شهور قليلة سوف يخرج من عمله ويحتاج لسيارة خاصة به . وما أسهل أن يدبر سيد العتر باسم النائب العام اوراقا للسيارة ورخصة لها ورقما جديدا للموتور دون ان يفحص أحد لفحص السيارة وانكشف عن مصدرها الحقيقي . انها صفقة حقيقية يحصل منها على الآلاف يمضي بعضها مع فاطمة في شهور من المتعة ، قبل ان تستولي عليها صبرة وتتصرف فيها كما تشاء على اية حال فليصبر على هذا البلاء الذي اسمه يونس . وربما اخطأ عندما تحدث أمامه عن فاطمة . فهذا امر لا صلة له وهو لن يفهمه ، ولا داعي للاشتراك معه حتى يتم الصفقة وعلى الأقل يستغل ركوبه في السيارة حتى يتم الصفقة معه او مع ابيه او مع اي مخلوق يشتريها .

وصلا مشارف الاسكندرية صامتين . وقطع سيد الصمت يسأل يونس مرة ثانية عن رأيه في السيارة . فأجاب يونس باقتضاب .

ـ انها في حالة جيدة .

قال سيد

ـ انها لك .. او لسعادة البك الوالد .. وفي اللحظة التي تقرر فيها .. سأتركها معك .. أما مسألة النقود فلا عجلة بشأنها .

شعر يونس بوطأة الاغراء . انه في حاجة الى مثل هذه السيارة . وحاجة أبيه أشد . وربما كانت هذه هي الفرصة التي يبحث عنها . ولكنه لا يكاد يفهم هذه الحرية التي يتحدث بها سيد العتر . لا يتردد امام المال . لا يستحل النقود . لا يشعر بهموم المال . بينما والده يتحسس طريقه في الحياة معتمدا على مرتبه . وتصور انه حصل على كنوز الارض عندما استطاع أن يحصل لابنه على وظيفة مرتبها بضع مئات في الشهر . هل يقبل سيد العتر التقسيط .. هل لدى والده العشرة آلاف التي يطلبها سيد للسيارة .

قال يونس كامه يخاطب نفسه :

ــ ساخبر والدي .

فهتف سيد :

ــ انها فرصة لن تعوض .

وانتعش سيد ، بما لاحظة على يونس من ارتباك او خجل لماودته وقاحته .. وقال وهو يشير الى مطعم في الطريق . انه توقف عند هذا المطعم عند مجيئه الى المعسكر واكل جمبرى بخمسة عشر جنيها .. وانه سيدعو يونس الى هذا المطعم عندما يعود به الى المعسكر في الأسبوع القادم .

دق قلب يونس بشدة ، كان يكتم انفعالاته ، هذه هي المرة الأولى في حياته التي يواجه فيها دعوة من رجل على هذا المستوى الاجتماعي البسيط ، ما كان ليخطر بباله ، أن سائق السيارة ، اي سيارة ، ممن تعود على رؤيتهم يقفون في احترام لوالده ، ويسرعون بفتح الأبواب ، ويعاملون كخدم ، يقفزون الى انداد يريدون عقد الصفقات ، ويوجهون الدعوة الى تناول الطعام .

وصلت السيارة الى فندق سيسل . فهبط منها يونس وصعد الى حجرته لتغيير ملابسه ، بينما انتظره سيد ليذهب به الى فندق فلسطين . وكامه مازال سائقا ، مازال خادما ، ولكن لا شيء يظل كما كان ، كل شيء يتغير ، ويتحول ، وعلى يونس أن يقرر .. هل يدخل في مفاوضات مع سيد العتر ، ويشتري السيارة ، ويرجوه ان يقبل تقسيط الثمن . ام يتجاهل هذه الصلة التي يتورط فيها مع سيد العتر ، ويحتفظ بوضعه الاجتماعي كما يتصوره ، ويريد أن يحافظ عليه ، فيحرم نفسه من فرصة شراء السيارة .. ويتحمل مذلة التنقل من مكان الى مكان ، وما يصاحب ذلك من اهانات ، واهدار للكرامة والطاقة .. فليؤجل كل هذا .. فسيارة سيد العتر تنتظره لتذهب به الى طلعت في فندق فلسطين .

الفصل التاسع

ضحك طلعت وهو يجذب يونس من يده يدعوه الى فنجان قهوة معه في الكافيتريا .. كانت عيناه متقدتين بلمعة حادة ، وهو يتكلم بحيوية زائدة ، كما لو كان يشعر أن الكلام وحده لا يكفي للتعبير عن الذي يريد ان يقوله . لم يترك ليونس فرصة لان يتقوقع داخل نفسه .. قال له :

ــ اولا اريد أن اتأكد انك غير غاضب مني وصافي بالك . لا اريد يايونس ان يكون ما حدث سببا لانقطاع الصلة بيننا ..

قال يونس وقد غلبته حيوية طلعت :

ــ طبعا ... طبعا ..

فقال طلعت ساخرا :

ــ لا تقل طبعا طبعا .. وكان شيئا لم يحدث لان الذي حدث كان كفيلا بان يباعد بيننا ..

قال يونس مرتبكا .

ــ لا اتصور هذا

فقال طلعت بمرح يبلغ حد التهور

ــ لا تتصور ماذا ياروح امك .. هل نسيت أني تقدمت للزواج من شقيقتك .. وانكم رفضتم لانكم مجانين .. الآن وبعد ان انتهى كل شيء ، اريد ان اقول لك كلمتين .. أولا .. أنا لست غاضبا منك .. وثانيا اريد ان تفهم اني عندما تقدمت اليكم كنت جادا .. لا اعبث .. كنت أريد أن اتزوج شقيقتك

لأحمل منها ملكة .. ولأصبح معها أن تنظم لي حياتي .. في بيت أشتريه في سويسرا بعيدا عن عيشة الفقر والتخلف والحياة الصعبة التي تقصف العمر ..

كان يونس يبتسم .. فضاقت عينا طلعت وسأله :

ــ لماذا تبتسم .. ؟

قال يونس

ــ لأنك بعد أن قلت صدق يا ابن .. تعود الى الموضوع .

فقال طلعت بانفعال .. ولكنه سيطر عليه بالسيطرة :

ــ طبعا أعود الى الموضوع .. يا ابن الكلب .

واتسعت ابتسامته ، وسطع المرح في عينيه ، وبدا انه مسرور من شتيمته ليونس الذي شعر بها كمبادرة للتقرب منه ، فطلعت لا يشتم الا الأصدقاء ويغدق عليهم أقذع النعوت والألقاب . ولابد أن يتحمل يونس ما كان لا يتصور انه يطيق تحمله ومضى طلعت في حديثه ، وقد اكتسب صوته نبرة حنونة ، كأنه يبث أسراره لصديق عمره ..

ــ أنا سئمت يايونس هذه الحياة الراكدة .. سئمت المعسكر ، والحمار .. والبترول ، سئمت الصحراء وحتى ، وسئمت أن أرى حقول المدينة البليدة كل صباح .. أريد أن أنتقل من عالم الى عالم .. لا تقل لي اني مجنون .

وتوقف طلعت لحظة .. كأنه يتذكر شيئا ما ، ثم قال :

ــ مستر كلارك يظن اني تغيرت .. ملعون أبوه .. كيف أتغير .. هل ذهابي لأوروبا يغيرني .. هات لي خمسين أوروبا ومئة أمريكا .. واطلقني عليهم .. سأجعلهم يتكلمون بلسان عربي .. صدقني .. أنا لايهمني شيء .. لست مثلكم تعودت على الكلام المهذب ، وحركات النسوان ، أنا جدع .. واضحك .. أقسم لك اني لو نجحت في مشروعاتي سأشتري بيتا في سويسرا وأبني مسجدا في نفس البلدة التي أشتري فيها البيت ..

وضحك طلعت فجأة ضحكة عالية .. وسأل يونس :

ــ هل اقتنعت .. ؟

فسأله يونس بدوره

ــ بماذا ؟

قال طلعت وعيناه تمصان سخرية

ــ ان تزوجني شقيقتك

فابتسم يونس .. متحيرا .. لا يدري كيف يجاريه في هذا الهزار ، وقد داخلته شكوك بعدة أو عاطفة أن طلعت ليس هازلا تماما . وانه لم يطلب رؤيته لمصالحته كما يزعم .. بل قد ينتهي الأمر في أية لحظة بـ ... بمهاجمته وقد يفكر في الاعتداء عليه .. وسب عائلته .. وامتحن قلب يونس .. انه يواجه في كل حركة يخطوها احتمال ... من نوع غريب له .. ورأى طلعت يبتسم في خبث ويمد يده ويبسط ... تبيني في منفضة ، ويعتصر أصابعه ويقول :

ــ هذه حصة أقدمها لكم .

همس يونس يريد أن يتحاشى غضبه .

ــ أنت حقا عجيب في هزارك ..

قال طلعت

ــ ومجنون .. وابن كلب .. هل صدقتني ..

وأكمل بلهجة حادة

ــ ليتك تفهمني يايونس .. أنا ولد جدع .. أريد أن أحيا بالطول .. وأحيا بالعرض ... لا أريد أن أعيش في قفص مثل أبيك .. ولا أريد أن أعيش كما ... كان ما أمكنه جاهي بضربة حظ .. فارتعد لبل مهار حشمة ... بضربة حظ مضادة .. بصراحة أنا نفسي مفتوحة ولا يهمني أبوك ولا أبونا ..

وسكت طلعت يبحث عن كلمة تاهت منه .. ولكنه عدل عن البحث ، وسأل يونس وهو ينظر اليه فاحصا :

— لماذا لم تتزوج يايونس ؟
اجاب يونس :
— لم افكر ..
فقال طلعت :
— غريبة .. الا تشتهى .. الا ترغب .. انك بغير امرأة تصبح لا شىء .. الا تتخيل امرأة تعجبك .. تشتهيها .. تفترسها ..
قال يونس :
— صدقنى .. لست هكذا ..
فقال طلعت بصوت قوى واثق :
— انت كذاب .. الا اذا كنت شاذا ..
وضحك طلعت وهو يسأله :
— هل انت شاذ .. ؟
قال يونس بارتباك :
— لا ..
سأله طلعت فى دهشة :
— اذن ماذا بك .. اتريد ان يفحصك طبيب .. ؟
قال يونس مقاوما ارتباكه بلهجة يغلب عليها الانفعال :
— كل ما فى الامر ان تربيتى مختلفة ..
نظر اليه طلعت فى ضيق .. وردد باحتقار يريد اظهاره بعد ان سمع اجابة لا يتوقعها ، اجابة لا يستريح اليها ..
— تربية مختلفة .. تربية شواذ .. تربية نسوان ..
قال يونس يدافع عن نفسه ، وهو يعلم انه يستفزه ، ولكن ماحيلته !
— ان زوجتك الجديدة .. سوف تربى اولادك فى احسن الاحوال مثل تربيتى ..
نظر اليه طلعت مذهولا .. وحدق فيه ، كما لو كان يفكر فى قتله ، وقد تشنجت عضلات وجهه . ثم انفرجت اساريره ، وانقشع التجهم الذى بدا عليه ، واتسعت ابتسامته وقال فى مرح مفاجىء :
— صدقت .. يا ابن الكلب ..
قال يونس :
— مستتر كلامك .. يرى انك اخطأت .. وكان يفضل ان تواصل حياتك مع زوجتك ام البنت ..
قال طلعت محتفظا بمرحه .. لا يشعر باى حرج :
— لا ياسيدى .. لا .. هى التى هجمتنى .. وارادت ان تفضحنى .. الم تات اليك فى الفندق ؟
همس يونس :
— كانت تدافع عن بيتها .. عن ابنتها ..
قال طلعت بضيق :
— غبيـــة ..
— اردف وهو يبتسم ابتسامة مصطنعة ..
— لن نشغل انفسنا بها ..
وضايقه ان يرى الاهتمام فى وجه يونس ، خيل اليه ان يونس يصطنع هذا الاهتمام بمطلقته وابنته متعمدا اغاظته متعمدا ان يأخذ موقف المعارض مصرا على ان يكون دائما على النقيض منه .. لقد ترك فاطمة وطلقها .. فاصبحت محل اهتمام يونس ..
ورفع طلعت صوته متحديا :
— لا ادرى لماذا تحشر نفسك فى هذه المسائل ..
قال يونس :
— انا لم احشر نفسى .. حاولت فقط ان ابرر او اشرح سبب مجيئها لزيارتى فى الفندق .
نظر اليه طلعت مغتبطا .. لابد ان يرد عليه .. ولكن يونس ادهشه بقوله :

ــ انك قلق يا طلعت ..

سأله طلعت

ــ ماذا تعني ؟

قال يونس :

ــ سيد العتر .. أخشى أن يضايقها ..

فشحب وجه طلعت وسأل بانفعال مكتوم :

ــ ماذا فعل .. هل فعل شيئا .. ؟

قال يونس محتفظا بهدوئه ، رغم انه يتحدث عن قلقه ومخاوفه :

ــ انه يتحدث عنها بطريقة لا تعجبني .

فسأل طلعت بلهفة :

ــ ماذا قال ؟

قال يونس :

ــ لا شيء مهم ..

فضاقت عينا طلعت وقال :

ــ لا تخفي عني شيئا .. اعرف انه وغد .

قال يونس :

ــ انه الشماتة التي يظهرها .

حدق طلعت أمامه لحظة .. يرى شيئا لا يرغب في رؤيته .

وعاد يتكلم كما لو كان يخاطب نفسه ــ انني سأذهب الى سيد حدها .. لابد من هذا اما أمها فانه وحده يعلم ماذا ستفعل .. انني لا استطيع ان اضمن تصرفاتها .. ولكن ما شأني بها الآن كل ما يهمني هو ليلى .. فاما ان تأتي أمها الى بيت أبي .. وتعيش معه .. وهذا اذا كانت عاقلة .. او تترك البيت وتذهب الى حيث تريد ..

همس يونس في تأثر واضح :

ــ لماذا يا طلعت .. ؟

فلماذا يطلعت بقول مهتاج مكتوم حتى لا يسمع الناس من حوله ما يقوله :

ــ تسألني عن اي شيء .. اليس من حقي أن اطلق .. وان اتزوج ؟ .

وصوب الى يونس نظرات حانقة وسأله :

ــ هل كنت تفكر في الزواج من واحدة مثل فاطمة ؟ .. امثالها تعاملونهن كخادمات سرير .. تأخذون متعتكم بلا ارتباط او مسئولية .. اما انا فتحملت مسئولية رغباتي .. ولا تخدعني وتقول انك بلا رغبات .. انت في الحقيقة انسان عاجز .. انت تتجاهل رغباتك لأنك عاجز عن تحقيق ما تريده لقد جاء وقت كنت استطيع فيه ان افعل بفاطمة ما اشاء .. دون ان اتحمل اي شيء والآن اريد ان اعيش حياتي .. ونحن مستعدون ، ابي مستعد لايوائها .. للانفاق عليها ..

قال يونس قبل ان يكمل :

ــ أنت تفسد حياتك .. فانت تترك ماهو لك .. وتريد الهرب من هذا البلد .. مع انك الذي تستطيع ان يبقى .. انت الذي يعرفه الناس .. ويعرفون كيف يتعاملون معه .. انت ابن البلد ..

قال طلعت ساخرا :

ــ لا ياسيد .. انا في نظركم ابن كلب .. ولكني سأثبت لكم واحدا واحدا انكم انتم الكلاب ..

فسأله يونس في دهشة :

ــ تثبت لمن .. من الذين تريد أن تثبت لهم .. من نحن الذين تتحدث عنهم ؟

قال طلعت وهو ينظر اليه شذرا :

ــ أنت وأمثالك .

فقال يونس مبديا دهشته :

ـــ هل تكرهني يا طلعت ؟
فقال طلعت بسرعة :
ـــ لا .. لا أكرهك .. ولكني أحتقر امثالك ..
نهض يونس قائلا :
ـــ لا معنى لبقائي ..
فامتدت اليه يد طلعت .. وامسكت به من كمه بقوة .
وجذبه الى مقعده قائلا .
ـــ اقعد .. يعني اقعد ..
كان صوته هادرا وعيناه تطلقان نظرات مزمجرة ، ومع ذلك فابتسامته الساحرة لا تفارق شفتيه ، كأنه يهزل ، وتدفقت الكلمات من شفتيه ، واسخرية تواري شيئا مشينا ، فتحل مكانها نبرة عصبية ليس فيها تلك الثقة التي يظهرها في مثل هذه اللحظات .
واستمع يونس اليه ، وهو يتحدث عن زوجته الجديدة .
ـــ هل تظن اني اتركك قبل أن ترى زوجتي .. وتتعرف عليها .. انها من نفس الطينة التي ولدت انت منها .. هل هي من طينة احسن .. لأن جدها كان من النبلاء .. بينما سمعت ان جدك كان يتاجر في المواشي المسروقة ..
قاطعه يونس :
ـــ جدي كان في القضاء ..
قال طلعت هازئا :
ـــ اعني جدك الكبير .. هذه حقيقة معروفة ..
فتح يونس فمه ليتكلم .. فسارع طلعت يمنعه .
ـــ لا تقل شيئا .. فالكل نصابون .. واجدادهم من نفس الطينة .. اليس جد الاسرة المالكة التي تنتمي اليها زوجتي .
تحدثي .. انتم الذين تنافسون في المظاهر .. والقشر .. وادعاء انكم من اصل وفصل ولو سألتني لماذا اخترت زوجتي ؟ .. فالاجابة سهلة .. اخترتها لأني معها انا دائما فوق وهي تحت .. هي الجارية التي قبلت ان تتزوجني .. وهي على استعداد لأن تلعق حذائي من اجل نقودي .. وسوف تبقى زوجة لي حتى ازهق منها .. وعندئذ اطلقها .. او احتفظ بها .. وقد اتزوج اجنبية .. فرنسية او نمساوية شقراء ..
وفجاة دق بكفه على المائدة ، حتى كاد يقلب كوب ماء امامه وقال :
ـــ الم تك أختك افضل .. يا ابن الكلب .
قال يونس منزعجا :
ـــ حقا .. انت مجنون
فقال طلعت :
ـــ لا .. لست مجنونا .. ولكن اذكر هذه اللحظة .. اذكر اني قلت لك .. انه سيأتي يوم واحصل فيه على شقيقتك .
قال يونس منفجرا :
ـــ انت مجنون ـــ وفاجر .. وعاقبتك لن تكون سليمة .. فالدنيا ليست كما تتصور ..
فقاطعه طلعت محتدا :
ـــ بل هي هكذا .. واكثر من هكذا .. ولأن اكون فاجرا خير الف مرة من ان اكون مسكينا عاجزا .. محنطا مثلك .
همس يونس وهو ينهض ..
ـــ اتق ربك .. ولن أسمح لك ..
فزمجر طلعت وقد وقف يمنعه من الحركة ..
ـــ تسمح لي ! وهل أمثالك قادرون على السماح بشيء ..
وفوجيء يونس بابتسامة ترتسم على وجه طلعت ، وهو يهمس له كما لو ان الحديث الذي بينهما ، كان حديث مودة وصداقة ..
ـــ ها هي .. قادمة ..
والح طلعت عليه :

— هنا قل ما رأيك فيها .. وعاد يلح وهو يلكز يونس ..

— قل بسرعة .. ما رأيك .. ؟

ولكن يونس لم يفتح فمه بكلمة .. وهو يرى تلك المرأة القديمة ، الملونة ، المزركشة ، وجهها حاد القسمات ، وجه شركسي فيه جموح أو جنون شعرها أصفر ، وجه جميل طويل كوجه فرس ، لها عينان واسعتان ، فيروزتان ، لها جاذبية باردة جاذبية المرمر والرخام .. خيل ليونس أن مثل هاتين العينين يصعب عليهما أن ترى شيئا خارج صاحبتهما ، كانت صامتة ، نظراتها المعلقة ، تغوص في أعماقها ، عندما اقتربت هب مع مقدمها عطر نفاذ ، غريب ، ونظرت بعيدا ويونس يهمس بكلمات مجاملة وتهنئة ، ولم تسمح له أن يتكلم كثيرا ، فقد التفتت في سأم الى طلعت ، وقالت بصوت غير مسموع كلمات لم يتبينها يونس ونظر طلعت الى يونس معتذرا ، وقال بصوت خشن :

— نحن مضطران الى أن نتركك الآن يايونس

ولم تنتظر المرأة حديث طلعت ، ولم تهتم بتحية يونس ، تحركت الى خارج الكافتيريا ، فتبعها يونس بنظرات هادئة . لا تفصح عن شيء ، بينما ارتبك طلعت ، وهب ينادي الجرسون وأسرع يخرج نقودا من جيبه ، فسقط بعضها على الأرض فمد يده يلتقطها ، ولاحظ يونس أن على جبين طلعت عرقا خفيفا .. وتأمله وهو يقذف بالنقود للجرسون ، وهو يفكر في سره ، مسكين طلعت ، كان يريد أن يقول لي هذه زوجته الجديدة ملك يديه ، وأنها مجرد متاع يستمتع به ، وجارية خاضعة له ولكن هذا غير صحيح فالمرأة لقد كان يخدع نفسه ، لأنه واضح أنها التي تأمر ، وتتحرك في ثقة ، وواضح أن طلعت لا يملك أمامها إلا الانصياع .

كان طلعت يهمس الآن وقد تغيرت لهجته تماما ، يكاد يتوسل اليه ..

— هه .. ما رأيك ؟

قال يونس في برود :

— لا أعرف ..

— سأله وهو يجذبه من يده :

— لا تكن سخيفا .. ألست جميلة .

قال يونس :

— نعـــم ..

سأله بلهفة أكبر :

— بنت ذوات حقيقة .

قال يونس وهو يكتم ضحكه :

— نعـــم ..

قال طلعت بزهو

— لا تستطيع أن تنكر هذا ..

قال يونس مستسلما :

— بكل تأكيد .

قال طلعت وهو يكافح لاستعادة وقاحته :

— وأجمل من أختك ..

قال يونس باسما :

— طبعا ..

فضربه طلعت على كتفه في مرح .. وقال :

— ملعون أبوها — كلها أيام وسوف ترى ماذا أنا صانع بهـــا ..

ثم أردف بلهجة عملية :

— آسف يا يونس .. كنت أتمنى أن أقضي معك وقتا أطول .. ولكن أنت تعلم .. ثم السفر غدا ..

وهجم طلعت على يونس يعانقه . وضغط على صدره بشوق وحرارة .. وهو يردد .

— أريد أن أكون صديقا لك .. حقا هذا هو ما أريده ..

واغفر لي حماقاتي .. ولا تحسب مما قلته .. وانت لن تهنئني حتى تتزوج ..

ثم هزه بكلتا يديه ، واردف :

— هل تريد أن ابحث لك عن عروسة يا ابن الكلب .. ؟

وانطلق يجرى .. تاركا يونس ينظر اليه ، وهو يختفي من باب الكافتيريا وشيء من العاطفة او ربما الهم ، او ربما الاحساس بنوع غريب من الالفة .. لها مذاقها الخاص ، يتسلل اليه ..

كان من الصعب أن ينسى يونس تلك اللحظات التي قضاها مع طلعت ، وهذا الحديث المحموم بما فيه من مشاحنات ومصادمات ومصارحات وشتائم وعواطف صداقة ومحبة .

في الصباح ، جاء سيد العتر الى الفندق ، يحمل معه خطابا مغلقا ، كتبه طلعت ليونس ، واوصى سيد بأن يحمله اليه .

وفتح يونس الخطاب وقرأ ..

أخي وحبيبي يونس

تحياتي واشواقي . انت على حق . انست محاسن تشغلني واخشى الا ترضى أمها بالذهاب الى بيت ابي . فكرت طوال الليل ، فلم اجد غيرك الجأ اليه — ارجو أن تسأل عن البنت ، وتحاول اقناع أمها بالذهاب الى بيت ابي . لا تهمل هذا الموضوع أرجوك . لأن احدا غيرك لن يهتم بما يحدث . حتى انا .. لأني أب فاشل ومجنون وتاجر كما تقول . ولا أعرف غيرك يستطيع التصرف بما اعهده فيك من شهامة وجدعنة يا يونس يا ابن الاصول . اما سيد العتر فراقبه واذا لعب بذيله فاطلب من ابيك ان يقبض عليه ، او يهدده . فهو جبان ولئيم .. سأرسل لك عنواني وتستطيع ان ترسل لي اى اخبار عن طريق مكتب الحاج .

سلامي وقبلاتي اخوك طلعت .

الفصـــل العـاشر

جاء يزورها سيد العتر . ثعبان يتلوى ، ينفث عواطفه او سمومه ، يصور لها البحر الهائج العاصف بحرا من العسل والطحينة ، يتحدث عن طلاقها كمعجزة خلاص ، وأبواب سعد تفتحت .

قال لها أن منيرة تسأل عنها تريد أن تزورها ، فمنذ علمت بطلاقها ولا يغمض لها جفن ، لأنها تريد ان تطمئن على احوال ابنة زكريا ، قالت لسيد ان فاطمة وحشة ، وهي تريد ان تفقدها ، لأنها لن تتخلى عنها ، وهي تسأل اذا كانت الظروف تسمح بحضورها ، لأنها تعلم ان هناك مشاكل خاصة بالشقة ، وبحضانة البنت ، وهي لا تريد أن يكون حضورها سببا في اية مشكلة يثيرها الحاج مرسي وابنه .

استمعت فاطمة الى سيد ، فحاذرت منه ، وخافت من كلامه ، وخافت أن تظهر له خوفها ، لأنها واثقة انه ينتظر لحظة ضعف ليهجم ويلدغها . كانت كلمات سيد تحاصرها ونظراته تحوم حولها ، ومنيرة هناك يتربص شبحها بها من وراء سيد ، انها تعرف ماذا يريد ، وماذا تريد منيرة ، وكلاهما شرير ، لن يتردد في ارتكاب اى شيء ، ولن يتورع في الاقدام على اى شيء ، وسوف تدافع عن نفسها ، وهي تعلم انه لن يكون دفاعا سهلا ، وربما اضطرت الى قتل سيد ، او ربما ضحت بروحها ، ولابد أن تدافع عن محاسن ، ولن يمسها سوء ، ولن يخطفها سيد ، ولها رب اسمه الكريم ، لابد ان ينقذها من هذه الشرور ، فرغم كآبة الواقع

وبشاعة ما تراه يحدق بها ، ويصبو من حلقات الحصار حولها ، الا ان شعورا قويا فى اعماقها يحدثها ان الدنيا فيها خير ، وان كانت لا تدرى من اين يأتى ، وهى واثقة ان الذى يهب لها ولابنتها الحياة حتى هذه اللحظات ، لن يحرمها من امل ومن رحمة ، ولن يسمح لمنيرة ان تستولى عليها ، ولن يسمح لطلعت او ابيه ان يحرمها من ابنتها .

كانت سيدة العتر مازال يحدثها عن منيرة ، وكيف انها وعدت بان تتكفل بكل شىء لترعى ابنة زكريا وحفيدته . فتذكرت آخر لقاء مع منيرة ، عندما جاءت لتعزيها فى وفاة والدتها . وكان لقاء محيرا ، لان شفيقة امها كانت لا تحب منيرة ، ولابد ان منيرة كانت تعلم ما كان يسلقها به لسان شفيقة ، فقد كانت شتائمها وصيحاتها ولعناتها مسموعة من الحارة ، ويتناقلها الحى ..

فلماذا تجرأت منيرة وجاءت ، أتريد ان تتشفى فى وفاة غريمتها ، ام هى تؤدى واجبا لابد منه نحو ابنة زكريا ، او هى تنفى عن نفسها الاتهام المعلق بانها كانت السبب فى موت زكريا . او لعلها مسؤولية تريد ان ترى البيت الذى تعيش فيه فاطمة ، وتحسد العز الذى تتمتع به ، وتحسد الطفلة الصغيرة التى ولدتها . انها جاءت لواحد من هذه الاسباب ، او من اجلها كلها ، ولكن من المستحيل ان تكون قد جاءت لانها حزينة فعلا على وفاة شفيقة . وهى بالمثل لن تجىء اليوم وهى حزينة لطلاق فاطمة ، بل هى سعيدة ، وتريد ان تستغلها . سوف تطلب منها ان ترقص لتطوف بالافراح ومعها الراقصة ام البنت حفيدة الحاج مرسى ، وابنة طلعت . ولتقتنى من وراء ذلك المزيد من اساور الذهب التى احاطت بذراعيها المستدقين عندما جاءت تعزيها ، فتخطف ابصار المعزيات اللاتى يسمعن عنها ويتقصين اخبارها .. وجلست بينهن كتلة من اللحم فوقها طبقات من طبقات الشحم ، وكرات ضخمة على صدرها وبطنها وعجزها وفخذيها ، تدخن السجارة ، تلو

السجارة ، وتبادل السيدات نظرات صريحة جريئة . ومع ذلك تأثرت فروسها عندما زارتها تلك المرة ، ! لانها ذكرتها بابيها ، فمهما كان ، كلاهما ارتبط بالآخر ، وعلاقة ابيها بمنيرة كانت اقوى من علاقته بامها فى سنواته الاخيرة . وقد تكون منيرة هى النهاية والمصير الذى لابد منه آخر الامر . ولكنه مصير تفكر فيه ، تماما كما تفكر فى الموت ، مصير يداهمها ، يفرض نفسه عليها ، فاذا فعل ، كان معنى ذلك ان حياتها انتهت ولم يعد لها وجود . انها لن توافق على رؤية منيرة ، ولحظة التى يعرضها عليها ، فعندها ان تبتلعها ، ان تحتضنها بكل ما تريده ان تشدها الى هاويه ، منيرة وحدها التى تعرف قرارها .

قاومت فاطمة ان تصرخ فى سيد ، وان تطرده من البيت ، لو فعلت سوف تستفزه ، وستفتح له باب الهجوم والعدوان على مصراعيه . انه لا يسرع بالهجوم الا اذا شعر بالخطر يحدق به ، وبينما عدا ذلك فهو يتحرك نحو هدفه فى كسل لا يخلو من شعوره بالنشوة . وقد هو ما يفسر الارتياح الذى يكسو وجه سيد ، لابد انه يقول لنفسه انها راضية ، وانها تلين ، وسوف تستسلم ، ولابد انه يسأل نفسه فى هذه اللحظة اذا كان الوقت مناسبا ليمد يده ، الى صدرها ، او لعله يهجم عليها ابدا بمحاولة استعادة محاولات الماضى . بين اصابعه وجسدها ثلاثة اشبار ، لعله يظن انه يستطيع ان يقطعها فى ثوان .. ولكنها تثبت له ان ما بين اصابعه وجسدها سنوات وسنوات ، وسوف تصرخ ، وسوف تجرى الى المطبخ ، وتمسك بالسكين ، ولن تتردد ، ولن يهمها اذا ما قتلته او اسرع معها السكين وقتلها ، لانها لن تتوقف عن مهاجمته ، لن تفكر الا فى تدميره ، ستكون فى اية حركة منه نهايتها أو نهايته . اما كلامه فليس عليه حرج ، فليتكلم كما يشاء ، وليحلم كما يشاء ، ولو لبعض الوقت .. فهى تشترى اياما او ساعات او ربما لحظات .. قبل ان تقع الواقعة ، ويهجم هذا

الشمال . هاهو يسألها متى تذهب معه الى منيرة . منذ برهة كان يسألها متى تزورها منيرة . كيف الخلاص منه . أمكن ان تجد الخلاص . اتهرب وتترك هذا البلد ، ولكن الى اين ؟ انها لا تعرف سوى الاسكندرية ، ولن تطيق الحياة بعيدة عنها ، كان ابوها يطنش ويحب أن يتوه . وكان سمى ، وكان احيانا يرتدي الطربوش الاحمر الذى يقول أن الناس كانت ترتديه ايام زمان . ويمشي متمايلا متخايلا ، ليردد الذين يرونه كلمات اعجاب .. فهو تحف وهو ورد وهو السطه وهو مملكة ، ولكنها لا تستطيع ان تطنش وتتوه مثله . ولا تستطيع ان تهرب وحدها كما كان يفعل ابوها .. لابد أن تاخذ معها محاسن انما ذهبت . تحملها على كتفها وتذهب ، ولكن الى اين .. اتذهب لتخدم في بيوت الناس ، مستحيل ، وهي لن تدخل بيت الحاج مرسي ، لانها تعلم من يقين انهم سيعاملونها كخادمة ، كما كانوا يعاملون في الماضي .. يتصدقون عليها ويسمحون لها بان تكنس لهم البيت . لن تواجه هذا الذل ، لن تستسلم لهذه الهزيمة ، لن تترك عيونهم تفترسها وهي ذليلة ، يتفرجون على من كانت زوجة ابنة الحاج ، مطلقة خائبة ، لا حياة لها ، الا بالشفقة والاحسان .

قالت لسيد ، ان يحضر منيرة ، انها على حق اذ تسأل عن زيارتها ، لان الحاج يريد أن ياخذ ابنتها ، وهي لا تريد أن تجد مبررا ليسلب الحضانة منها ، أو يحرمها من النفقة ، لا تريد أن يقول ان من حقه أن ياخذ محاسن ، لان منيرة احدث قطيعة . انها لن تقابل احدا ، ولن تخرج من البيت ، حتى تجد مخرجا لهذه المشكلة. وادرك سيد العتر على الفور انها كانت تخدعه عندما تظاهرت باللين والاستسلام ، أو لعله تسرع في استنتاجه . ولاحظت عليه وجوما مباغتا . وكف عن ثرثرته ، ولانه ثعبان له حاسة خاصة مثل كل الثعابين ، لابد انه ادرك ان عليه أن ينتظر ، وانها ليست مهيأة بعد للرضوخ . فاغفل ما يفكر فيه ولم يمد يده ، ولم

طبعها أصابعه . وانصرف بعد أن قال انه سيعود ، وكانت واثقة أنه سيعود ومعه منيرة ، رغم انها راوغته ، رغم انها قالت له انها ليست في حاجة الى نقود . وأنها لا تريد أن ترهق منيرة باى طلب .

سيغيب سيد بعض الوقت ، حتى تشعر بالوحدة ، وعندما تحتاج الى أنس ، وعندما تفقد الحنان ، وعندما تعزل من المشورة ، وعندما لا تجد احدا تكلمه ، وعندما يتلكأ وصول النفقة ، وعندما يجوع جسدها وعندما تزداد مخاوفها وتتسع شكوكها .. عندئذ سيعود ، ويعاود هجومه .

وعندما سمعت جرس الباب يدق ، عصر ذلك اليوم ، دق قلبها ، وايقنت ان ساعة الامتحان قد دنت ، هاهو سيد او منيرة او كلاهما ، فقد مضى حوالي اسبوع منذ اختفى سيد . ذهبت الى الباب ، وهي ترى بخيالها مكان السكين في المطبخ ، فهي تتوقع المصائب ، وتتوقع انها ستكون في حاجة الى كل لحظة في ذلك الصراع الوشيك الذي ستواجهه ، صراعا بين الحياة او الموت ..

وفتحت الباب ، لتجد امامها آخر من كانت تتصور رؤيته ، كان امامها يونس عبد المجيد صفوت ، ابن النائب العام ، كان يقف شاحب الوجه ، متعثرا وجلا ، يقدم رجلا ويتأخر خطوتين ، ولم تكن اقل منه ارتباكا ، ومع ذلك كانت اقدر منه على ان تلقى بكلمات ترحيب لابد منها .. أهلا بك ، تفضل .. كلمات مجاملة تتطاير في الهواء ، كلمات يكتنفها الغموض ، تتحسس شيئا لاتعرف كنهه ، تداعب املا لا تدرى ما هو ، ولكنه موجود في رأسها ، وفي صدرها ، امل موجود بكل تأكيد ، لانه يضغط على انفاسها .. امل تقطع بانه متصل بطلعت .. جاء ليقول لها ان طلعت سيعود ، لا شك انه يحمل انباء من طلعت ، والا لماذا يجيء مثله الى هذا البيت . كان يتحدث بصوت عصبي يوشك ان ينخرط في بكاء .

ما الذي يقوله ، انه يسألها اذا كانت تريد شيئا . وسألها عن ابنتها ، لماذا يسأل ، ما الذي يريده ما الذي يدبره ، هاهو يذكر طلعت ، يقول ان طلعت هو الذي طلب منه المجيء قبل ان يسافر الى الخارج ، سألته وهي تحاول أن تزيح هذا الشيء الذي يضغط على صدرها ، متى يعود ، أجاب لا أعلم . أيتحدث عن طلعت آخر غير الذي تعرفه . أيتحدث عن طلعت الذي أراد أن يتزوج شقيقته . طلعت الذي يطلب منك انت ان تسأل عن ابنته وكانت قريبه . طلعت الذي تعرفه هي ، شخص آخر ، يرتبط بها منذ زمن بعيد ، كان يعيش معها في حارة ، وكان أبوه أسطى ، وكان يعرف كيف يعامل الناس ، وكان يحترم اباها . ويعطف عليه ، ويحفظ الود ، يرعى الجيرة .

لم تعد تفهم ما يقوله يونس ، لعلها لا تسمع جيدا ، ولعلها ترفض ان تسمع ، ولعل الأصوات التي تتدافع في رأسها تشغلها عن سماع ما يقوله .. ولأنها بالتأكيد كانت مصممة على ان تسمع النبأ الوحيد الذي ترضى أن تسمعه ، وهو ان طلعت سيعود ، وهو نادم ، وهو على شوق اكثر من ان يقاومه ، أما غير ذلك من كلام فلا اهمية له . وهذا الرجل الذي اجلسته على مقعد ، يتحدث بكلمات لا معنى لها ، يحرف ، يهذي ، وهي على اية حال واثقة انها لو ارهفت سمعها لتفهم شيئا مما يقوله ، لستكتشف انه يكذب ، ويخدع ، وانه اكثر شرا ولؤما من سيد العتر ومن منيرة ، ومن كل اولئك الناس احتطموا معها طلعت ، وباركوا خيانته لها . ان هذا الرجل جاء ليقول لها ان طلعت قد انضم الينا ، اصبح واحدا منا ، وانه لا يريد ان يتعامل معك الا عن طريقنا .

ولكن صوت يونس فرض نفسه وهو يقول متمهلا :

— سأكون بجانبك . لن اتخلى عنك .. وسأساعدك في اى شيء تطلبين .

كيف يساعدها ، وهي تريد أن تدافع عن نفسها ضده ، وضد أمثاله .

انه قادم من العالم الذي ابتلع طلعت ، ذلك العالم الآخر الغريب الذي سيسير فيه الناس بلا يعودون ، انها قادرة على السيد العتر ، قادرة على منيرة ، لأنها معهم ما يقومون ، تدرك ما يدور في رؤوسهم ، تعرف أفكارهم وحيلهم ، وتكاد تتنبأ بكل ما يقومون به خطوة خطوة . أما هذا الوغد ، فهو يتكلم بلغته الغريبة ، من طرف انفه . متعاليا ، كلامه يهبط عليه من مكان بعيد ، وبعد ذلك ، يريد ان يساعدها ، يريد ان يمنح وان يعطي ، يريد أن يتسلط ، ان يتحكم ، أن يصبح من نفسه بها . هذا تقول له ، انطلب منه الا يتدخل . انصارحه أن صوته ، مجرد صوته ، يبعدها عن طلعت ، يؤكد لها ان سدودا تقوم بينهما . اللعنة عليه ، قبل أن يأتي كانت ماتزال تحلم بأن تحدث معجزة ، كانت تتوقع خبرا يأتي . كانت ماتزال تثق في ان شيئا ما سوف يحدث ، سيرجع هذه نعمة . انها ترضى بطلعت لو عاد . ترضى به زوجة ثانية ، او جارية ، ترضى به خادمة ، ترضى به بأى وضع يشاء . ولكن هذا الرجل لن يكون أبدا الوسيط الذي يحقق لها شيئا مما ترضاه .

لابد ان يونس ادرك انها خائفة ، لا تثق فيه ، ولابد انه شعر بأن حديثه معها لا يجد قبولا من حسنها ، وانها تسمعه بصبر وتحفظ ، والخطأ ليس خطأها ، انما العيب فيه ، وهذا التحفظ من جانبها يزيد من احساسه بالذنب ، يؤكد على ما فيه من الم ، قال لها :

— اذا كنت في حاجة الى نقود .. اى خدمة للبنت .. ارجوك .

وتوقف عن الكلام لاهثا .. وهي ترقبه بدهشة . ثم تهدج صوته قائلا :

— أرجوك .. ساعديني ..

وتلفت حوله في تأثر :

— هل استطيع ان ارى مجالس ؟

قالت له فى ترجس :

— ناشة ..

قال معتذرا :

— آســـف ..

وقال بكل ما يمكله من صدق ، وكان فوق ذلك يتألم :

— كنت أتمنى ان اراها ..

انه بلح ، وهو الآن اكثر تحررا ، واقل ارتباكا .. والانفعال الذى يلون صوته ، يمنحه قوة ، وقدرة على الاقناع ، وقد امتلك قدرا من الحرية ، جعله يشعر مع الألم ، بشعور حسن بالاعجاب بنفسه ، شعور لم يعرفه من قبل .

ونهض ، وما كاد يقف ، حتى وثب قلب فاطمة .. وارتطم فى صدرها ، واوشكت ان تتشبث به . فجاة وجدت نفسها تريد ان تمسك به ، ان تجبره على البقاء . فجاة ، شعرت بالخوف من الوحدة التى ستعود اليها . روعها ان تراه يقف ، وفهمت كلمات الاعتذار ، وكلمات الاستئذان فى الانصراف ، وهى تتحسر حتى لا تترك الفرصة تضيع فى غمار مشاعر الكراهية والصور التى تعانى منها نحو يونس ، وكل ما يمثله لها . لاشك انها محتاجة اليه ، وهى تريد حمامة رحل قوى بعيد منها اخطارا تدرك من يقين انها مقبلة ، ومن مثل سموم سيد ومسرة ، لا سموم يونس . هذا ضد ذاك ، وليأكل كل منهما الآخر ، ليس امامها الا ان تكون قوية صامدة امام الاثنين ، حتى يحترقا .

كانت تبحث الآن من عينى سيد فى عينى يونس .. فلم تر غير شعاع غريب ، وخيل اليها للحظة انها سبق وان رات هذا الشعاع من قبل ، ولكن اين .. لا تدرى ..

كان واقفا ينتظر ان تتقدم الى الباب ، وكان يسأل نفسه .. هل تورط فى شىء ، أيجب ان يعتذر مرة اخرى ، هل اخطا فى

بحثه . وفوجىء بها تقول له بصوت رخيم حنون ، لاشك انها لم تتحدث به من قبل ، وكأنه يسمعها لاول مرة ، وكانت تقول :

— محاسن فى حاجة الى من يسأل عنها

قال لها وقد حسم أمره ، كأنها أنقذته من بحر عاصف :

— سأزورها عندما اعود من اماركو .

تسألته وكأنها تمتحنه :

— ومتى تعود ؟

وقبل ان يجيب . قالت ، لانها كانت تعلم مواعيد الاجازات :

— ستاتى بعد ثلاثة اسابيع .

ادرك من صوتها ان هناك شيئا يقلقها .

قال لها باهتمام :

— ماذا .. هل هناك شىء ؟

همست :

— لا شىء ..

فجاة وجد نفسه يقول لها :

— هل يضايقك سيد المتر ؟

ما كاد يذكر الاسم ، حتى وثب قلبها دهشة ، ووجدت نفسها تقول بشجاعة وكان ذكره لاسم سيد المتر قد بدد سحره ، وابطل مفعول اعماله الشريرة :

— انا قادرة على ان اوقفه عند حده .

قال فى هدوء :

— أنا واثق من هذا .

سألته :

— ولكن كيف عرفت ؟

اجاب فى ارتباك

— مجرد احساس .

وانهارت على الرغم منها . نظرت اليه في هلع ، وانخرطت في البكاء .

وهمس :

— ماذا حدث .. كوني صريحة معي .

واصلت البكاء .. انها تبكي لانها توشك ان تستريح ، توشك ان تطمئن .. وسمعته يقول :

— اعلم انك لا تثقين بي .. تعاملينني كغريب .

نظرت اليه بين دموعها فرأته يتوسل اليها :

— جربي .. لست شريرا .. أقسم لك ان الدنيا بخير . اتجربيه ؟

اتعامله كبني .. آدم .. كواحد من البشر .. كانسان له قلب انسان . اتدخل عالم هذا الرجل الذي يتحدث بكل الطيبة والرقة اتثق في هذا الوجه الوسيم الحزين . أتثق في هذا الصوت الحنون الحزين . اتتعامل مع نظرات عينيه لعينيها حين تتقابل .. اترضى .. أتصدق انه من الممكن أن يحمل كل هذه الأحزان من أحبها .. هذا الانسان يقف خلفه ذئب عم وحكومة وسلطة . هذا هو مبعوث من العالم الذي اختطف زوجها من بيته . من العالم الذي فيه نساء ساحرات خبيثات .. وهو يدعوها لان تدخله في التجربة .. وهي بمهارة ، تنزلق في طريق تمهده الدموع تنهمر من عينيها ، فتجعل اندفاعها أكثر سهولة وليونة وراحة وبعد لحظات سوف تصل الى النقطة التي تمتنع معها من التكلم ، وعندئذ لن تنطق عند كلمتين او ثلاث . سوف يحدث شرخ في جدار ، وسوف ينهار سد ، وسوف تتدفق معها مشاعر ، وسوف يحدث اختلاط بين عالمها وعالمه ، وهي لا تدري ماذا يحدث بعد ذلك .

كان مازال يلح عليها ، ان تمنحه فرصة ، وان تقول له عن متاعبها ، ان تشركه في همومها . ان تعامله برفق ولا تحتقر وجوده ، وتتقبله .

رفعت رأسها ومن بين دموعها صوبت اليه نظرات لوم .. آخر ما تبقى لديها من نظرات اللوم والكراهية .

وسألته بحدة

— تقول .. تريد مساعدتي ؟

قال

— نعـــم ..

— ت بحدة أقل .

— أصدقك ؟

قـــال

— نعـــم ..

أطرقت برأسها . كانت تسقط في دوامة بلا قرار ، وتدور وتغوص ، وتدور وتغوص . وحاولت أن ترفع رأسها ، وهي غير واثقة أنها ستستطيع أن ترفع الرأس ، فتلتقي عيناها بعينيه لتواجه . تتحداه ، تحترم أمره وتتخلص منه ، أو تتشبث به لتقبل أن يخدعها أو تخدعه هي ، أو تخدع نفسها وتصدقه .. بذلت جهدا فوق الطاقة ، كانت هناك قوى رهيبة غامضة داخلها تتصارع ، وتمنعها من أن ترفع رأسها ، وأن تراه .. كان مشوارا صعبا مرهقا مضنيا ، كيف حققته .. وقطعت رأسها ذلك الشوط الشاسع بين انحنائه وارتفاعه . انها لا تدري ، ولكنها رفعت الرأس في النهاية ، وواجهت عيناه بعينيها .. وقد احتبست الدموع أو لعلها جفت فجأة ، وعادت تراه من جديد ، بكامل وعيها ويقظتها ، وعادت تتكلم .

— أتستطيع ان تحميني ؟

مازال يقول .. نعم .. كل ما عنده .. نعم ..

قالت بسرعة .. تصدر اوامرها ، تطالب ، تمارس حقوقا تطلق بلا حدود :

— لابد ان تحميني من سيد العشر .. انه يطاردني .

وحكت له . كل ما فعله سيد ، وكل ما تتوقع أن يفعله ، روت له ما كان لا يتصور أنها سترويه له ووجد نفسه وقد تحول الى مسرح حرب ، بين مخاوف غامضة تهاجمها مخاوف واضحة . مخاوف ساذجة ، كان أخطر ما فيها هو غموضها ، تتراجع أمام مخاوف أكبر وأبشع ، ولكنها رغم وضوحها لا تثير في نفسه خوفا حقيقيا ، لأنه سيقف الى جانبها ، مهما كان الأمر .

وسألته بعد أن استمع الى حكايتها :

ـ هل تستطيع أن تفعل شيئا ؟

قال بهدوء :

ـ اطمئني ..

ثم أردف :

ـ لن يضايقك سيد بعد الآن .

نهضت ، كانت تريد اعداد طعام له .. لماذا لا يأكل .. ؟ اعتذر .. لا يستطيع أن يقضي كل هذا الوقت معها .. الوقت مر ، وهي امرأة ، وصراحتها وتجاربها ، وحكايتها تكشف عن أنوثة تعرض نفسها ، ولا يستطيع أن يتجاهلها ، وتذكر للحظة ، طلعت وهو يسأله ساخرا .. ألا تشتهي .. ألا ترغب .. وتذكر طلعت وهو يتهمه بالعجز .. أو الشذوذ .

لم يستطع أن يشرح لها ما بداخله .. ولكنها كانت أكثر جراءة منه .. لأنها تصر :

ـ ابق .

وهي تراه ينظر في ساعته ، فتردد :

ـ انتظر .. سوف تستيقظ مخاوفي الآن . لا تتركها وحدة ..

انها تتكلم بلا ضابط ، كلماتها سريعة حاسمة ، تتكلم وكأنها لا تريد أن تسمع ما تقوله . الكلمات تختلط بالأمنيات ، تختلط بالانفعالات ، وتخرج رغما عنها ، ودون أن تفكر فيها ، أو

تستوعبها وتترك مغزاها ، أو تراجع ماذا يكون لها من رد فعل ، هذا الرجل الذي يستمع اليها ؟ .

كانت كلماتها تتضخم في صدره ، وتثقل عليه بأحمال باهظة ، مثقل عصبية .

ـ لابد أن أذهب .

وقالت بسرعة ودون تفكير :

ـ طيب .

كانت أفضل الكلمات .. بعد أن واجهت وجوده كرجل ، وتوقعت أن يقدم على شيء .. وأن يحميها من سيد .. وهو على أي حال ، ليس مثل أولاد الحارة ، وهو كرجل يبدو غريبا .. باردا ، غير مهتم ، أهكذا الرجل عندهم ـ هذا هو السبب في أن نساءهم ترضى بالزواج من طلعت .. هذا الرجل مربوط بسلاسل ، ولكنه يشعرها بالاطمئنان .. ولسوف تخضه التجربة . ماذا لو بات سيد المتر يطرق بابها ، يكون قد صدق فيما قال .

الفصل الحادى عشر

استمع ســـــيد العتر الى تهديد يونس بخوف حقيقى ، وزاد من خوفه انه لم يتوقع ان يخاطبه يونس بهذه اللهجة عن فاطمة . بل لم يتوقع اى ذكر لفاطمة ، وكان ينتظر عندما طلبه يونس ، ان يفاتحه فى شراء السيارة ، فذهب اليه فى الفندق وهو يتوقع ان يعود بجيوب دافئة مليئة بالنقود ، فذهب الى فــــاطمة وهو على اتم استعداد ، ليظهر لها فى اية لحظة أن معه من النقود مثل طلعت ، وانه احسن من طلعت الذى غدر بها كما غدر بسيد ..

كانت كلمات التهديد تخرج من فم يونس بصوت هادىء ، واثق ، لو اقترب سيد من فاطمة ، او حاول ان يمس شــعرة من راسها ، فلن تقوم له قائمة .

رأى سيد العتر ، الســلطة ، والمتعة العميقة ، فى عينه يونس ، وصوته ، وبسمه ، كأن الســلطة جزء من شخصيته ، وكان لا مفر من ان يذعن ، ان يستسلم ، أن يركع ، ويتوســـل فى هلع يحدد اطاهر به ، كما تعود ان يفعل لكل من تبدو عليه علامات الســـلطة .. انهم يحبون اذلالك ، يزاحمهم ان تلعق احذيتهم ، وان تمرغ رأســـك فى التراب امامهم ، عندئذ ينتشى صـــــدر الواحد منهم ، وترتسم عليه ابتسامة رضا .. وتمتلئ عيناه بنشوة ، ويرتفع كتفاه فى محاولة دائمة لأن يرفع رأســه ،

بينما يعظ رقبته ويميل محتالا الى جانب .. وهو يثنى ركبته اليمنى لو السرى قليلا .. هكذا يراهم جميعا ، وسوف يرى نفس الشىء فى يونس بعد قليل ، وبعد أن يقدم له الجرعة المناسبة من الذل والمسكنة .

يرتجف صوت سيد من الهلع وهو يسأل :

— من شكك بك ؟

لم يجب يونس عن السؤال .. لن يسمح بأسئلة واجوبة . لن يعطيه الا من مكانة تطمئنه ، كما يجب أن يتعامل مع هذا المجـــرم .

رد يونس بما عوده من برود :

— لا تقترب منها .. وكفى .

يرتد سيد بسرعة

— اقسم لك .. ليس لى بها صلة .

فاشــار يونس بيده وهمس :

— كفى

كان يونس يدعوه باشارته الى مغادرة الفندق .. وها هو يتحرك بطء نحو الداخل فى اتجاه المصعد .

ولكن سيد لن يتركه .. سار خلفه خطوتين ، فلما رأى يونس متوقفا ، ويشير له ، سارع يتوسل فى ذلة :

— سيادتك لا تأمر بأى شىء .

قال يونس بسرعة .

— لا ..

ابتسم سيد وانحنى برأســه ، وقال :

— سعادتك لم تقل لى شيئا .

سأله يونس بدهشة :

— عن أى شىء ؟

ابتسمت ابتسامة يونس وقال :

— من الســـيارة ..

واخرج مفاتيح بحركة سريعة من جيبه ، وهو يقول بلهجة طبيعية حارة :

— ســـيارة ســـعادتك .

الوغد يعرف انه يحترق تحمسا له ، يهاجم دفاعاته ، وهو يهاجم بسلاح قوى ، سيارة قوية . وثمن محس بالنسبة لها ، وبالتقسيط .. لماذا يذكر السيارة الآن ؟ ، ايكون يريد ان يقول له ان السيارة في كفة وفاطمة في كفة اخرى .. اهذا هو رده على ما سمعه من تهديدات ، اهذا هو ما يواجه به الكلمات الآمرة التي اطلقها من واقع ايمانه بضرورة حماية تلك المرأة ، والدفاع عن كرامتها وحقها في الحياة .

اهو يبالغ ويشطح به الخيال ، وهو يسمح لهذه الخواطر ان تتدافع في مخيلته ، اهو مجنون لا يرى الواقع ، ويفسره بطريقة شاذة غير مقبولة من الناس . لماذا اصبحت مواقف الحياة معقدة ، فيها كل هذا الاضطراب والخلط والانفعال والتفاعل ، لماذا ضاع الصفاء ، واختفى الوضوح ، وارتبكت الرؤى والمشاهد . انه يتمنى لو اخذ هذه السيارة ، فهي فرصة قد لا تعوض ، واذا لم يأخذها ، فهو واثق ان اباه لن يتردد في شرائها ، فهو يذكر كلمات حزينة له همس بها في اذنه ، عندما طلب منه ان يرى ما العيب في العربة النصر التي اشتراها منذ عشر سنوات ، صحيح انت مهندس بترول ، لكن لابد لك دراية بالســـيارات .. اختك هي السبب في تعب المحرك ، وأمها تشجعها حتى تتخلص من هذه السيارة واضطر الى شراء اخرى ، ولكن كيف اشتريها وأنا أبيع كل عام فدانا مما ورثته عن ابي . لن اترك لك شيئا بعد مماتي ، سوى الكرامة واسم عائلة حافظت على تقاليدها في اقامة العدل في البلاد .

ثم هذا الرجاء الذي نطق به الأب .. لو اســـتطيع ان اشترى سيارة مناسبة معروضة للبيع بعد اســـتعمال بسيط ، سيارة دبلوماسي مسافر مثلا .

لم تأخذ هذه الخواطر اكثر من ثوان قبل ان يقول لســيد بلهجة قاطعة :

— لا افكر في شراء هذه السيارة .

وانطلق مبتعدا ، وقبل ان يصل الى المصعد ، وجد درجات السلم امامه ، فارتقى الدرجات ، حتى يتخلص بسرعة من سـيد ، الذي ادرك في تلك اللحظة فقط مدى خطورة التهديد الذي يوجهه له يونس . انه لم يعمل مثل الآخرين ، وتجاهله ، وهذا يعني انه سيحاربه ، وانه عدو له ، فليأخذ حذره ، وليبتعد عن فاطمة ، حتى ينجلي الامر ، ويفهم سر هذا الرجل ، الذي لا يتعامل مثل بقية الحكام مع انه ابن احد الحكام .

وكان هذا بمثابة دعوة لسيد المتر ، لان يتتبع اخبار فاطمة عن كثب ، وان يلاحظ ان يونس عندما عاد من « امركو » في اجازته الثالثة ، لم يسافر الى القاهرة ، وتردد على بيت فاطمة مرتين في ثلاثة ايام ، ست فاطمه تصرفت بسرعة ، هكذا فكر سيد المتر ، واختارت بديلا لطلعت ، اختارت ابن النائب العام ، كسر سيد بعض الزهو رغم هزيمته . فهي لم تفضل عليه اى انسان ، واذا كانت قد نجحت في الاستيلاء على يونس ، فهذا النجاح هو الذي يعنيها ، اما يونس نفسه فلا اهمية له ، ولا ابوه ، لان امثال هؤلاء لهم ايام يزهون فيها ، ويتعنتون ، ويحمحمون ، ثم يختفون ، وتستطيع أن تبصـــق على ذكراهم بلا ادنى خوف أو وجـــل ..

ولم يبعد سيد عن الواقع كثيرا ، وهو يتخيل ما يحدث بين فاطمة ويونس ، كل ما في الأمر انه تعجل الامور ، وسبق الاحداث ، وتنبأ بما سوف يقع قبل أن يقع .

فعندما عاد يونس الى بيت فاطمة ، كانت مجالس هي محور اللقاء ، وقد اشترى لها لعبة ، دبة سمينة كبيرة ، ولم تمض دقائق حتى كانت فاطمة تسأله اذا كان يريد يغسل وجهه ، فقد فاجأها انه قادم لتوه من الصحراء ، وذهب الى دكان اللعب ،

وجاء الى بنتها مباشرة ، وبعد أن خرج من الحمام وجدها تسأله اذا كان يريد شيئا ، أو يريد أن يخلع سترته ، وكنت تسأله وهي تتحرك ، واختفت ، وعادت ومعها الشبشب ، وتركته مع محسن ، وانشغلت عنهما .

خيل اليه أن مرضا يتسلل الى عقله ، البيت رطب ، والستائر مسدلة ، والجو يدعو الى النعاس ، رغم أن أصوات الشارع تأتي من بعيد ، وحاول أن يتذكر مجموعة شيء أشبه بمعادلات حساب تدور في رأسه ، ولكنه يفتقد القدرة على التركيز ومعالجة تلك المعادلة التي ترتسم في ذهنه دون أن تبين رموزها بوضوح ، وشعر أن هذا المرض جديد تماما عليه ، وأنه في حالة مختلفة تماما عما كان عليه في أية لحظة من لحظات حياته ، وأنه على أبواب مجهول ، ولا يشبه هذا المجهول ، ولا يستطيع أن يتعرف عليه ، ويقلق هذا الشعور المفاجيء ، وهذا الشعور بالنعاس والوخم ، وهذه الطفلة التي تجر الدمية ، ويشتاق معها ، وتبتسم له ، وتهمس ، وتجذبه من سترته ، وهذه الحجرة التي تضمه مع البنت ، بينما اختفت الأم ، بعد أن قابلته بترحاب ، وكرم ضيافة ، ونعومة وأنوثة ، أيكون هذا هو الشيطان .. ثالثهما . أهو يستسلم لهذا الذي أطلقه ابليس .. أهي لحظة ضعف يمر بها . الانسان أضعف من أن يكون قويا في كل لحظة ، ولكنه لا يستطيع أن يضعف فيخذلها . أول سؤال ألقته عليها . كان عن سيد العتر وهل صدقها ، فقالت له بحسن نيتها شكر واعتراف به ، ان سيد اختفى تماما ، ولم تر خلقته . ولا يستطيع أن ينكص عن وعوده بحمايتها ، وما تفعله الآن ليس أكثر من محاولة تقدمها لتشكر له وقوفه الى جانبها .. لا يجب أن يترك المرض يتطور ، والشيطان يتهور ، هاهي ذكرياته تعاوده ، هاهي حساباته التي يجريها في عقله تطل عليه — معادلة الجبر برموزها تتضح ، ولكنها تتراجع ، وتهرب بسرعة ، فقد ظهرت عند باب الحجرة .

واضعة نصيء وجنتها انها تتحرك ، نشيطة ، مطمئنة ، تقدم له القهوة ، ولكنها تقدم مشاعر صادقة ، فكل ما تفعله بسبب من مروءته ، ومحاسن خالصة على الأرض ، وقدميه تتحركان فوق السجادة ، حتى ترتطم بقدميه ، وهي تتهرب . هذه الطفلة هي ثالثهما ، وليس الشيطان ، طالما تفرض هذه الطفلة وجودها فلن يحدث شيء ، وطالما هي هناك على المقعد الآخر ، تبعد عنه حوالي مترين .. كل سنتيمتر له أهميته . انه جزء من تلك العملية الحسابية أو المعادلة الجبرية التي يريد أن يستوعبها . كل زاوية ، أو سنتيمتر أو مليمتر ، أو جزء من المليمتر ، الى متى تستمر الحسابات ، أي شعور آخر يهاجمه الآن هو ذنب لا يغتفر هو مسئولية ، أو مصير . انه لن يتحول الى سيد العتر ، ولن يرتكب جريمة ، ولن يتورط . ولن يستغل ضعفها ، ومع ذلك ، انها تفجر داخله من المشاعر ما كان يستطيع أن يشعر بها ، لولاها ، بجلستها وعطفها ، بشعرها المسدل على جبينها ، بعينيها السود من الابنوس ، كل ما كان يراه قبحا ، بدينا ، شهوة أو غريزة ، يتحول بفعله ناعمة ، ونديا ، وينتعش ، وينتشي ، ويتوثب ، وكأنه يعود الى طفولته هل يتقدم منها .. يغازلها ، هل يترك العنان لهذه الرغبات الصبيانية التي تتصاعد داخله ، انها رغبات لذيذة ، وهو لا يشعر بأنه يخطىء أو يرتكب ذنبا ، أو فعلا حقيرا .

انتفض واقفا ، عليه أن يقاوم كل هذا الذي يجول برأسه ، يتمنى لو أن يتقدم منها برفق ، ويجذبها من يدها ، ويحيطها بذراعيه ، ويحتضنها ليتقدما معا نحو حجرة النوم ، بعيدا عن هذه الطفلة التي تلهو بالدمية ، بعيدا عن كل شيء .

ولكنها حجرة يوم طلعت .. الحجيرة التي تركها طلعت ، أهذا هو ما سوف .. يقدم عليه .. ان تعويضه البقايا التي تركها

طلعت ، البداية .. بقية الطعم .. ها هي الحسابات تتصحح ، والرموز تكشف عن معانيها الحقيقية .

تمتم بعد أن وقف ، بكلمات سريعة ، لابد أن أعود للفندق . لابد أن أستريح ورفض أن تدعوه لطعام ، ورفض أن يسمع أية كلمة . ولم يهتم كثيرا بأن يراقب وجهها الذى بدت فيه علامات دهشة وغضب وعدم فهم وكتم أنفاسه ، أو هكذا خيل إليه ، حتى وجد نفسه يقطع الطريق الضيق من اتجاه طريق الحرية بسياراته المسرعة الصاخبة الزاعقة ، ومن بعدها سور النادى من خلفه أشجار وأشجار .. ووقف على الرصيف مبهورا وقد داهمه خاطر غريب .. إذ تمنى لو لم يكن بشرا ، تمنى لو كان خالقه أحياه شجرة مثل تلك الأشجار .

انقضى يوم ، لا يذكره ، ولا يستطيع أن يحدد ما جرى فيه ، يوم أبله ، يوم غبى ، شاهد فيه فيلما سخيفا لم يفهمه ، وقرأ صحفا لم يفهم سطرا واحدا من سطورها ، وكان يتذكر بين ساعة وأخرى أن من واجبه أن يتصل بأمه فى القاهرة .. أو يسافر إليهم ، ثم ينسى ما كان يتذكره ، ولا يفعل ما كان يتصور أنه لابد أن يفعله .. فى اليوم التالى ، ذهب يزورها ، وفى هذه المرة استطاع أن يفرض على مشاعره أشكالا متعددة ، استجابت لها كلها ، فى الابتسام الذى يتحول إلى ضحك وقهقهة ، والشعور بالاسترخاء ، والحديث الجاد عن مستقبل محاسن التى حصلت على نصيبها من علبة الشيكولاته ؛ ثم انسحب سريع مباحى، لأنه مرتبط بموعد لا يستطيع أن يتخلى عنه . وتركته وهى أقل دهشة ، وأكثر فهما ، ولا ذرة غضب تحس بها نحوه . كانت تنتبه إلى أنه مختلف ، وأنه جدير بأن تراقبه ، وأن تتفرج عليه ، وأن ترى هذه السيطرة التى يمارسها على انفعالاته ، فتنفجر بقهقهة ثم بتوقف ، عندما يلقى الدعابة ، منطلق لأساريرها ولأنفسها ومشاعرها العنان ، وكأنها تعانق الدنيا بالمرح الذى تقبل عليه ،

فإذا به يهدأ ، ويتماسك ، ولا يفلت عباره . وكان ما تراه وتراقبه ، يزيد من اطمئنانها ، ويزيد من حريتها التى لم تعود أن تسيطر عليها ، واستراحت عندما وثقت به وأيقنت أنه سوف يسيطر ولن يتهور فيما قد تندم عليه ، مهما تقاربت العيون ، ومهما تلامست الأيدى صدفة . ومهما تلوى بصوت أو تهدج دون همس ، أو لهاث أو تنهد أو صدح أو صخب ، إلا أنه يحافظ على ما بينهما ، وإن كانت لا تفهم ما هذا الذى بينهما .

وهكذا تركها ، ليعود فى إجازته التالية ، وصداقتهما تتحدث عن نفسها بما يقولان ، ويتصرفان ، حتى لو كانت مجالس تزيد فى غرسها . ولا ثالث معهما ، إلا هذا التماسك الذى يمنع الانهيار .

أوشكت ذات مرة أن تقول له ، وهى تقدم له كمثرى ليأكلها وتهمس : تذوقها .. طعمها حلو ..

إنها هى أيضا حلوة . وأكلت على الرغم منه فى سرها ، وتهمس أوشك أن يكون مسموعا .

ــ تذوقنى ..

سمع يوسف غمغمتها ، ولكنه لم يتبين سوى هذه الغمغمة التى تشبه النحنح ، أو التأوه المكبوت ، صوت كله أنوثة وحلاوة .

ومرت لحظات صمت ، كان يأكل فيها الكمثرى ، وأنفاسهما ترتفع ، وكأنهما يعقدان بينهما حوارا من الشهيق والزفير . حوارا بالصدر والرئتين ودقات القلب ، وليس حوارا باللسان ، والصوت الذى تسمعه الأذن . بل أصبح الحديث بالصوت المسموع نوعا من العبث ، فقد وصلا على مشارف تلك اللحظات التى تتعطل فيها الكلمات كل فعل ، وقد تحرج الكلمة ، وقد تربك ، وقد تجرح ، وقد تصد ، فليس من السهل انتقاء الكلمات التى تعبر عما بينهما ، فهو غير محدد الكلمات ، وليس هناك أوضح لهما من هذا الصمت يتبادلان فيه كل ما دار فى نفسيهما من هواجس ، بصراحة كاملة ،

لا يحتشيان شيئا ، وليسا بحاجة الى مزيد من أي شيء ، غير هذا الذي اصبح قائما بغير كلمات .

وكانت مطرقة رأسها ، فكما لا تحتاج الى سماعه ، لا تحتاج الى رؤيته ، وهي تمل من هذا الذي بينهما ، وتتوقع منه المزيد ، وهو لا ريب آت ، وشعرت به يقترب ، فرادت رأسها انحناضا ، كانت واثقة ان يديه ستلمسانها الآن ، اية لحظة . عندما لمست اصابعه كفها ، ارتجفت ، وانكمشت على احتضنها ، شهقت ، وبكت بين ذراعيه .

وادرك يونس من تلك اللحظة ، ان كل شيء قد تغير في حياته .

كانت عيناها مغلقتين ، وكانت تدفن جسدها في صدره ، وكان يشعر بها ممسكة تماما به ، ولكن عقله بدأ ينشط ، وتتسرب اليه الكلمات في صورة اسئلة .

هل هي حقا تريده ؟

هل ستذل ؟

الن تقاوم ؟

الن تثير فضيحة ؟

اهي نزوة متورطان فيها ، ثم تثور ضده ؟

أهو يضعف ؟

ولكن الأسئلة .. توارت بنفس السرعة التي ظهرت بها ، انقشعت كسحابة شاردة احطأت طريقها في سماء صافية . ليس بها شيء سوى انفاسها تتلاقى مع انفاسه ، وظما ، وكل الانهار تجري الى البحر ، والبحر ليس بملآن .

وفي ذلك اليوم ، كانت زهيرة هانم تعاني من اهمال ابنها في حياته نحوها ، ولا تدري كيف يستمر غيابه عنها لاكثر من شهرين ، دون أن يسأل ، وكانت قد طلبت من زوجها ان يتصل

بالولد في موقع العمل ، وبالمدق ، ولكن الاجابة كانت واحدة ، انه غير موجود .

ولما عاد يونس الى المدق في تلك الليلة ، قالوا له انه لابد ان يتصل بوالده بمصر في الحال ، ولكنه لم يفعل ، حتى جاءته المكالمة في منتصف الليل وسمع صياح ابيه ، وصياح امه وكلاهما عنهما ، وقال انه يلبي دعوة اصدقاء . اي اصدقاء ؟ زملاء قدامى من الجامعة .. من هم ؟

لا تعرفهم يا ابي

وسمع امه تلومه . انا لا اطلب منك شيئا يايونس ، هكذا بدأ الموت . فيما ستثنى أن يكون احسن الناس ، ودون ان تأخذ منه . دون ان تطلب منه ، كي تزيده صداقته ، وان تمنحه حبها ، لانه لن تجد احدا مثله . تقدس كما نرى ، كلها تعرف تفاصيل ما تجهله ، كأنها سمعت حديث فاطمة معه .

ـــ هل اريد ان اراك لاني اطلب منك هدية او مساعدة .. اريد ان اراك لاعطيك امومتي التي ستحاول ان تجد مثلها عند اي مرأة اخرى .

وفجأة سألته

ـــ هل احببت امرأة ؟

قال بسرعة

ـــ لا ..

قالت وكأنه اجاب بنعم

ـــ كل حب اخذ وعطاء . واي بنت تعرفها .. ستطلب منك اكثر مما تعطيك .. حب البنت في هذه الأيام .. كله تعب وقرف وناس تتسلق على اكتاف بعضها بعضا .

قال مرتبكا :

ـــ اطمئني يا امي ..

قالت

— بصراحة لست مطمئنة .

وأصدرت أوامرها :

— يجب أن أراك غداً .

قال :

— حاضـــر

ثم تراجع بسرعة نادماً

— سأحاول .

قالـــت

— لا .. سوف تأتي

— حاضـــر

وفي اليوم التالي ، سافر الى أمه ، وذهب الى لقاء فاطمة . وقالت زهيرة لزوجها :

— يجب أن تعرف حقيقة ما يحدث لابنك .

انها واثقة الآن ، أن الولد قد تورط مع امرأة ومثـل هذا الاستنتاج لا يحتاج أي ذكاء ، يكفي أن قلبها يحدثها بالخطر . وهو خطر في حدود أنها تجهل المرأة التي اختارها . وشكوكها الآن كثيرة ، والخواطر لا تطمئنها ، لأن هذا الغياب والسكوت المفضوح ، والوعد بالمجيء الى القاهرة ثم عدم استطاعته أن يلبي نداءها له ، والذي وعد بتنفيذه ، كل هذا يعني أنه وقع في كمين امرأة ، ولو كانت بنت عائلة ، من بنات الأصول والعائلات الكريمة ، ما استطاعت ، وما خطر لها ، أن تمنعه عن أهله ، وتدفعه الى الكذب .

انها ليست متزمتة ولا يزعجها أن يفكر يونس في الزواج . وكانت بينها وبين نفسها تشعر ببعض القلق عندما تراه لا يهتم بالفتيات مثل بقية الأولاد . ولكن هناك تطورات مفاجئة تحدث . ولن تجد لها تفسيرا حتى تراه ، ويصارحها . أو يأتي لها صفوت بالتحريات التي لابد أن يطلبها ليعرف مع من يختفي يونس مع أي

امرأة ، ومن أي بنت . لتخوض معـركة لا تحتمل التلكؤ أو التسويف .

ولم تفلح الأقراص المهدئة في تخفيف الضغط النفسي الذي تعاني منه زهيرة ، ولاحقتها الخواطر متفرقة مبعثرة تشتـت أفكارها وتحرق أعصابها ، وحدث أنها كانت مستلقية في فراشها بين اليقظة والنوم . عندما رأت فجأة في خيالها يونس مع امرأة ذلك الرجل الذي أراد الزواج من سارة يوما ما .

وما كاد هذا الخاطر المحموم يهاجمها ، حتى انهارت كأنه كارثة وقعت بالفعل ، وأيدها قلبها وهي تتذكر آخر مرة رأت فيها يونس ، وكيف كان مهموما بسبب نذالة طلعت ، وكيف أنه يحمد الله أن سارة لم تتزوجه ولم يرتبطوا به لأنه وحش غادر ، مغرور بقوته أو ثرائه ، لا يتورع عن أي شيء . كانت لهجـة يونس غير طبيعية ، ويهاجم طلعت كما لم يهاجم أحدا من قبل . وكان يتكلم بحماس ، وينصح ، ويتخذ لهجة الواعظ حتى أن زهيرة سألته وقد شعرت بأنه مهتم بمصير المطلقة وابنتها .

— أمي جميلة .

فأجاب تلك الاجابة التي اطمأنت لها في ذلك الوقت . اذ قال بدهشة :

— لا أدري يا أمي . لم ألتفت اليها .

الآن قد حانت له الفرصـة فالتفت اليهـا . والمرأة استحوذت عليه ، سيطرت على ابنها الذي حملته في بطنها ، وأعطته لحمها وروته بدمها تلك المرأة تخدع ابنها ، روحها ، مصـدر كل ما يهمها في حياتها كيف تجرؤ مثل هذه المومس أن تأخذه منها في اجازته .

ولم تنتظر زهيرة أن ينقل لها صفـوت أخبار تحرياته . قالت له انها واثقة ، أن يونس يتردد على تلك المرأة . وأن عليه أن يتصرف بسرعة قبل أن يتحول الأمر الى فضيحة .

ولم يصدق النائب [illegible] أن أمه بخير [illegible] حتى أن [illegible]
[illegible]

الحكومة [illegible] مكافأة له على ما بذله من جهود مضنية في متابعة تحقيقات الجرائم السياسية ، التي تنتشر كالوباء .

ولم تفهم زهيرة هذه الحجج التي يسوقها زوجها ، ولم تسمع أي كلام يذكر فيه أن عمله كنائب عام . له مدة محددة ، تنتهي [illegible] لا [illegible] لدى تعيش فيه . ولا [illegible] في [illegible] زوجها ، وما [illegible] مسئوليات ، تنشر أخبارها الصحف .. وتتابع نشرات الأخبار في التلفزيون [illegible] تحركاته حيث يذهب ، وتمتد [illegible] ممسكة بالميكروفونات وأجهزة التسجيل في انتظار كلمة أو تصريح منه . هل من المعقول أن [illegible] هذا [illegible] . لا [illegible] أن [illegible] وسطوة . هل يأتي يوم وينتهي كل هذا الذي يعيش فيه لو صح [illegible] كان به سطوة . ولم [illegible] به أحد . [illegible] في [illegible] ، [illegible] بالسؤال عن الحقائق كما تراها وباعتبار أن أول هذه الحقائق أنه النائب العام [illegible] يعقل أن [illegible] على ابنه في بيت تلك المرأة [illegible] ، والتي قد تكون [illegible] بيتها لمن يلعبون القمار ، أو حولته إلى غرزة حشيش . [illegible] أن توجد الأمور ببساطة ، ويقال أن يونس شاب صغير وقد يكون من حقه أن يلعب بعض الوقت ، وأن تكون له نزوات [illegible] في بداية الأمر تجارب في الحب ، قد [illegible] ، وتوسع [illegible] مداركه ، وتفيده عندما يكبر ويدخل الدنيا الحقيقية فيكون زوجا وأبا لأولاد . إن هذا مرفوض بالنسبة ليونس ، لأنه ابن النائب

العام ، ولو حدث شجار ، مجرد شجار في بيت تلك المرأة ، وكل شيء جائز ، فهي الطامة الكبرى . لابد أن يتصرف بصمت وسرعة ، قبل أن يحدث مكروه من هؤلاء الأوباش السفلة .

وامسك سماعة التليفون ، وطلب شهدي أبو اللطف محافظ الإسكندرية وحدثه بصراحة . إنني أختنق . أخشى أن تكون امرأة هي السبب فهم يونس .. إنه وديع ومهذب كالبنت . اعمل معروف ، وتصرف كوالده . تحرى الأمر بمنتهى الهدوء . وأخبرني .

انتقل الطلب من المحافظ ، إلى رئيس المباحث ، إلى المخبر الذي كان لابد وأن يتصل بسيد العتر .

فهم يونس يذهب في أجازته إلى بيت تلك المرأة فاطمة مطلقة ابن الحاج مرسي مرح ، إنه يكاد يعيش معها . يقضي أجازته معها ويخرج معها وإليها ، كما لو كانا زوجين . لا يقيم الليل في بيتها ، ولكنه عشيقها بكل تأكيد . ومن يدري ، لعله تزوجها زواجا عرفيا ، فقد هدد سيد العتر ألا يقترب منها ، حتى يضمن عدم معرفة أحد من بيت الحاج مرسي مرح بصلته بفاطمة .

وهكذا عرف سيد العتر ، أن هناك تحريات عن سلوك يونس ابن النائب العام ، وأن هذه التحريات متصلة بعلاقته بفاطمة .

كيف فاته . إن هذه العلاقة ، سوف تغضب النائب العام ، وسوف تغضب الحاج مرسي مرح وسوف تحرك الجميع ضد هذا المغفل النائس يونس الذي يتصرف على هواه ، ولا يتصرف بكل [illegible] ، امسكوا [illegible] . واقسموا حتى [illegible] ، من [illegible] ادلال [illegible] .

وادرك سيد العتر أن الأبواب قد انفتحت أمامه .

الفصل الثاني عشر

قال عبد الحميد بصوت محشرج :

ـ زهيرة .. ابنك يقضي نحازته مع تلك المرأة .

تصايحت الأم بشراسة ..

ـ قلبي قال لي . قبل ان يقول لي احد .

ثم صرخت :

ـ هل هذا يصدر عنك يا يونس . مستحيل . ماذا جرى لعقلك .. ؟

وبحلقت في زوجها بعينين محتقنتين ، وبدت كأنها تخاطب شخصا لا تراه .

ـ هات لي ابني .. لابد ان ياتي الى هنا في الحال .

قال عبد الحميد :

ـ سأطلبه ..

قاطعته صارخة قبل ان يكمل :

ـ سافر له

فقال عبد الحميد والألم يعتصر صدره :

ـ سياتي يا زهيرة لا تخافي .

فزمجرت ..

ـ سافر له ولا تقل ان وراءك اعمالا .. لن أسمع منك ان لديك اجتماعات وتحقيقات . ابنك في خطر . وهو أهم من كل تحقيقات النيابة ..

فصاح الرجل يائسا ..

ـ كلنا في خطر . هل هناك تهديد لسمعتي اكثر من هذا ؟

فواصلت زهيرة زمجرتها :

ـ سافر في الحال قبل ان تندم . قبل ان ياتي يوم يرفض فيه ان يعود الى بيته .

فقال عبد الحميد محاولا طرد أشباح تحوم من حوله :

ـ لن يصل الأمر الى حد العصيان .

فصاحت :

ـ لا ياسعادة البيك . انه يصل الى اكثر من العصيان .. فما الذي يربطه بنا بعد ان يشترك الحياة مع مومس .

تراجع عبد الحميد مذعورا هلعا :

ـ زهـيرة ..

كان يريد ان يلومها لأنها سمحت لكلمة مومس ان تاتي على لسانها . ولكنها لم تكترث باحتجاجه المكبوت ومضت تقول في اصـرار :

ـ نعم مومس .. البنت هذه هي الحقيقة .. اسمـع يا عبد الحميد .. اطلب نقله من هناك .. ابحث له عن عمل في القاهرة فورا .. وعندما يعود .. سوف ازوجه في اسـبوع واحـد .

وتلفتت حولها . كانت تختنق ، وتبحث عن هواء تستنشقه . واكملت وهي تستدعي طاقات جديدة من الغضب .

ـ عندما تصل الى الاسكندرية .. اطلب من المحافظ ان يقبض على تلك المرأة .. لابد ان تتدخـل .. هل انت فاهم يا عبد الحميد .. مثل هذه المرأة لن يردعهـا الا اظهار العين الحمراء لها .. لابد ان تخاف .. وتدرك ان محاولاتها مع يونس سوف تنتهي بالقضاء عليها .

همس عبد الحميد مهموما :

— يازهيرة ارحمك . لا تفقدي أعصابك فتزيدي الموقف سوءا ..

ورفضت زهيرة اعتراضه ، ورفضت ان يناقشها ، يعدل في اقتراحاتها ، لأن أي تراجع و تلكؤ من جانبه سوف يقوض دعائم هذا البيت ويكرس المصيبة التي لابد من دفعها .

لم ينم أحد في بيت النائب العام في تلك الليلة .. أحيت كانت زهيرة تزفر هواء حاقدا جارحا وتقول :

— المرأة التي تركها صاحبه .. يأخذها هو ..

وكانت لا تكل ، ولا تصمت عن الصوت الذي يتردد من أعماقها ، وقد تشلت اتراس المؤمنات في اخماده .

وسافر عبد الحميد صفوت الى الاسكندرية ، وكان لسفر المفاجئ اثره في تردد الشائعات عن تطورات جديدة في قضية المنشآت والمنحرفات وتلقى المهندس يوسف مكالمة عاجلة . العسكري .. والده يخطره لأمر هام ، وظن أن عليه ان يعد سيارته بنفسه ، ليعود به الى الاسكندرية في نفس الليلة ، وظن في نفسه أن والده قد عرف بأمر علاقته بوصفه أدبه أسباب وصحته لهذا التوقع . ومع ذلك عبأه شعور من أن هذا الاستدعاء المفاجئ ليس بالقضية ، وأن ثمة شيئا يهمه ..

وفي طريقه الى الاسكندرية ، كان يقلب كل الاحتمالات ، ويفكر في ضرورة أن يواجه والده وأمه بأقوى ما لديه ، وهو يعرف أنها في حاجة إليه ، وهو يريد أن يحميها . ويشعر بمسئوليته نحوها ، وحتى لم يحدثه ، ولم تهدده كما يتوقع ويعد أن يواجهه بالحقيقة ، سوف يذهب اليها ، ويمضي معها بقية اليوم ، ويسعدها بحضوره ، ويشتري لها طعاما ويشتري لعبة جديدة لحامد ، ويترك لها بجنيه مائة ثم

حشة كبيرة ورغبة جامحة في ان يراها وأن يعانقها ويمسح من بسماتها .

ودخل يوسف على أبيه في مكتبه بالسرايا ، وللوهلة الأولى عرف من صدق حدسه ، وعرف أن الصراع مقبل لا ريب فيه بين مطرب والده عرسه . وكانت على وجهه أسارير متجهمة ، مالم عنه ، حتى أنها كانت مثير الاهتمام في ظروف أخرى وقد بدت بافتعال ابتسامة ما أن ترتسم على وجه يوسف في مواجهة غضب الأب وتجهمه ، مولا به لا يدري سر هذه الابتسامة التي يريد أن يفرض نفسه عليه في هذا الموقف المحرج .. مقاومها .

كان وجه عبد الحميد صفوت ينبض بشيء ما ، ما هو ؟ رأى يوسف فيه بداية متعجرفة وسطوته في وجه أبيه . هذا الوجه الذي يمكن أن يكون شبيهة ملامح ترتسم على الوجه ، بما كانت تمثل سلطته ملامحها ، وهو على أية حال وثق أن الرجل الذي أمامه ينظر إليه كمجرم ، لا شك ، كانت كلمات عبد الحميد صفوت ، خالية من الحنان ، أو الرعاية ، او الحب ، كان يتهم ويهاجم . وينتظر من يوسف أن يدافع ، وأن يعتذر ، وأن يتراجع هائل مرتعد ، ولكن يوسف يرفض أن يدافع ، وقد ركبه رأسه عناد عنيد ، فهو لن يتفاهم مع النائب العام . وإذا لم يعترف هذا النائب بأنه أب ، فماذا يتعامل معه . هل يثور عليه ، هل يكاشفه بما يشعر به ، ولكنه سوف يحتاج الى جهد غير عادي ليحدد الكلمات التي يعبر بها عن كل هذه المعاني المختلطة المتشابكة ، بين سلطة النيابة وسلطة الأب ، بين النائب العام ، والأب ، بين اتهام المجرم ورعاية الابن . بين طبيعتين مختلفتين للتعامل ، ويجب عليه أن يتحدث عن المشاعر ، يتفاهم مع ابن يتحدث بمشاعر يرى أنها الصدق . ما الذي يستطيع أن يقوله بوضوح ، ليفهمه هذا الرجل أمامه ، هذا الأب الذي يختفي وراء لقب وسلطة . أن أية محاولة للافصاح عما يريده ستورطه في موقف سخيف ، وسيسقط به في

فراغ غير محتمل كل ما يملكه يونس ، وهو أن يتكلم ، كما لو كان يخاطب نفسه ، في حجرة خالية ، غير مكترث بانفعالات الرجل أمامه ، وغضبه وصياحه ، وأن يتحدث محاولا أن يبوح الحقيقة ، مع أنه في الحقيقة لا يعلم ما الذي يحدث . نعم هناك شيء ما يحدث بينه وبين فاطمة ، ولكن ما هو ، شيء يتجسم ويتشكل .. يفصح عن نفسه في علاقة حية ، دائمة ، في لحظات ، ولكنه لا يدري ما الذي سوف تنتهي إليه في أية لحظة قائمة . بينه وبين فاطمة .. كلمات وأصوات تخرج من الصدر متدفقة ، ونظرات ، وأنفاس ، وتلامس ، وصمت ، وضحك ، وجوع ، ودلال ، وأنانية ورجولة ، وأنوثة . وأشياء كثيرة . تافهة أو غير تافهة ولا يستطيع أن ينكر لها أو يجد سببا لأن يحدثه هذا الرجل في ضرورة أن يتخلص منها . كيف يتخلص من لحظات لا يعرف حدودها ، بدأت منذ وقت لا يستطيع تحديده ، منطلقة إلى مستقبل لايستطيع تحديده ، لم يفكر حتى الآن ، لا هو ولا هي ، في تحديد أي شيء ، وها هو هذا الرجل . النائب العام ، يريد منه أن يحدد تلك اللحظات ، أيريد تحديدها ، أم قتلها ، أيستقر منها ، أم يسعى إلى إماتتها ومحوها من ذاكرته ، وبترها من حياته . الذكريات ، واللحظات في حياة الانسان ، ليست أقل أهمية من أعضاء الجسم ، هي اللحم والعظم والدم والأعصاب للنفس ، هي نسيج الذات ، لو بتر هذه الذكريات، لو قضى على هذه اللحظات ، فلابد أن تصيبه عاهة ، أو يموت

عندما سمع الرجل يقول له ، إنها امرأة ساقطة وجد نفسه ينهض ، ويرفض أن يسمع صياح الرجل . وفتح الباب وخرج ولم ينتبه حتى رأى سيد العتر الذي جاء يجري يائسا ، يسأله إن كان والده قبل أن يشتري السيارة .

نظر اليه يونس في غير فهم وتمتم كأنه يسمع كلاما غريبا

— أبي .. ماله أبي ..

فلما تبين أن سيد العتر يحدثه عن السيارة التي يريد بيعها ، قال بغير اكتراث وهو يتذكر بصعوبة أن الرجل الذي خرج من مكتبه هو والده الذي يتحدث عنه سيد العتر .

— عندك في الداخل .. اعرض عليه الأمر بنفسك ..

وأسرع يونس بخطاه ، فلحق به سيد العتر يسأله أين هو ذاهب ، ومتى يعود إلى المعسكر . فقال يونس واجما :

— بكره ..

سأله سيد العتر وهو يصوب إليه عينين متفحصتين :

— هل تريد أن أذهب بك إلى أي مكان الآن ؟

قال يونس بسرعة وهو يبتعد :

— لا ...

فتبعه سيد بنظراته وهو واثق أنه ذاهب إلى فاطمة ، ثم عاد أدراجه إلى مبنى النيابة ، ودخل مكتب سكرتير النائب العام ، متظاهرا بأنه يسأل عن المهندس يونس ابن سعادة النائب .. وأبدى دهشته لأنه خرج من عند والده دون أن يخبره أو يطلب منه توصيله ، ودخل السكرتير على النائب العام ، وعاد مسرعا ، يطلب من سيد العتر المثول أمام سعادة النائب .

صوب عبد الحميد بك صفوت نظرات قاسية إلى سيد العتر ، وسأله بلا مقدمات :

— أنت سائق سيارة المهندس ؟

أجاب سيد وهو يتراجع في رهبة يجيد اظهارها ؟

— نعم يا سعادة الباشا .

سأل عبد الحميد بلهجة جافة :

— كيف لم يحدثك ؟

أجاب سيد في خوف :

— أنا انتظرت داخل السيارة أمام باب السراي يا سعادة الباشا ..

فسأل عبد الحميد بسرعة :

— هل عاد الى الفندق على قدميه ؟

قال سيد مظهرا التردد :

— لا اظن انه ذهب الى الفندق يا سعادة الباشا .

صاح عبد الحميد هادرا :

— لا تظن .. ما معنى هذا .

قال سيد بلهجة من يتضرع

— يا سعادة الباشا .. هو يذهب الى بيت المهندس طلعت فرج .. كلما جاء الى الاسكندرية

وانتظر سيد . ولكن عبد الحميد صفوت .. كان ينظر اليه في جمود . [illegible] .

— انه يذهب ليطمئن على أولاد المهندس

قال عبد الحميد صفوت ببرود

— وهل ستذهب اليه هناك ؟

قال سيد

— لا ياسعادة الباشا .. انه يمنعني من الذهاب هناك

هز عبد الحميد صفوت رأسه ، ومضى وهو يشير لسيد أن يختفي من أمامه .

— طيب ..

ولكن سيد تلكأ . فلما رفع عبد الحميد عينيه ، يستفسر عن سر بقائه ، وجده يتمتم في خشوع ويحدثه عن السيارة التي أعجب بها ابنك الصغير .. وكيف أنها رخيصة ، وينبغي أن [illegible] ثمنه عن سبعة عشر الف ، وأن ابنك الصغير لا يريد أن يتخذ قرارا بشأنها ، قبل أن يعرف رأي سعادة الباشا والده .

اهتم عبد الحميد صفوت بهذه المفاجأة . وطلب من سيد أن ينتظره ليرى السيارة ، وخطر له ، أن هذا مبرر قوي ، لأن يطلب حضور زهيرة لتساعده في مواجهة يونس ، بعد ان تبين أن الولد غير

قابل للتفاهم ، وأن تلك المرأة قد سممت أفكاره وسيطرت على عقله . حتى انه [illegible] بعد [illegible] يتوقع زهيرة أنه [illegible] مع يونس . لكي أن [illegible] لجسده وعليها أن تواجه يونس بنفسها .

واتصل عبد الحميد بالمحافظ ، كان يريد أن يعرف منه تفصيل [illegible] عن المعلومات [illegible] يونس على مطلقة المهندس [illegible] مرسي فرج [illegible] المحافظ يقول له ، انهما مدعوان لتناول الغداء على مائدة مرسي فرج في بيته ، لان هناك [illegible] أن يقومه الحساب [illegible] للنائب العام ، وكان لابد أن يدعى عبد الحميد صفوت ويلبي هذه الدعوة [illegible] ولا [illegible] وقته [illegible] .

واتصل عبد الحميد بزهيرة ، التي قالت له : انها سوف تأتي لابنها ، قبل أن تأتي لمشاهدة السيارة فواضح أن عبد الحميد لم [illegible] مع [illegible] يونس [illegible] وهو يتحدث معه بالتليفون [illegible] لحج مرسي ، وراءها احتمالات كثيرة . [illegible] ، وان كان احد هذه [illegible] أن يكون [illegible] ، ويريد أن يعود [illegible] ليطلب [illegible] . انه [illegible] لا يستطيع أن يسمع [illegible] أو [illegible] عن أن تتحدث عنه . أو تشعر [illegible] من قريب أو بعيد

وكان عبد الحميد صفوت ، أكثر طيبة ودماثة من ابيه ، وهو يتحدث مع سيد العتر عندما ركب معه السيارة ليجربها ، وذهب به [illegible] مرسي فرج ، [illegible] لسيد انه سيفكر في الامر ، وانه سيتخذ قراره [illegible] وقته [illegible] من مصر [illegible] سعد [illegible] يذهب يقابلها في محطة مصر حيث تصل في القطار

القادم من القاهرة الساعة العاشرة صباحا . وسوف يذهب به مباشرة الى تفتيش سيبل .

واستقبل مرسي فرج النائب العام بالعناق والقبلات ، وكان معه شهدي ابو اللطف المحافظ . ولم يضيع مرسي وقته في المجاملات ، فقال لعبد الحميد ، انه يريد ان يتحدث معه عن ابنه يونس ، وانه صاحب مصلحة في هذا الحديث ، مثله تماما ، لان الامر يخص حبيبته محاسن ، ومطلقة طلعت . وروى مرسي للنائب العام كيف تزوج ابنه من فاطمة . وكيف كان قراره بتسوية هذا الزواج ، حتى لا يرتكب طلعت اثما ستندم عليه . وتحدث عن فاطمة ، كما لو ان عناية السماء ترعاها ، وتعوضها عن عذاب كبير لاقته من ابويها ، واشتغالها الذين تركوها وحدها وكانها مقطوعة من شجرة . .

وسأل الحاج مرسي ، ضيفه النائب العام فجأة :

ــ هل يفكر ابنك في الزواج من فاطمة !

فاضطرب وجه عبد الحميد صفوت ، رغم انه تعود الا يظهر مشاعره ، وان يحتفظ بهدوئه ووقاره في احرج المواقف ، ولكنه شعر ان السؤال في حد ذاته اهانة شديدة ، ولجأ الى سعال عصبي يكسب به بعض الوقت ، ويبرر ذلك الانفعال المرتسم على وجهه الساخن . قرر ان ينحني للعاصفة وان يتجاهل الاهانة ، لان مصدرها شخص جاهل من الرعاع ، خدمته المقادير ومنحته ثروة ووقاحة ، ولكنه ليس نداله ، ولن يكون يوما ما من طبقته . . واكتفى بان همس :

ــ طبعا . . مستحيل . .

فوجيء عبد الحميد بقلق او حزن يرتسم على وجه الحاج مرسي ، وسمع صوته هادئا ولكن عاليا بعض الشيء ، وهو ينصحه الا يعارض مثل هذا الزواج اذا اراده ابنه . وانه يتحدث بصدق وخوف من الله سبحانه وتعالى ، ولانه لو حدث هذا

الزواج . فلن يتدخل ويطلب حفيدته من امها ، اما لو استمرت العلاقة على ما هي عليه ، فلابد ان يتدخل وينزع حفيدته من امها ، وهو امر يتردد قبل ان يقدم عليه مضطرا .

صاح عبد الحميد :

ــ هل معقول ان تتصور زواجا مثل هذا . ان امه تموت لمجرد ان يخطر ببالها شيء من هذا .

وتوقف عبد الحميد صفوت مروعا من لهجته ، ومن لفظ امه الذي نطق به ولكنه ما كان يستطيع ان يقول غير ما قال ، وما هي كلمات محبوسة في صدره تنطلق بالرغم منه ، ان هذه المراة افسدت يونس ، ولابد من تصرف يوقفها عند حدها ، وهو يريد ان يساعده المحافظ على انقاذ ابنه ، كما يريد مرسي فرج ان ينقذ حفيدته .

فقال مرسي فرج انه واثق ان شهدي ابو اللطف سوف يفعل كل ما في استطاعته لمساعدته . وان عليه من جانبه ان يبعد ابنه عن فاطمة . وهي على اي حال امراة لا حول لها ولا قوة ، وليست بالخطورة التي يتصورها ، فقد عرفها منذ كانت طفلة ، وهو يعتبرها على نحو ما . احدى بناته ، لولا انها تتمرد ، وورثت بعض جنون امها ، ولقد كان يريد ان تاتي بابنتها الى بيته ، وتعيش في حجره ، ولكنها تابى ان تترك ستها . . ولا شك انها تطمع في زواج آخر مثل زواجها الاول ، وضحك الحاج مرسي وهو يقول

ــ البنت تعرف كيف تصطاد الرجال .

فصاح عبد الحميد صفوت :

ــ تصطادهم جميعا . . الا ابني انا . .

فقال الحاج باسما :

ــ اترك الولد ياعبد الحميد يتصرف بنفسه . .

فسكت عبد الحميد ، وهو يقول في سره : ان مرسي فرج

يعامله بلا كلفة .. وكأنه يعرفه منذ سنوات وانه ما كان يتوقع يوما ما ، أن ترتفع الكلفة بينهما حتى لو تزوج ابنه من سارة .

وغادر عبد الحميد بيت مرسى فرج ، بعد أن استمع الى وعود شهدى أبو اللطف بأن يتصرف على النحو الذى يجعل فاطمة لا تفكر فى رؤية يونس .. بل تخشى أن يخطر ببالها اسمه .

وما كاد يختلى مرسى فرج مع شهدى أبو اللطف .. حتى قال مرسى [illegible] عبد الحميد صفوت [illegible] وهو لا يريد أن [illegible] ، وقد يكون عقبته الجديدة [illegible] وعلى العموم فهو [illegible] شهدى أبو اللطف لا يتدخل بين الولد [illegible] [illegible] وهو لا يريد ضجة ولا مشاكل .

فقال شهدى أبو اللطف : انه سوف ينتظر عودة يونس الى [illegible] من ناحية بانة وسلة .

قال الحاج انه موافق تماما على هذه الخطة ، وسوف يعمل [illegible] ومعها حقيبته ولكنه لا يحسن بعد ذلك أن تتحمل فاطمة طويلا ابقاءه فى بيته ، لأنها متمردة ، وقد تقدم على أى تصرف خاصة بعد أن تستقر وتستريح . فعقلها مركبه راسه وتفكر فى المغامرة والمخاطرة اذا ما استراح لانها لن تتحمل راحة لم تتعود عليها ، [illegible] لوقت . ومن يدرى . فقد يصمم يونس على اللقاء مع فاطمة والزواج منها . وهو احتمال كبير . قد يحل كثيرا من المشاكل .

فقال شهدى ضاحكا :

ــ الا مشكلة الأب .. عبد الحميد بك .

وضحك الحاج مرسى فرج .. موافقا ..

وعاد عبد الحميد صفوت الى الفندق ، وانتظر فى حجرته عودة يونس ، وكان انتظارا ثقيلا . واجه فيه ماضيه وكأنه لا صلة له به ، وفكر فى الوقت القصير الذى يتناقص بسرعة عجيبة ، ليصل الى يوم الاحالة على المعاش قبل ان ينجز ما كان يجب ان ينجزه . ان تتزوج سارة زواجا تستحقه ، أن يرى ابنه فى وضع اجتماعى مرموق وله عمل يكسب منه ما يؤهله لأن يكون اسرة ممتازة فى المجتمع ، وان يواجه الفصول الأخيرة من حياته بما يليق به من تكريم ، وان يشترى سيارة له قبل ان تختفى سيارة الحكومة . وان يعترف صاحب السلطة فى البلاد ، باهميته للأمن فاما أن يعد حديثه ، أو يفكر فى أن يدخله الوزارة أو فى أسوأ الظروف يستعين به مستشارا له فى الرئاسة . ان الأيام تمر ، [illegible] زهيرة [illegible] يتزوج سارة ، بعد أن تزوج خطيبها طمعت من بنت علاء مهيب . [illegible] أن يذكر هذه المحاولة مكانها لم تتم ما الذى يمسه كل هذا . أهو الموت يقتل بعلاماته ومقدماته ولكنه موت له مذاق خاص . موت انهيار ، موت انحلال موت ضعف ومهانة . كان الخطيب الذى فكرت فيه زهيرة ليحل مكان طلعت ، هو المهندس سمير الساحر ، من عائلة الساحر المعروفة بثرائها . عمثل صديقة لزهيرة .

ولكن ابوه المستشار منير الساحر ، جاء يملى شروطه ، جاء يسأله أن يعين سمير فى شركة اماركو ، لأنه سأل يعرفه أن مهندسين مصريين اثنين فقط ، يعملان بها . احدهما ابن مرسى فرج المليونير والثانى هو يونس ، ابنك يا عبد الحميد بك .. طلب منير أن يتوسط عبد الحميد فى تعيين ابنه دون أن يذكر شيئا عن

تقدمه للزواج من سارة . كان واضحا أنه يشترط لكي يتقدم ابنه لطلب يد سارة ، أن يتقدم له النائب العام بصفته والد العروسة ، وبصفته المستفيد من زواج ابنته ، تلك الوظيفة في أماركو .

قال عبد الحميد لزهيرة .

— سمير الساحر هذا .. لا يملك شيئا يازهيرة .. وهو يتصرف كأي محتال . انه يريد أن يميته وما يدريني أن سعد نفسه يستمر في مشروع زواجه .

قالت زهيرة :

— انه يبحث عن عمل مناسب في كل مكان .

قال عبد الحميد :

— وهو يريد أن يتخذ من التلويح بالزواج فرصة للحصول على وظيفة بمرتب كبير . انها صفقة .. بيع وشراء يازهيرة .

ورغم ذلك ، كانت زهيرة تريد ان تزوج سارة .. يكفي ان تثق في حديث العريس ، ولكنها بعد ان تحدثت مع عمة سمير بصراحة ، اكتشفت انها لا تستطيع ان تثق في نوايا العريس . اعترفت بأن وعودهم ملتوية ، وكلماتهم غير صـــريحة . وانها خافت منهم . ونسيت زهيرة هذا الحادث ، وكأنه لم يكن ، محته من ذاكرتها تماما . اما عبد الحميد فهو يرقب الأيام ، ويتساءل في كل ليلة ، هل يستطيع ان يزوج سارة ، وهو النائب العام . أم أن الفرصة ستضيع . وعندئذ عليه لن يرضى بنوعية اقل من الشأن ، اقل في المركز والمستوى الاجتماعي والثروة . ام لعله يخسر كل شيء .. فضيحة مدوية كتلك التي يوشك أن يفجرها يونس . من يتزوج سارة ، وشقيقها متزوج من مطلقة طلعت ، كان ابوها منولوجست . ويقال انها مومس . من يرضى أن يكون خال اولاده زوجا لمومس ، واولاد خـــال اولاده اولاد مومس .

لم يحضر يونس حتى بلغت الحادية عشرة والنصــف .. وتداعى حسد عبد الحميد . فترك رسالة لابنه . الا يغادر الفندق في الصباح قبل أن يراه . ولأن والدته قادمة من القاهرة .

وجد يونس الرسالة في انتظاره في استقبال الفندق . ولم يدهش كان يعرف ان لقاءه الأول مع أبيه ، هو مقدمة لهجوم آخر ، وان موجات بعد موجات من الهجمات سوف تلاحقه . وخير أن تأتي في الغد من أن ينتظرها ، وخير له أن يحدد بسرعة موقفه من ذلك البيت الذي كان ينتمي اليه ، والذين يريدون ان يملوا عليه شروطهم ، وان يجعلوا منه عبدا لارادتهم . عبدا لجنون أبوي ، او جنون أموي ، يريدون ان يتحولوا الى غيلان . فاما أن يهادنهم ويقرأ عليهم السلام ، ويرضى سلامهم ، واما ان يقضوا عليه .. فلولا سلامك لأكلنا لحمك قبل عظامك ، لولا سلامك ، لالقيناك في الجب المسحور .

ظل حجرته ، وهو يشعر بان سحابة معتمة تريد أن تثقله وتحتطفه من كل ما يريد أن يحياه . توشك ان تهبط من سقف الحجرة فتخنق انفاسه ، وتكتم صدره ، توشـــك ان تقتله .. وحاول أن يطرد هذا الاكتئاب الذي يتسلل اليه .. حاول أن يستعيد تلك اللحظات التي قضاها مع فاطمة . حاول ان يقول لنفسه ، الا شيء سوف يحدث فيصرعه . لأنه مهما كان الأمر فهو بين أهله ، وهو لا يواجه عدوا ، بل يواجه أباه وأمه . وهم ان يرضوا بقتله لن يقتلوا الحس الذي تشعر الآن بانها تحب فاطمـــة ..

الفصل الثالث عشر

وصلت زهيرة هانم الى الفندق ومعها ابنتها سارة في السيارة التي يقودها سيد العمر ، واعجبتها السيارة . فهي كالجديدة تماما ، ليس بها خدش ، ومقاعدها مكسوة بقطيفة حمراء جديدة ، وثمنها معقول ، وسألت زهيرة هانم السائق سيد العمر وهي تتأمل وجهه الوسيم الذكي ، اذا كان يعمل في الشلة ، فاجابها بانه يؤدي خدمات للشلة والمباحث من وقت لآخر ، ولكنه مستقل عنها .

فهو يشرف على عمليات نقل وصيانة سيارة خدمة لشركة [illegible] . وهو الذي [illegible] من سجلات [illegible] مهندس موسى . وكادت زهيرة ان تسأله عن الأماكن التي يتردد عليها موسى [illegible] امرأة التي تخدع [illegible] . ولكن [illegible] الى اتجاه آخر ، فيما اذا كان سيد يقبل ان يعمل سائقا للسيارة في خدمة [illegible] ، بعد ان يتم شراؤها . فقال سيد في مرح ، انه دائما [illegible] سائقا مثله سيكلفها الكثير ، فهو يحصل على دخل لا يقل عن اربعمائة جنيه في الشهر فلماذا لا توفر هذه المصاريف ، وتقود السيارة بنفسها ، او تعتمد على ابنتها الصغيرة — تقصد سارة — [illegible] . فتعجب زهيرة هانم ، فقد ادهشها ان يكون ما يحصل عليه سيد شهريا يقارب ما يحصل عليه زوجها النائب العام . واحست بشيء من الرهبة ممزوجة بحسرة .

انها تكتشف كل يوم ، كل ساعة ، انها لم تعد قادرة على الاحتفاظ بمركز المتفوق المترفع الذي ينظر للناس ويفرض عليهم الرهبة والخضوع ، بسبب [illegible] ، واصحاب المهن البسيطة والمراكز الدنيا يحصلون على ايرادات لا تتمتع من المال والقوة حتى اوشكت ان تحوجر ان تسقط . فيهجم [illegible] ، ويكتسحون كل شيء امامها [illegible] ملابس او مجوهرات ، لتستعبد حصونها وقلاعها ، وموقعها [illegible] لا يجرؤ على الاقتراب منها احد . ولولا نفوذ زوجها وسلطته ، لتعرضت لاخطار لا نهاية لها من هجمات هؤلاء السفلة .

وهو [illegible] هذه [illegible] تخاطبها بلهجة مرحة ، وكأنه [illegible] لها ومن مستواها الاجتماعي ، وكانت سارة تنظر [illegible] سيد العمر [illegible] بعض [illegible] بها زهيرة بالفرنسية . الا داعي لان تتحدث مع الرجل بهذا الاهتمام والتبسط .

سألتها سارة بالفرنسية ، عن سبب اعتراضها على حديثهما !

فقالت لها زهيرة ، انها لا توافق على التبسط مع امثال هؤلاء [illegible] ، ولان لا [illegible] السيارة ، سوف [illegible] على رفع الثمن الذي يطلبه .

فضحكت سارة ، وقالت لامها انها تكثر من الريب والظنون [illegible] . ولكنها [illegible] رغبات امها ، وكفت عن الحديث مع سيد العمر .

ووعدت زهيرة هانم ، بان يتحد روجها قراره النهائي بشأن السيارة في نفس اليوم . وانطلقت الى داخل الفندق ومعها سارة ، وكان عبد الحميد صفوت في انتظارها بالجناح الذي تقيم فيه ، وقال لها ان يوسف [illegible] في حجرته ، وانه [illegible] منذ اكثر من ساعة وطلب منه ان يشاركه الانتظار . ولكن [illegible] يبدو انه مكسوف من مواجهته مرة ثانية . فرفضت زهيرة الانتظار ، ومضت الى حجرة يوسف وفتحتها [illegible] كان يرتدي ملابس الخروج ،

ويقرأ الصحف . نهضت عليه زهيرة تعانقه وتقبله ، ومن ورائها سارة تنتظر دورها لتحية شقيقها . وبعد لحظات تغير الموقف تماما ، فتحولت زهيرة الى سيدة جامحة ثائرة ، تمارس كل سلطات الأم التى تملك كل شىء يخص أولادهـــا . وهى تعلن أن تلك الحشرة التى تريد أن تعترض طريقها ، سوف تنال ما تستحقه ، فقد جاءت من الحضيض ، ولابد أن تعود الى الحضيض ، هذا أمر مفروغ منه . أما هذه الطفلة التى أسقطت يونس ، فأمرها هين ، انها أخطاء تذكرها به عندما كان طفلا يتبول على نفسه . فتمسح له جسمه وتنظفه وتعطره وترشه بالبودرة .. انها تفعل الآن نفس الشىء ، لتمسح القاذورات .. وتبعد عنه شرور تلك المرأة وقاذوراتها .

اتخذ يونس موقفا مغايرا لذلك الذى كان صوابه . عرف من البداية الا فائدة من مناقشتها ، وكان بينه وبين نفســه تعجل نهاية هذا اللقاء ، ليذهب الى فاطمة . ويطمئنها ، وهو لا يتصور أنهم يريدون ايذاءها نفسه .. فهذا الذى تهدد به أمه ، هو مجرد انفعالات غير عاقلة . ومع ذلك سوف يواجه أباه ، ويطلب منه أن يعده بألا يسىء اســـتخدام سلطاته فى أمور شخصية ، لا دخل لها بعمله ككاتب عام .

هل من المعقول أن يلقى القبض على فاطمة ، وتدخـــل السجن ، لمجرد أنه على علاقة بها .

وامسكت زهيرة بيد يونس ، وسحبته معها الى جناح أبيه الذى تأمله صامتا . ماذا يفعل فى هذا المأزق الذى يفرضـونه عليه ؟ لم لا يتركونه وشأنه ، يتركونه لأخطائه ونزواته ، انه كبير ، تخرج من الجامعة ، وليس طفلا مازال يتبول على نفسه كما تريد أن توهمه أمه ، انه مهندس له عمـــل ، يريد أن يفكر بنفسه ، ويشعر بنفسه ، لا يريد أحدا يفرض عليه المشـــاعر أو الأفكار . ان أمه تريد أن تسحق فاطمة تحت أقدامها لتنتزعه

منها .. كأن فاطمة عقرب سام . هل تتصور أمه انه مازال جنينا فى رحمها . ما أغرب هذه الشخصيات التى تحيط به فى هـــذه الحجـــرة .

أبوه وأمه اللذان أخرجاه الى الدنيا ، وسارة شقيقته ، ما الذى يريدونه ، ما الذى يطلبونه ، النفوذ ؟ الجاه ؟ السلطة ؟ المال ؟ أيقول لهم انه عثر فى فاطمة على شىء مختلف . شىء لا يعرض نفسه ، ولا يجد نفســه يتفرج عليه . انها تقدم له ، ما يتوه فيه ، ما ينسى به انه وحده يتفرج على الآخرين . انها تقدم له مشاركة لا صلة لها بالجاه والسلطة .. تقدم له ما يستسلم له ، ويندمج معه وهو مرتاح بلا مشاعر أو قيود . تقدم له لحظات يعتز بها ، لها قيمتها ، تمتلىء بها نفسه فتزداد ثراء وخصوبة .

كان أبوه يريد أن يترك كل شىء لزهيرة ، تواصل صمته ، أراد أن يكون عاديا ، فتذبذب ، وقال الأب بصوت بارد هادىء :

— على فكرة يايونس .

سمعها من أبيه ، فانتظر منه أن يكمل وأن يتحدث عن هذه الفكرة ولكن هاهو أبوه يردد كلاما عاديا ، بصوت غير حقيقى ، انه يتحدث عن بطاقة عضوية تجربة للنادى ، ليس ذلك الذى كان يريد أن يقوله أول الأمر . لابد أن يتصرف بسرعة ، قبل أن تختمر الفكرة فى رأس أبيه .

لأنه لن يقبلها . ولأنه يعرف مقدما ما الذى تهدف اليه لن يدع لهم فرصة للراحة والتقاط الأنفاس ، لن يسمح لهم بأن يوقعوا استسلامه .

وانطلقت الكلمات من فم يونس .

— أنا حر فى شئونى .

صرخت الأم :

— ماذا تقول ؟

وأصـــــدرت زهيرة قراراتها ، وعلى يونس ان يقبل ...ن
نحوى كل الذى كان بينه وبين فاطمة ، الى شىء لم يكن .

وسمع الأب يقول :

— انت ظروفك مختلفة عن بقية الناس ، وما يستطيع الآخرون أن يستمتعوا به غير مسموح به لك ، ولا متاح أن يمارسه بنفس القدر من الحرية ، لأننا مطالبون بأن نكون قدوة للناس .

والتفت الأب الى سارة ، كأنه كان لا يريد ان تسمع منه ما سوف يقوله . ومع ذلك مضى يقول :

— يا ابنى .. اذا كنت تريد أن تمضى معها بعض الوقت .. فليس لى فيها ما يكفى .

قالت زهيرة

— ان يمر اســـبوع قبل ان اختار لك اجمل بنات مصر وستتزوجها .

واجههما بالصمت ، لا يدرى ماذا يقول ، لا يستطيع ان يكون واضحا وثقا مثلهما ، ولا يستطيع أن يتحدث بهذه البساطة عن المستقبل ، انه لم يفكر فى الزواج ، ولا يظن انه واجه انه سيتزوج فاطمة يوما ما ، هذا موضوع لا يستطيع ان يناقشه ، على الأقل وسط هؤلاء .. وفى هذه الظروف ، لأنه موضوع يدخله فى منطقة غامضة مبهمة ، مثل ما يعرفه هو انه يذهب الى فاطمة . وانه وعدها بحمايتها .. وانه يحبها .. نعم يحبها .. والا ماذا تكون هذه العلاقة الحميمة بينهما ، والتى تسمح له أن يتعامل معها ومع جيرانها الذين تعودوا رؤيته معها ومع محاسن . قالت لهم انه قريب لها . وقالت لهم انه شقيق زوجها السابق . هو شقيق طلعت . ماذا تقول امه لو كلاما كثيرا ، وخرجت معه ولم يصدر عنهما شجار ولا صـــوت مرتفع ، وحرص الا يقضى الليل فى بيتها . لقد شعر ... وربما كان هذا مجرد شعور لا تدعمه الحقيقة ، ان الجيران يعطفون عليه . أو على الاقل يقدرون انه

فى مشكلة ، وانها مشكلة انســانية ، لأنها تخص هذه المرأة ... محاسن ، التى هجرها زوجها .

مدام فيكتوريا المدرسة ، والدكتور ســعد الصيدلى ، والأســتاذ رحمى المحامى واسمه للطيار وبرعى البقال ، وسليمان المكوجى . الكل .. لم يعترضوا ، لم يهددوا ، الكل فى عيونهم فهم وعطف ، ماذا ينتظر غير هذا من حضارة اسكندرية ، ولكن المشاعر التى يواجهه الآن فى هذه الحجرة ، توشك أن تقوض كل ما له صلة بالعطف والفهم .

هدأت النفوس ، او هكذا تظاهرت نفوسهم . هدنة لالتقاط الأنفاس ، وثقة من جانب الام ، ان وجـــودها وقراراتها تتعدد لا ريب فيها . غدا يعود يونس الى عمله . ولكن فى اجـــازته القادمة ســيذهب مباشـــرة الى القاهرة . وقد يستطيع والده خلال هذه الفترة نقله الى مكاتب الشركة فى القاهرة ، وفى كل الأحوال ، سوف تكون قد اعدت له عروسه التى تزفها اليه ..

احتفى يونس بابيه وهو خارج فى طريقه الى السينما . وقال له وهو ينظر فى وجهه بثبات :

— ابى .. انك لن تسىء اليها .. لن تظلمها .
قال الأب فى وقار وبصوت هادئ :

— ماذا يعنى ... ما لدى يدور فى راسك .. !

— قال يونس بلهجة رجاء

— ارجو الا تسىء بكلام امى .

قال الاب بنعام

— البنادة ليست ملكى

فقال يونس مرتبكا

— هى لم تفعل شيئا يخالف القانون ..

تصور الأب ، ان ابنه يعقد معه صفقة . الولد يتعهد بان يبتعد عن المرأة ، والأب يتعهد بالا يضرها .

وكان يونس يكمل قائلا :

— اذا كانت متهمة بشيء .. فانا ايضا .. ؟

قال الأب مقاطعا . لا يريد أن يسمع ابنه يقول انه مذنب .

— احذر على اى حال . وارجو أن تكون هذه مجرد حكاية عابرة ..

وتوقف الأب فجأة . وقال بلهجة غريبة :

— انت تعلم أن ايامى معدودة فى النيابة ، واملى كبير فى مد مدة الخدمة .. ولن ترضى يايونس ان تكون سببا فى ضياع هذه الفرصة .. مكانك تدفعنى دفعا الى قبرى ، وتقول لى لم تعد فى حاجة اليك .

همس يونس فى الم :

— هذا آخر ما افكر فيه

ربت الأب على كتفه .. واستدار متجها الى باب الفندق ، فوجد سيد العتر يحييه .. ويقول له أن الهانم قد انهت امتحانها بالسيارة ..

فقال النائب العام :

— اذن .. ساطلب من العقيد رأفت ان يرسل احدا لفحص الموتور ..

قال سيد العتر واجما ..

— الموتور .. ممتاز وعلى ضمانتى يا افندم .

قالها سيد ، وهو يقرر بينه وبين نفسه ، أن العقيد رأفت مدير الحملة الميكانيكية بالمرور ، هو آخر من يسمح له بالتدخل فى هذه الصفقة . لقد اعد كل التغييرات فى السيارة باتقان ، ولكن رأفت ورجاله ، سيعرفون بسرعة أن ارقام الموتور حدث بها تغيير . لماذا يعقد هذا الرجل الأمور .

صاح سيد محاولا استرضاء النائب العام ..

— لو سعادتك تركت كل شيء لى .. اقدم لك السيارة بالرخصة .. بالمفتاح .. دون أن تتعب سعادتك فى اى شيء .

قال النائب العام باصرار :

— لا يا سيد .. سأفحص السيارة اولا ..

قال سيد وهو يكتم غيظه من غباء لا يطيقه .. ويهدده :

— امرك يا افندم ..

لن تتم الصفقة .. سيعود ويرتفع الثمن ، ويقول أن صاحب السيارة طمع فى ثمن اكبر ، ولو تعقدت الأمور سيفك السيارة ، ويتحمل خسارة ما انفقه فى تغيير معالمها . لابد من عملية جديدة او عمليتين يقوم بهما بسرعة لتعويض هذه الخسارة التى لا معنى لها . خسارة تنجم عن تصرفات غبية ، وتلحق بالنائب العام والهانم زوجته ، وتلحق بسيد العتر .

واسرع يونس الى فاطمة ، كانت تعلم بكل ما حدث ، قبل أن يقول لها حرفا واحدا . فى حوار صامت ولدت العلاقة بينهما وفى حوار صامت تتفاهم معه على كل شيء ، وتعرف كل شيء .

كانت تعرف أن اهله عرفوا ما بينهما ، وأنهم اعترضوا ، وبالأمس احتجته من احضانها . فهى الآن تحميه ، كما يحميها . وسوف تثبت له أنه يستطيع ان يعتمد عليها كما تعتمد هى عليه . كل شيء متغير الآن ، وهى مسئولة منه ، كما هو مسئول عنها . انهما مقتربان ، يتصوران . سوف يبقى معها ولن يتركها ، كيف تقول انه ذاهب الى عمله غدا .

قالت :

— ابق معى ..

قال :

— لا استطيع . العمل ينتظرنى .

قالت :

— تأخر يوما . انا فى حاجة اليك .

لو بقي ، سوف تغمره بحنان ، سوف تسعده ، سوف تحمل كل نزواته فرحا .. انها الآن تشعر بكيانها ، ولسوف تعطيه وتغدق عليه ، وسوف يأكل من طرحها كل ما تشتهي نفسه .

لكنه صمم على السفر . كان تصميمه غير عادي ، ولهجته عصبية .. فلم تقبل منه ما رأته هروبا ، ثم لم تقبل منه انه مرهق ، وقالت له وهو خارج من بيتها . بما كنت تسمى او استمع لبها ولم يتركها في هذه الأيام ولو رأت انه لا يأخذ كلامها بنسى الاحساس بالخطورة الذي يعاني منه قالت ضحكة دفعتها تقهر كل الاخطار وتريح كل المخاوف وتطرد هذا الاحساس الملح :

— من يدري .. قد أحضر لك في المعسكر .. ونقيم معك ..

ضحك . وقال مرتبك

— ومحاسن .

قالت بسرعة

— مالها محاسن .. ؟

رفضت أن تحسم شيء . فليس بينهما احد ، لا امه ولا ابوه ، ولا محاسن .

وكانت صادقة في حدسها ، فأسباب الخطر كانت تتجمع كما حدثها قلبها ، وجاء بعد يومين من يونس ، سيد العتر ... ورغم ظهوره المفاجيء ما كانت تراه حتى أيقنت انها كانت تتوقعه ، وكان واثقا من نفسه ، ولابد انه عرف ان اهل يونس يمارسون اتصاله بها . وأن يونس وحده ، لا يسنده احد . وكان سيد العتر يتفرس ملامحها في دهشة ، فهو لم يتوقع أن يرى الوجه الذي رآه والملامح المرتسمة فيه .

كان يقول لنفسه المرأة تغيرت ، شكلها غريب ، غير مألوف ، كأنه لا يعرفها .

وقال يخاطبها وهو يقاوم تلك الغربة التي تتحصن وراءها ، انه يريد أن يطمئن عليها .

وسمعته يسألها

— هل أنت خائفة مني .. ؟

كان يعرف انها خائفة ، وتمنى أن تعترف ، اذا لم تعترف ، فهي مازالت تتوهم أن يونس قادر على حمايتها ، الآن سوف يبدد هذه الأوهام ، سوف يخترق الحصار ويحطم التحصينات ، الآن سوف يعيدها الى أصلها . الى ما كانت عليه .

لم تجب . فمضى يستفزها بنعومة بالغة ..

— أنا عمري ما فكرت في أذيتك .. انا سيد العتر يا فاطمة بنت زكريا .. انت تتخيلين أشياء غير صحيحة .. وتحطين في رأسك أوهاما كلها غلط في غلط . انت لا تعرفين من الذي يحبك ومن الذي يكرهك .. أقسم انك عبيطة .. لا تعرفين مصلحتك .

وقرر أن يضرب ضربته ، قال:

— انت لا تعرفين من الذي يستطيع أن يحميك .. ومن الذي يعرضك للبهدلة

فهمت مغزى تهديده . الكلب يتجرأ . من أتاح لهذا الثعبان أن يخرج من جحره .

قالت بصعوبة . قبل أن تطرده

— ماذا تريد أن تقول .. ؟

سمعته يقول :

— انت تعتمدين على حائط مائل يا فاطمة ..

وغمز بعينيه كما لو أن خاطرا شيطانيا يعربد في رأسه ، ويراه بعينيه ..

وقال باسما :

— انت غلطانة .. وأعرف انك في ورطه ..

وبدت القسوة في ملامح وجهه ..

— اسمعني جيدا .. هذا لمصلحتك ولمصلحة ابنتك ..

خافت ، أصابها ذعر ، هذا الثعبان الذي جاء من قبل نذير شؤم يقول لها ان طلعت سيتركها ، سيعاود شؤمه . سيقول لها ان يونس ..

ولكنها لا تريد أن تسمع . انكمشت ، جسدها يرتجف .. الخوف يضعفها .

سمعت صوته آمرا :

— قلت لك لا تنزعجي . المسألة بسيطة .. صاحبنا .. ابوه ، يخرب بيته . هو وأبوه .. منعه من الحضور اليك .. سبق وحذرتك أنهم اشرار ..

صاحت تستجمع قواها ..

— لماذا تقول لي هذا .. ؟

صاح بدوره ينتقم ، يرد الصاع صاعين ..

— لاني أعرف ما بينكما .. انه يأتي وكأنه الكل في الكل ، ليغرر بك .. وهذا لا ارضاه .. انه يخدعك ..

صاحت :

— لا شأن لك به ..

قال هادرا :

— بل لي شأن وستين شأن وشأن . أنا سيد العتر الذي سينقذك من هؤلاء الاشرار .. اسمعيني جيدا يا فاطمة ، تحت سيارتي .. تنتظر .. لا يملك مثلها صاحبك .. يونس .. لا هو ولا ابوه ، سنتركها ، ونخرج من هذا البلد .. صدقيني .. سأذهب بك الى ليبيا .. الى تونس الجزائر .. المغرب .. سنعيش معا .. سأتزوجك ..

صاحت بفزع :

— ابعد عني ....

يقترب منها ، تتراجع ، وتراجعت ، يتقدم ، وصاحت في ذعر :

— اياك ان تقترب .. انت تعرف انه لن يسكت لك .

صاح سيد :

— وانا لن اسكت له ..

تقدم منها وصوت كالفحيح يخرج من فمه .

— هل تظنين نفسك قادرة على مقاومتي .. سوف ترين . سأجعلك تقبلين اقدامي هذه .

صرخت .. بأعلى صوت :

— يالهوي .. الحقوني ..

زمجر وهو يخرج مطواة من جيبه ..

— لو رفعت صوتك .. سابزقك ..

مضت في صراخها .. لا اهمية لاي شيء .. يهددها ، او يذبحها ، لا اهمية لهذا ..

وتوقف سيد . وكانت قد انفجرت في البكاء ، تلطم وجهها . وكلما ارتفع صراخها ، زاد هدوءه .. وكلما اشتد دمعها ، انطفأت شعلة حماسه .

انهارت على مقعد ، وهي تسمعه يردد بصوت رتيب :

— خلاص .. خلاص .. اسكتي .. وحطي عقلك في راسك . وصدقيني ، الولد يونس ، لن يأتي الى هنا مرة ثانية .. واذا كنت لا تصدقين ما اقوله . هناك غيري سيقولون لك ما هو المر واشد مرارة من هذا .. !

وتركها وخرج . لتنتبه الى محاسن مذعورة مختبئة في حجرتها ، ما كانت تراها حتى انفجرت في بكاء كانت تكتمه رعبا .

ولكن لم تمض ساعة حتى تحققت كلمات سيد العتر ، جاءها ضابط شرطة ، قال لها في ادب شديد ، ان شكاوى وصلت

الى الشرطة ، بأنها تدير بيتها للدعارة ، وانهم أجروا تحريات ، وعلموا انها تستقبل شبابا أعزب في بيتها ..

وقال لها الضابط ناصحا :

— لماذا لا تذهبين الى بيت حماك .. انه قادر على حمايتك .. وتركها الضابط ، وهي تترنح ، لا ترى شيئا امامها . اغلقت على نفسها باب شقتها . وفكرت في الانتحار . لولا محاســـن لانتحرت .

هل صحيح ان يونس لن يعود . لابد أن شيئا ما قد حدث . ان سيد العتر يعرف الكثير ..

واسرعت الى مكتب التليفون ، وطلبت يونس .. ما كادت تسمع صوته حتى هتفت باكية . لاهثة .

— الحفني ، سيد العتر ، والشــــرطة ، جاءوا البيت ، وسمعته يقول :

— ســاكون عندك في الحال ..

مثل عليها ، شجاعا ، فارسا ، رجلا ولا كل الرجال ، سمع ما قالته ، ورأسه مرفوعة ، لم يخف ، ولم يتردد ، وكان في عينيه بريق ســاطع وفي صوته نغم حلو .

قال لهـــا :

— كل هذا كلام فارغ ..

— تقول كلام فارغ .. لتعود الى المعسكر .. قال باسما :

— لا ياحبيبتي .. اقول كلام فارغ .. لاني ســـــأتزوجك الآن ..

وقبل أن تتم الساعة . كان المأذون في مكتبه يعقد القران الذي شهد عليه . اثنان احضـــــرهما المأذون ، اثنان ، رجلان ، غالبا بوابان ، قالا لفاطمة ويونس ، مبروك وقبض كل واحـــد منهما خمسة جنيهات .

الفصل الرابع عشر

كان زواج يونس وفاطمة ، صـدمة اصابت الجميع بذهول ، بدا وكأنه هدوء يعقب العاصفة . وكانت الصدمة الكبرى في بيت النائب العام ، الذي انهار امام النبأ واعتكف في بيته . وسواء كان مريضـــا أم يتظاهر بالمرض حتى لا يواجه الفضـــيحة بين الناس ، فانه عجز تماما عن التصرف ..

.. ولم تسمعه زهيرة هانم مراد ، لقد انهارت هي الاخرى فكانت تصرخ وتولول وتلطم خديها مثل أية امرأة ثكلت في ابنها الوحيد .. وعانت من نوبات هستيرية . لم تحتملها اقراص المهدئات التي ابتلعت منها كميات مضاعفة . واصابها فزع من قوى رهيبة غامضة توشك أن تنقض عليها وتصرعها ، كما صــرعت ابنها يونس . وفقدت الثقة في الأطباء . فلجأت الى منجمين وقارئي الكف . وكل من تسمع عنه أنه صاحب قدرات ســحرية ويستطيع أن يعمل عملا ينفر يونس من المومس التي اختطفته . وتعيده الى ست أمه . وانتهت كل هذه المحاولات الى شـــعور قاتم بالعجز والشلل ، فامتلأت مرارة واعلنت انها ايقنت ان الدنيا كلها شرور ، وانها دنيا غرور .. يتحكم فيها ابليس ، ولا ينتصر فيها الا الشر . وتهيأت لها ظروف التوبة والاستغفار من ذنوب هذه الدنيا الفانية ، عندما اختارت الدولة عبد الحميد صـــفوت ليرأس بعثة الحج المصرية تكريما له قبل أن يحال الى المعاش بأيام . وعاشت زهيرة

مع عبد الحميد أيام الحج ومناسكه في ابتهال متصـــــل ودعاء لا ينقطع ، وكانت تنتاب عبد الحميد صفوت نوبات بكاء وهو يصلي ، وكان يطيل السجود ، ويضرب بجبهته الأرض ، في حنين الى التراب الذي يوشك أن يعود اليه جسده ، وهو يستغفر الله من الذنوب التي ارتكبها ، ويتمثل الراحة الأبدية وان كان في قرارة نفسه حنين الى أيام مضى لو تعود مرة بشبه المعجزة . ولكنه لا يجرؤ على أن يفصح عن هذه الأمنيات . لأنه كلما تذكرها شعر بالمهانة التي انتهى اليها ..

ولما عاد عبد الحميد صفوت من الحج ، كان المستقبلون له ولزهيرة هانم ، أقل من المودعين لهما ، فقد أعلن اسم النائب العام الجديد ، ولم يعد عبد الحميد صفوت من رجال السلطة ، وأعلنت الحاجة زهيرة أنها من أنصار التمسك بالحجاب للسيدات اللاتي جئن لتهنئتها . ودق جرس التليفون ، وســمعت زهيرة صوت يونس يهنئها هي ووالده بسلامة العودة .. ويستأذن في الحضور الى القاهرة ليزورهما .

قالت له الحاجة زهيرة بصوت صارم :

— أبوك يقول .. اذا جئت فتعال وحدك .

فأجاب يونس بهدوء ، ولهجة أشد صرامة :

— ولكني لست وحدي .

ولم يحضر يونس ، وكان يتمنى لو كان بجوار أبيه في تلك الأيام القاسية الصعبة التي خرج فيها من السلطة وأحيل الى المعـــاش .

وكان يونس لا يجد أحدا سوى مستر كلارك يتحدث معه في بعض همومه ، فقد عزله زواجه من أسرته ومعارفه القاهريين . كما أن فاطمة تعيش في عزلة وكأنها مقطوعة من شجرة . وكان كلارك يتعجب لشــــدة الارتباط العائلي بين الأبناء والآباء عنـــد الشرقيين ، وكان يقول ليونس أن رجله العجوز ، يقصد أباه ،

كان بائع قمصان في مدينة سنت بول بولاية مينيسوتا . ولما بلغ كلارك الرابعة عشرة كان يعيش من مصروفه وترك البيت في السادســة عشرة بعد وفاة أمه ، وتنقل في عدة مدن يبحث عن عمل ، أما الرجل العجوز فقد سافر الى شيلي ، وتزوج من امرأة أخرى ومن يومها لم يره ، حتى علم بنبأ وفاته وهو في [illegible] اذ جاءه خطاب من مكتب للمحاماه ، يخبره بأن والده ترك له في وصيته بعض أســـهم كانت تملكها أمه في شركة سان . سي لتصدير الفواكه .

قال يونس معلقا على كلام كلارك ، انه كان يريد أن يذهب مع زوجته الى أمه وأبيه ، ولكنهما أصرا ألا يعترفا بالزواج وكان يظن أن ذهابهما الى الحج سيطهرهما من كل مشـــاعر التعصب فيقبلان زواجه ويعود الصفاء الى العلاقة بين الابن وأبويه .

قال كلارك مواسيا :

— ولكن ما فعلته يا يونس هو عجيب وغير متوقع في أي مجتمع ، وفي أي بلد ، سواء في الشرق أو الغرب .

قال يونس بهدوء :

— ليس غريبا أن أحب .. وأن أتزوج من أحببت ..

قال كلارك

— هذا صحيح .. ولكن الغريب حقا .. هو أنك أحببت فاطمة

قال يونس محتفظا بهدوءه

— انك لا تتخذ قرارا بأن تحب .. والحب يحتل قلبك من حيث لا تدري .

قال كلارك

— ربما .. ولكني أظن أنك في حالتك هذه ، أردت شيئا آخـــر غير الحب .. فانتهى بك الأمر الى هذا الذي تقول أنه حب ..

قال يونس :

— نعم .. لا أنكر هذا .. فقد كنت أول الأمر أريد أن أشعر باحترامي لنفسي ، وأني أقف ضد الظلم .. وأستطيع أن أقدم العون والمساعدة لمن هي في حاجة اليهما .. ولم أجد شيئا يمنحني القوة لأحقق ما أريده سوى الحب .

قال كلارك :

— أنت ياعزيزي تتحدث عن الدين .. لا الحب .

وأردف كلارك

— حقا أنت ابن هذه البلاد .. كل شيء يتحول الى مشاعر دينية .. حتى الحب .

قال يونس وهو يشيح بوجهه ، في اتجاه الطريق المفضي الى الاسكندرية :

— ولكنه ليس تماما مثل الشعور الديني الذي جعل أبوى يعودان من الحج فيرفضان رؤية زوجتي .

قال كلارك :

— يبدو انهما أقرب الى الاسلام .. أما أنت فأقرب الى المسيحية ..

فصاح يونس غاضبا :

— هذه معان تتحدثون عنها بغير فهم ، الاسلام فيه رحمة وتسامح .. بلا حدود .. والاسلام يحتوى على الحب الذي دعت اليه المسيحية .. لأن الاسلام يكمل ما جاء النبي ويختتم رسالة السماء ، فهو لا ينقض ولا يهدم ، بل يكمل ويطور .. الاسلام فيه كل رسالات السماء .

قال كلارك بسرعة :

— لا أريد أن أتورط معك في مناقشة دينية .. فهذا هو ما حذروني منه قبل أن أجيء الى بلادكم ، وأرجو الا تغضب أو تسيء فهمي ..

قال يونس ضاحكا :

— لن أغضب .. ولكنك بحاجة الى أن تفهم حقيقة مشاعرنا الدينية .. فقال كلارك ساخرا :

— يبدو لي من كلامك أن والديك في نفس الحاجة الى فهم حقيقة المشاعر الدينية ..

ولو كان يونس يقرأ الغيب ، لقال لكلارك أنه محق في ملاحظته الساخرة ، فقد اتخذ الشعور الديني عند زهيرة هانم اتجاها الى الاهتمام بزي اسلامي خاص ، رسمته بنفسها ، وقالت انه الذي يتفق مع أحكام الشرع ، ويجمع بين الأناقة والوقار . وكان الزي يشمل غطاء للرأس مكون من طربوش مغطى بغلالة حريرية شفافة ، تلفها حول رقبتها ، وفستان بأكمام طويلة ، وله كتفان بارزتان . وصدر موشى بخرز لامع أو شرائط براقة حتى الخصر ، ثم ينسدل الفستان على شكل ناقوس ، وينسدل حتى أصابع القدمين ، وأعدت الحاجة زهيرة هانم مجموعات من هذا الزي ، كل طقم له لون موحد .. بنفسجي أو أحمر أو لبنى أو أزرق أو سمنى ، وكان اللون واحدا في الطربوش والغلالة وقماش الفستان وجلد الحذاء وكانت زهيرة هانم وهى في زيها الذي صممته ، أشبه بممثلة في رواية تاريخية ، تتحرك على خشبة مسرح الحياة ، وهى تردد كلمات الدور الذي تقمصه ، وكلها كلمات تشرح مزايا الزي الذي ترتديه ، وكيف أن مواصفاته هي أقربها الى أحكام الشرع . ولم تقلد واحدة من معارفها زيها وقد سرى همس بينهن أن زهيرة لم تعد في تمام عقلها بعد فضيحة ابنها . وان قالت بعض السيدات ، أن الحركات المتقلبة التي تتظاهر بها زهيرة ، هي حركات متعمدة ، حتى تشغل نفسها وتشغل أنظار المحيطين بها عن التفكير في الكارثة التي وقعت بزواج يونس من فاطمة .

وانزوى الحاج عبد الحميد صفوت في حجرته ، لا يكلم أحد ، وكان ينتظر صوت المؤذن في التلفزيون ليقوم ويصلي ، وكان بين الصلاة والصلاة ، يقرأ القرآن ، أو يخرج من مكتبه كتب الفقه والتفسير والكلام ويحاول قراءتها ، فيقرأ عدة سطور، فيهاجمه النعاس ، ويغفو ، وفترت علاقته بزهيرة ، وانقطعت صلته بسارة ، حتى فوجيء بها ذات يوم تقتحم خلوته .. وتحدثه عن المهندس سمير الساحر ، وكانت قد اتصلت به في النادي ، وبذلت كل ما في وسعها لتحمله مرة أخرى الى التفكير في الزواج منها . فبعد زواج يونس من فاطمة وإحالة والدها الى المعاش ، أيقنت أن فرص زواجها أصبحت شبه معدومة ، وأنها قد تقضي بقية عمرها عانسا ، وكان لابد وأن تتحدى هذه الظروف وتحاربها .

قالت سارة للمهندس سمير :

— أبي يستطيع ان يتوسط لتعيينك في شركة من شركات مرسي فرج ..

قال سمير متشككا :

— لا أظن ..

سارعت سارة تقاطعه ، قبل أن يتورط في كلام يصادمها، أو يضع حواجز نفسية بينها وبين هذا الشاب الذي تريد أن تجذبه الى شراكها ، وقالت لسمير ، أن هناك علاقة قرابة بين عائلتها وعائلة مرسي فرج ، فشقيقها هو الذي يتولى الآن تربية حفيدة المليونير ، وبنت المهندس طلعت . واهتم سمير بهذه الفرصة الحقيقية التي تلوح بها سارة ، بينما هنأت هي نفسها على تفسيرها الذي ابتكرته لزواج يونس ، فهو ليس كارثة تماما ، فهناك مزايا من الممكن استغلالها ، من صلة يونس بحفيدة المليونير . وهي ترحب بهذا التفسير ، لأنه يفتح أبواب الأمل ، ولا يتركها لليأس العقيم كما فعل والداها . فهما عجوزان ، أبناء

جيل قديم يقف متجمدا عند معان قديمة ، أما هي فلابد أن تواجه الأزمة بمنطق آخر ، فهي تبحث عن فرص في الواقع الجديد ، مهما كان مرا ومتواضعا ، وكانت سارة قد ذهبت الى أمها قبل دخولها الى أبيها ، تسألها المشورة في أمر سمير ، فاذا بالحاجة تقول لها ساهمة شاردة :

— عندك أبوك .. سليه ما تشائين .

واضطر عبد الحميد صفوت الى أن ينشط ، وأن يخرج من صومعته وحبسه الانفرادي الذي فرضه على نفسه ، كان لا يستطيع مواجهة سارة ، ولا يملك سوى الاذعان لرغباتها .. فسافر الى الاسكندرية ، وهو ينفر من كل خطوة يخطوها ويكره كل لحظة تمر به وطلب مقابلة الحاج مرسي فرج ليسأله أن يقبل تعيين خطيب سارة في احدى شركاته .

واستقبل الحاج مرسي النائب العام السابق بعد يوم من طلبه اللقاء ، لأنه رأى ألا داعي لأن يظهر لهفة ويحدد موعدا للقاء فور طلبه ، ولأنه كان مازال مترددا في أمر حفيدته محاسن رحب في البداية بزواج فاطمة من يونس ، فقد أصبح لأم محاسن رجل له مركزه الاجتماعي ، وابن ناس يستطيع أن يحافظ على محاسن ويقدم لها رعاية مناسبة . ولا بأس من أن تكون هناك صلة بين حفيدة الأسطى الميكانيكي مرسي فرج وعائلة يونس عائلة البكوات والمستشارين ، ويونس أشبه بحلية وفي وجوده مظهر لا بأس به . ولكن الحاج لا يقف كثيرا عند المظاهر ، وقد تعود أن يزن كل شيء بما يحصل عليه من كسب أو ما قد يلحقه من خسارة ، وهو يفكر في محاسن كوارثة في المستقبل لملايين الجنيهات ، واذا ارتبطت محاسن بأمها فاطمة وزوج أمها يونس ، فان هذه الملايين ستذهب الى فاطمة ويونس . وهو لم يجمع ثرواته ليسلمها لابنه زكريا أو ابن عبد الحميد صفوت . كلاهما فقير ، وكلاهما

مهما احتلت المراكز لا حق له في ان يسلب اموال الحاج مرسي واموال ابنه طلعت . ان الثمن الذي قد دفعه الحاج وابنه مقابل فرحتها بهذه الصلة المطهرية بين محاسن ويونس ابن الدوات ، سيكون ثمنا باهظا ، وها هو ابو يونس يريد ان يستفيد من صلة ابنه يونس بمحاسن ، يريد أن يطبش على نصيبه من الصفقة . هكذا الناس ، والذيب مصالح . وقرر الحاج بينه وبين نفسه أن ينتظر عودة طلعت ليتخذ قرارا في موضوع محاسن .

ورحب الحاج مرسي ، بنسيبه ، وتعمد الا يذكر شيئا عن زواج يونس بمطلقة ابنه طلعت ، وكان يعرف بانهيار عبد الحميد، وقد حكى له شهدى او اللطف انه كان مع عبد الحميد في عشاء نادي السيارات بالاسكندرية ، بعد يومين من زواج يونس ، وصادف أن تحدث المدعوون اثناء العشاء عن فرح كبير سيقام احتفالا بعقد قران ابن أحد الوزراء بنت سفير في الخارجية . وبعد انتهاء العشاء ركب عبد الحميد سيارة شهدى لتوصله الى فندق سسل .. وفوجيء شهدى بالدموع تنهمر من عيني عبد الحميد، وهو يحاول أن يرفع اصابعه خلسة ليمسح دموعه المتساقطة على خديه ..

وهمس شهدى :

ــ مالك ...

قال عبد الحميد بصوت متهدج :

ــ سمعتهم اثناء العشاء يتحدثون عن الفرح ، وتذكرت انى كنت أتمنى انا وزوجتي أن نحتفل بزواج يونس بفرح كبير .. يحضره كل الناس ، لا ان يتزوج بهذه الطريقة في السر وفي مكتب مأذون .

فقال شهدى :

ــ المهم ان يكون مرتاحا ، وكله قسمة ونصيب .

فقال عبد الحميد بحرقة :

ــ كيف يرتاح .. وامه غاضبة عليه .. وانا غاضب عليه .

قال شهدى :

ــ سوف يأتي يوم وتصفحان .

نصوب اليه عبد الحميد عينين دامعتين جاحظتين مبهما غضب وقال :

ــ عدوي هو الذى يطلب منى ان اصفح عنه ، انه يجب الا يدخل بيتي ولا اعرفه .. حتى اموت .

وكان الحاج مرسي واثقا أن عبد الحميد مهما تظاهر بغضبه على ابنه وقطعه لأية صلة به ، الا انه ما جاء الا معتمدا على هذه العلاقة بين يونس ومحاسن .

واستمع الحاج الى عبد الحميد وهو يطرق براسه ، ويفكر برهة ثم قال وهو يزن كل كلمة ينطق بها .. ان طلعت ابنه سيعود قريبا من اليابان بعد ان يفرغ من المشروع الذى يدرسه ويعد له هناك . وانه سيفتتح شركة عالمية دولية لها عدة فروع في الدول العربية ، لتصنيع الآلات والعقول الحاسبة ، وسيدير طلعت الشركة ، وكل ما يستطيع ان يعد به الحاج هو انه سيطلب من طلعت أن يعين المهندس سمير الساهر في الشركة الجديدة .

همس عبد الحميد :

ــ وهل سيطول الوقت ؟

فقال الحاج مرسي بلهجة قوية ساخرة :

ــ يا عبد الحميد بك .. الوقت هو المال .. وهناك من يتصور انى اكتنز المال وكأن كل مهمتى هى أن احصى نقودى .. وهذا لو صح تكون عملا تافها .. فليس عندي مال .. كل ما عندى موظف في مشاريع .. والثروة الحقيقية هى المشروعات والاعمال ، وليست الاموال ..

وقال محاه بلهجة قاسية :

سمعت انك قيدت اسمك في نقابة المحامين .. لماذا لا تعمل .. عندي قضايا استطيع ان ارسلها لك ..

كان الحاج يتحدث — بلهجة فيها نوع من التوبيخ لم يتعود عليه عبد الحميد صفوت ، فليس الحاج هو الذي يعطي الدروس ويشرح الأفكار ، والرجل يتحدث كما لو كان عبد الحميد جاء يتسول منه وظيفة ، ومع ذلك فهو عاجز عن أن يحتج او يواجه التحدي بمثله ، وتمتم بكلمات شكر ، وعاد الى القاهرة ليسمع تعليق الحاجة زهيرة ، التي قالت له ان الحاج مرسي يريد اذلالهم .. وانه قال ان الأمر في يد طلعت ليكون الاذلال مضاعفا .

أما سارة فقالت لنفسها ، ان طلعت يريد ان يقترب منها ، وفكرت في لقاء بينها وبين طلعت وتفننت في مخيلتها الصور والمواقف لاحتمالات هذا اللقاء ، فرأت في خيالها طلعت يسعى ملهوفا وراءها .. وهي تتمنع ، مثلما تمنعت في اول لقاء وهددته بأن تدخله السجن ، ثم تجلت مشهدا بينها وبين طلعت وهي تطلب منه عدوه لسمير زوجها ، وهو يستجيب لانه يضعف امام اغراء ابتسامتها او اغراء عينيها ، ورأته وهو يطاردها بغرام وتطلب منه أن يطلق زوجته ، كما سبق وأن طلق زوجته السابقة التي تزوجها يوسف . ثم تطلق هي سمير ، ساحر الذي لم يعد اكثر من جسر تمر عليه الى طلعت . فتتمكن من ان تكون زوجة المرؤوس ، وأن تكون زوجة الرئيس .

وكانت هذه التخيلات تقلق سارة ، وتضطهدها وتحرمها من راحة النفس والرضا عنها .

وفي احدى نوبات القلق طلبت سارة من سمير خطيبها أن يرفض العرض اذا تقدم به طلعت . وحاولت ان تقنعه بأن يبحث عن عمل آخر ، ولكن سمير رفض ، ولم يفهم ماذا وراء مطلبها

بالشركة التي يعد لها طلعت سوف تنتج الآلات الحاسبة والأجهزة الالكترونية ، وهي صناعة العصر الحديث ومستقبلها أمامه واسعه باتساع الفضاء الكوني ، فماذا يسعى الى عمل آخر ، بينما اعمال كثيرة اخرى مهددة بالزوال وفقدان الاهمية في هذا العصر الذي يشهد الثورة التكنولوجية . وسيكون مقر عمل سمير في بلد عربي ، ويقبض مرتبه بالدينار أو الدولار ، فكيف يتخلى عن هذه الفرصة الذهبية ، الا اذا كان معتوها .

ولم تستطع سارة أن يتكتم عنه ما في نفسها . فقالت له أن طلعت كان يوما ما يريد أن يتزوجها .

سألها بارتياب :

— ولماذا لم يتم الزواج ؟

اجابت سارة

— لاني رفضت الزواج منه ..

فقال سمير متباهيا :

— هذا معناه انه رجل طيب .. اذ يقبل ان اعمل معه .. مع اني الرجل الذي رضيت به من رفضت الزواج منه .

صاحت سارة في غيظ :

— ألا تفكر في احتمال آخر ؟

سألها متعجبا

— أي احتمال ؟

قالت سارة بصوت قاطع

— ان يكون يريد أن ينتقم

فقال سمير بغير اكتراث

— هذه افكار سينمائية .. تليفزيونية يا عزيزتي .

ادركت سارة ، انه غير مستعد لان يقتنع لأي سبب بترك الوظيفة المعروضة عليه . بل انه اذا كان عليه ان يختار بين سارة والوظيفة ، فلن يتردد في اختيار الوظيفة ، انه يحارب

بكل طاقاته من اجل الوظيفة وفي سبيلها مستعد أن يدوس على كل شيء، من قيم أو تقاليد ، ولا يهمه كثيرا زواج وبيت وعائلة وحب . وهي تفهمه ، لأنها أيضا تحارب بكل طاقاتها لتتزوج ، انها تقاتل حتى لا تكون عانسا ، ولسوف تتحمله ، ولسوف تتزوجه ، مهما كانت دمامته .. ولكنها تعرف الآن في قرارة نفسها ، أن قبول سمير لهذه الوظيفة ، عند رئيسه طلعت ، سوف يفرض عليها ما لن تستطيع مقاومته ، ولماذا تقاومه . اذا ما واتت الفرصة، ولابد ان تحين ، لتلتقي بطلعت ويكون أعظم انجازاتها ، هو ان تستسلم له .

وسمعت سمير يقول وكأنه يراجع نفسه او يطمئنها .

— العمل لن يكون في مصر .. ومعنى ذلك اننا سنكون بعيدين عنه .

قالت سارة لنفسها . بعيدين أو قريبين ، سيكون طلعت رئيسك الذي يصدر لك الاوامر التي تنفذها . رئيسك الذي يمنحك أجرك ويكافئك ويعاقبك . ولسوف يأتي يوم تنفتح فيه أمامي أبواب اغراء ، وأبواب شر ، وأبواب ثروات ، وأبواب انتقام ، ولسوف تنطلق من كل هذه الأبواب رياح عاصفة عاتية ، ربما تقتلع كل ما بيني وبينك . انهم يقولون الباب الذي يجيئك منه الريح ، سده واستريح ، ولكنك تفتح كل الأبواب على مصراعيها . ولا أحد من حولي يفكر في اغلاق الأبواب ، كأنهم يتلذذون بأن تجتاحهم العاصفة . فتمحو حياتهم ، وتخلصهم منها . فحياتهم هي المشكلة ، وهي الأزمة والمأزق . وهي الطريق المسدود . والشيء الوحيد الذي يملكونه ، هو ان يتخلصوا من هذه الحياة ، أن يرحبوا بكل ما يضع حدا ونهاية لهذه الحياة .

وعاد طلعت الى الاسكندرية وكان قد عرف بزواج فاطمة ويونس ، برسالة من أمه . وكان الخبر صدمة لطلعت رغم أنه كان يظن أن مثل هذا الحدث سوف يضحكه ، ويجعله يهزأ من هذا الأحمق يونس الذي هبط من عليائه ليتزوج فاطمة .

شعر طلعت بزهوة ، وشعر بلطمة ، كان في تصرف يونس نوعا من التحدي ، أو العناد ، وقال طلعت لنفسه محاولا تفسير هذا الزواج ليسيطر على مشاعره ، بأن هناك نوعا من الناس يبحثون عن العذاب ويتلذذون بايلام النفس واهالة القاذورات فوق رؤوسهم . وقال باحثا عن تبرير آخر ، انه شعر منذ البداية أن يونس وعائلته محوسون ، وانهم ليسوا جديرين بما تقدمه الحياة من نعم لمن يريدها ويقبل عليها . فقد دارت الأيام دورتها المحتومة ، وزالت دولة تلك العائلة ومثيلاتها ، وهم مثل أي كائن حي أصابتهم الشيخوخة ، بعد أن أخذوا حظهم من الحياة ولم يعد أمامهم الا انتظار الموت . وعجزهم بنقصهم وهذا أمر لا شك فيه ، ولا سبيل الى علاجه والتغلب عليه . ولقد اكتشف في اليابان كم كان محدودا هؤلاء المحوسسين الذين يتظاهرون بأنهم من نوعية أرقى من البشر . كان في حفل في بيت للحشـ .. حيث دعاه السيد تاني تاني مدير شركة « ميجا » للصناعات الالكترونية . وقد فزعا من أكل الأسماك النيئة والأعشاب البحرية ، ونافس طلعت اليابانيين في قدرته على أن يأكل أي شيء كان يعرفه أو لا يعرفه . وأعلن استعداده لأن ينافس من يريد ، أكل الحشرات مادامت غير سامة . وشرب الساكي ثم شرب الشاي مع تاني تاني ، وكم كان فرحه عندما سمع مضيفه وهو يكرع الشاي بشهيق قوي له صوت يدوي في جنبات المكان . تذكر زعبرة عندما يوم ذهب يخطب سارة ، وكيف نظرت اليه وهو يشرب الشاي ويأكل الجاتوه ، وقامت تقدم له الفوطة وكأنما تلومه على ما يرتكبه من آثام . وكيف اعتذر لها عن همجيته ، واعتماده على سارة في تهذيب حياته . لقد أخطأ . فها هم اليابانيون من أرقى المهذبين ، يخرجون أصوات لم يخرج مثلها زاكمات زاحفة تجلس لأطباق الطعام وأكواب الشراب . فهي اليابان بكل ما فيها من تقدم ، لاتقف عند المظاهر التي

يمسك بها اولئك الذين خدعوه ، وقالوا انهم من عائلات ذوات ؛ اللمسة عليهم جميعا بمظاهرهم وتقاليدهم البالية المغشوشة .

ولكن طلعت ، كان لا يستطيع أن يمضى فى هذا المنطق ؛ لانه كان يشعر بانقباض مفاجىء فى قلبه ، ويخيل اليه انه يخدع نفسه ، وانه يتباهى بسراب ، ويزهو بلا شىء . وان يونس الذى حصل على فاطمة وحصل على محاسن له رؤية للحياة قد تكون فى نهاية الامر هى التى تكسب وما عداها رؤى خاسرة .

وهنا يشعر بان تصرف يونس فيه حيانه واستقرار لا مبرر لهما . وما كان يخطر بباله ان يونس قادر على ان يحمى فاطمة ومحاسن ، بينما اهلها الحقيقيون ، جميعا لا يهتمون بشىء غير انفسهم . يونس يزعم انه وحده ينتمى الى اصحاب الشرف والكرامة والمروءة .. اما طلعت فهو دودة شرهة لا يعنيها الا ما تلتهمه وتملأ به بطنها او جيوبها .

قال طلعت لنفسه اذا كنت تتحدانى يايونس ، فانا لها .

وما كاد طلعت يستمع الى وجهه نظر ابيه .. فى اهمية بقاء محاسن مع ابيها لا مع امها .. حتى قال :

هذا .. انه امراة تاهت بين الرجال .

— هذا هو مـا يجب ان يكون فلن اترك ابنتى مع يونس

وقال الحاج مرسى ضاحكا :

— ابوه يترافع فى بعض القضايا التى أرسلتها له . وهو يحصل منى على اتعاب لا بأس بها .. فلماذا لا نكلفه بقضية انتزاع محاسن من بيت ابيه .

وتبتم طلعت فى غضب .

— لا قضايا .. ولا مرافعات .. البنت ابنتى ، فمن يقف فى طريقى اذوبه .

الفصل الخامس عشر

كانت فاطمة هى الوحيدة التى بدا عليها انها تعرف وكان شيئا لم يتغير فى حياتها . وهى لم تشعر بان شيئا قد تغير فى يونس بعد الزواج ، فقد ظل كما عرفته ، لها وحدها ، وهى له وحده ، وهما معزولان عن بقية العالم، او محاصران بالعالم . وكلاهما ينظر الى الآخر فيما يشبه دهشة الاطفال ، يكاد يسأل نفسه أو يسأل قرينه .. كيف جمعتنا المقادير تحت سقف بيت واحد .

وكان يونس يذهب الى المعسكر فتمر الايام رتيبة مملة امام فاطمة ، ولكنها لا تختلف عن تلك الايام الرتيبة المملة التى كانت تقضيها وهى تنتظر عودة طلعت من المعسكر . وربما كانت تنتظر يونس بنفس المشاعر والاحاسيس التى كانت تنتظر بها طلعت . فهكذا تعودت ان يكون الانتظار .. تنتظر بجسدها ، وباعداد بشرتها وشعرها وبث العطر فى ثناياه ، والتهيؤ لاستقباله ، باستثارة شهيته للطعام ، والاحتفال بلذات الجسد ، وترحيب انوثتها برجولته . والاحتفاء بوجوده ، يملأ صوته البيت ، ويتحول كانه الى محور يدور حوله كل من تضمهم جدران البيت . هذه هى الثقة التى تعودت ان تأخذها من وجود طلعت . وهى لم تتعود ان تاخذ شيئا آخر باسلوب آخر . ولكنها ما تكاد ترى يونس أمامها ، حتى تكتشف أو تتذكر أنها أمام موقف آخر غير

ذلك الذي تعودت عليه . وهو موقف مختلف تماما ، والرجل الذي جاء يختلف عن طلعت ، وليس في هذا ما يقلل من اهميته ، فهي تحبه ، وتشـــــعر بأن له هيبة ورهبة . وهو يحميها ، ولكنها لا تدري كيف ، وتثق فيه ، ولا تدري كيف . فدهشتها معه دائمة ، وعجبها منه لا ينقطع . وهو يحول حياتها الى نوع من المغامرة العجيبة ، يحقق لها نفسها ، كما لم يحقق مع طلعت .. وينشط لها عقلها كما لم ينشط مع طلعت . يقول لها كلاما لا تتوقعه ، ولابد له أن يشرحه حتى تفهمه ، وأحيانا لا تفهمه مهما شرح وأطال في الشـــــرح ، وقد ينطق بكلمات غريبة أو يطلب منها طلبات غريبة . قال لها ذات مرة انه يريد ان يشرب قهوة بلبن . ضحكت فهي لا تتصور قهوة مخلوطة باللبن . ولم تفهم ما قاله . ولكنه رقيق دائما ، وهي تحاول ان تفهم وأن تتعود ، رغم أن ما يطلبه يبدو تافها احيانا ، أو يثير ضحكها احيانا . ولما عرفت ما الذي يعنيه بالقهوة باللبن ، وجدت أنها شراب سخيف لا معنى له .. ولا علاقة له باللبن المخوج البني المحروق . وكان يصـــر على وضع الاطباق والشوك والملاعق والســـــكاكين ، وترتيب معين للمائدة ، وكان يرفض أن يشرب الشاي بالسكر ، ويضـــــحك ويقول لها انه يعرف أناســـا يغمى عليهم لو عرفوا انها تضع سبع قطع سكر في الشاي . اوشكت في مرات عديدة ان تثور ، وان ترفض ما يطلبه ، أو تتهمه بانه يسخر منها ، ويحرجها ويهينها .. ولكنها كانت تراجع نفســـها في اللحظة الاخيرة . وتقول ان كل ما يطلبه تافه وبسيط . مقابل ما يقدمه لها بوجوده من حماية واهتمام ورعاية . لقد تزوجها وحارب الدنيا كلها من اجلها ، ولولا ذلك ما كانت تعرف ماذا يكون مصيرها ومصير محاسن . لقد احدثت معه ما يوازي بل يفوق كل الاهانات وكل الجروح التي تمس بالكرامة ، فليس ثمة سبيل لاهانه ، مهما فعل ومهما قال ، فهو رجلها . الذي رضي بها زوجة ، وتحمل مسئولية أن اباها زكريا وأمها شفيقة ، وأنها فقيرة ، وأنها مطلقة ، وأنها لم

تتعلم . فاذا كان يتحـــمل كل هذا ويرضى به ، افلا تتقبل وترضى بكلمات يقولها . جارحة او غير جارحة .

انها لا تخاف منه ، بل تخاف نفســها تخشى أن يفلت منها الزمام الذي تضبط به نفســها ، تخشى أن تنتابها ، نوبة جموح وطيش ، فهي تعرف نفسها ، وهي حمقاء رعناء ، ولقد كان طلعت يعرف هذا ، ويعاملها كما كان يقول لها على انها طفل مطيعة ، اما يوسف فيعاملها كما لو كانت شيئا آخر ، لم تتبينه بعد ، ولكنه يعطيها اهمية ، ويبذل جهدا لكي يعلمها ، ولو نجحت ستنقطع علاقتها به .. والتي تقوم على اشياء غير محســــــوسة ولكنها واثقة من وجودها .

ومع ذلك فهي تحاول بغرورها ان تعلم يوسف كيف يتعرف عليها ، وهو خام وبكر ، يتعلم ولا يرفض ولكنه خجول شـــديد الحياء ، كانت ذات مرة في الحمام ، فنادته وســــمعت صوته من الخارج ، ولم تفهم ما الذي يمنعه من فتح الباب والدخول عليها . الیس زوجها ، اليست حلاله ، وليس بينه وبينها تحفظ ووقار في كل لحظة .. ولقد ظنت في بداية معرفتها به . انه من ذلك النوع من الرجال الذين لا يهتمون بجســـــد المرأة ، لانهم عاجزون عن الاستمتاع به ، ولكنها عندما عرفته ، ولم تتبين فيه العجز ، ولكنه ليس نهما ، ولا تنحصر متعته في الاكل والجســـد ، فهو يحب القراءة ، ويسمع موسيقى لا تفهمها ولا تحبها . وتعودت ان تتركه وشأنه . وأن تحبه كما كانت تقول له بعينيها واهداب عينيها ، وعرفت ايضـا أن من حقها ان تدعوه اليها ، لانه لن يأتي اذا لم تشجعه ، ولم يتبين انها مستعدة للقائه ، وها هي تناديه أن يفتح باب الحمام ما كان طلعت في حاجة الى هذا النداء ، بل قد كانت تغلق الباب حتى لا يقتحمها بعينين جائعتين ويفرض عليها ما ليس لها رغبة فيه .

وسمعت صوت يونس - كان مرتبكا - وكان يدعي انه لم يسمع ..

— ماذا تقولين ؟

صاحت

— لماذا لا تدخل ؟

— قال متجاهلا سؤالها .

— أتريدين شيئا ؟

قالت تتجاهل تجاهله

— هل انت مكسوف مني ؟

قال :

— ابدا ..

ابتسمت وهي تراه متجاهلا واقفا وراء الباب ، مرتبكا .. وصاحت وهي تشعر بقوتها ، وانها تعلمه اشياء سوف يجد فيها متعة وصلة أوثق بها ..

واطل عليها ، وجهه محمر ، الخجل واضح ، يتظاهر بأن ما يربكه رذاذ الماء ويدعي انه لا يريد أن يستسلم لطبيعة الاشياء ، لا يريد أن يترك بصمته على جسمها ، هذا هو المهذب الذي أخذه عن أهله ، ويعود عليه في العالم الذي جاء منه . لا يستطيع أن يخرج من عالمه ، ولا أن يغير جلده كما لا تستطيع هي أن تجاربه فيما يعود عليه ولكن أخذه مشكلة . ان انوثتها كفيلة باحتواء هذه المشكلة . ان الانوثة تزداد خصوبة وهي تواجه نفسها ، هذا هو ما يجذب الانوثة الى الذكورة والذكورة الى الانوثة وهي تعرف انها عندما تجيء به بولد ، سوف تنتهي مشاكل الفرقة ، ودنياه التي تختلف عن دنياها . فالولادة سوف تجمع الاضداد ، وتعلو بالامومة فوق الانوثة ، كما يعلو هو بابوته فوق ذكورته بكل ما فيها من فردية وعزلة .

كانت ترى في يونس كيانا عاليا ربما غاليا ، فهو العالي العزيز ، هكذا كانت تحس روحها ، وكانت ترى ان الحمل قد تأخر . والولد يتلكأ في الاعلان عن مقدمه ، لأنها ليست مهيأة بعد لأن تضع في بطنها ابن هذا الرجل . بما له من نبالة واصالة . كانت ترى أن جسدها لم يتهيأ بعد لاستقبال كل المعاني التي يحملها الأب ، والتي سوف يرثها ابنه من خلال جسدها .

وكانت ترقد بجوار يونس في السرير ، أو تجلس أحيانا على حافة السرير تمشط شعرها ، بينما هو يقرأ جريدة ، وهي تستجمع في جسدها كل طاقاتها لتواجه في لحظة قادمة العمل الكبير الذي سوف تقدم عليه وتنجزه . ان تلد ابن يونس . وكانت تهمس في اذنه بصوتها الدافيء الرخيم :

— لابد أن يكون صورة منك ..

فيقول ضاحكا :

— سيكون احسن .. لانه منك .

فكانت تمتلئ فخرا وزهوا ، ولكنها لا تبوح له بسر زهوها اذ كل كلامه يعني انها احسن من ابنه . وهي تخشى أن تنبهه الى ذلك . ولكنها تحب أن تهمس له من وقت لآخر فتسمع منه نفس الاجابة ، فتمتلئ بهذا الفخر والزهو الذي ما عرفته طوال حياتها من قبل مع يونس .

وكانت تحلم بذلك الولد ، الذي هو ابنه وهو يكبر وهي امه وتتعجب كيف تتعامل مع هذا الذي سيكون ابنها ، ولا شك ان اسمه سيكون عبد الحميد صموت ، على اسم جده . وهو اسم غريب تماما عليها . ولكنها لا تتصور ان يكون اسم ابنها زكريا . وهي لا تريد ، ولكنها رغم ذلك تشعر بحنين يوشك أن يبلل الدموع في مآقيها ، وهي تهمس لابنها القادم تناديه .. زكريا .. زكريا .. مستحيل أن يكون اسمه زكريا .

انه عندما يجيء سوف يخرجها تماما من ماضيها وعندما

تصبح أمه ، ستكون امرأة أخرى ، ولن تعرف كيف تتعامل مع تلك الأم التي ستكون هي بلحمها وعظامها . ستكون فاطمة أخرى . أو ربما تموت وهي تلد الولد . لأنه سيقضي على وجودها كما تعرفه ، وهي غير محصنة ضد التغيير التام ولم تشعر بعد بأنها جزء من هذا الكيان الذي يقدمه يونس لها ، حرة تتعامل معه ، لو كان يونس يرقص ، لو كان يغني ، لو كان يعرف كيف يضحك ملء شدقيه وحتى تدمع عيناه ، لو كان يندفع بكل حيوية ، ولكنه لا يفعل . يأكل بالشوكة والسكين ، كميات ضئيلة ، لا يعرف كيف يلتهم ، ولا يرغب بقسوة وطغيان ، بعد أن تزوجته وعيون الجيران تنظر اليها نظرات مختلفة ، ويتحدثون معها بأصوات مختلفة ، أكثر احتراما وأكثر بعدا وأكثر غموضا .

الى متى يستمر هذا الضجيج الذي يتصاعد ويتكاثر في رأسها ، ما معناه ، ما تفسيره . كانت بين اليقظة والنوم ، ورأسها مسندا الى المخدة وأمامها مقعد ، وسجادة ، ودولاب ومرآة . ورائه يقطن . صامتا .

وقال لها بعد أن خلع سترته .

ــ طلعت عاد ..

سألته .

ــ هل قابلته ؟

قال :

ــ لا .. ولكنه أرسل لي سيد العتر .

ــ هتفت غاضبة :

ــ ما شأن سيد العتر ؟

كانت تعرف أنه يريد شيئا خاصا بمحاسن ، وأغضبها أن يلجأ طلعت الى سيد العتر . هل جن ، حتى يقحم سيد في أمورهما الخاصة ؟

قال يونس ، وهو يخرج ورقة من جيب سترته :

ــ كتب خطابا غريبا .. انه يريد محاسن ..

صاحت :

ــ مجنون ..

قال يونس في هدوء :

ــ سألت رجل قانون أعرفه .. قال لي ان لك الحضانة ..

صاحت بشراسة :

ــ قانون .. أو غير قانون .. لن يأخذ ابنتي مني ..

ولحظة سألته في ذعر :

ــ أليس هذا هو ما تريده ؟

قال بسرعة .

ــ طبعا ياحبيبتي .. وهذا هو ما رددت به على خطابه .

اطمأنت ، فاستعادت شراستها كاملة ، وقالت :

ــ قل لسيد العتر .. لو اقترب من هذا البيت .

سأقتله ..

ابتسم وقال في هدوء :

ــ اطمئني ياحبيبتي ..

قالت في غضب :

ــ انه مجرم ..

قال في ثقة :

ــ لن يجرؤ طلعت على أن يفعل شيئا ..

ــ ولكن هذا التأكيد الذي تحدث به يونس ليطمئنها كان يعكس طيبة ، لم تكن تدركها في فهم طبائع البشر . لأن يونس لا يتصور أن يحكم على الناس بأنهم أشرار ، أو أنهم قادرون على خرق القوانين وارتكاب أبشع الموبقات ، وهو يسمع عن الجرائم ، وعن الشرور التي يرتكبها البشر ، كما لو كان يسمع قصصا وحواديت خيالية ، لأنه يعجز عن تمثل الشر في نفسه . ولكن فاطمة ، كانت تعرف مغزى ارسال سيد العتر .

انه انذار واضح ، وتهديد سافر ، بأن طلعت ينوى شرا ، اذا
ب رفضت طلبه .

وجهت فاطمة كل غضبها الى يونس وسألته :

— لماذا لا يجرؤ طلعت ان يعمل شيئا . من اين لك هذه الثقـــة ؟

قال في غير فهم :

— لأنه لن يرتكب جريمة .

صـــاحت :

— انه يرتكب الف جريمة وجريمة .

واجهشت بالبكاء وهي تقول :

— لن تدعهم ياخذون ابني مني .

فتقـــدم منها ، واحاطها بذراعيــه . لقد بدا يفهم كيف خ طلبه ، بدا يستبين بالمهمة التي ستستريح لها . وقال وهو ربت على كتفها بصوت هامس :

— قلت لك اطمئني ..

قالت بصـــوت مـــستكين .. ولكنه يحمل كل ماديها من صـــرار :

— وما الذي ستفعله . وانت مسافر غدا .. ؟

قال بنفس الهدوء :

— لن ياخذوا منك محاســـن .. لاني سادافع عنك .. وسامنت واهدى ابنت بروحي . ولن يحدث شيء مثل المعسكر وهنا ساعتان لا اكثر .

وصدقته . وارتجف جسدها من صدق لهجته ، وتمنت لو كان اختار كلمات اخرى غير التي تفوه بها .

وكان هذا الوعد الذي قطعه يونس على نفسه . يعني انه مقبل على مواجهة خطيرة مع طلعت ، الذي كان قد اصدر اوامره لسيد العتر قائلا موحشة :

— اذهب وقل لبنت الكلب .. اني اريد ابنتي .. اسمع خذ هذا الخطاب واعطه ليونس .

وقد لجأ طلعت الى هذا الأسلوب الهمجي ، بعد ان وقع في بحديث معه ، وكان واثقا ان هذا اللقاء سوف يتم ببساطة ، كما حدث في آخر لقاء لهما بفندق فلسطين .

وامسك طلعت بالتليفون ، وادار الرقم ليسأل عن يونس . و دا بدء تتجمد ، وشعر انه لا يستطيع ان يتكلم مع يونس . وانتابه غيظ شـــديد من نفســه . وارسل يطلب سيد العتر ، وطلب منه أن يحمل خطاب ليونس . لم يتردد في أن يجـــهر بصوته ..

وكان سيد حاقدا على فاطمة ، ولكن حقده على يونس كان اكبر . فاختار يونس له ، ليس له مثيل ، انه يتـــاب حقـــد قديم دون أو يحب أن يزول ، وهو يلوم يونس لانه احد ســـبب مطلبه وهدده ، ولما ظن انه لن يعود لفاطمة حشمة بسبب ابيه ، اذا به يتزوجها . كان يونس ينافسه في تحدي الناس ، كان يعرف انه ليس معقلا كما كان يظن ، بل هو شـــجاع وجريء ، وانه حصل على فاطمة بقوته على سيد في الشجاعة والجراءة . كان سيد يظن انه سيستغل يونس ، فاذا بيونس هو الذي يستغل سيد . لقد وصل الى فاطمة بتهديده لسيد ، حصل على جسدها ، لانه لوح بايداع سيد وسجنه . وحرمه من نقود كثيرة ساعدته في الحصول على فاطمة ، مرفض شراء الـــدرة ، وتبع ولده بل يحصل ، لابد انه قال لامه انه لا يثق في سيد ، ولقد اضطر الى تلك السيارة بعد ان وجد النائب العام مطرده ليســـأل متى يفحص رجال العقد رائت موتور السيارة .. قال له :

— السيارة اخذها صاحبها وسافر الى الصعيد يا سعادة الباشا .. ولا ادري ماذا حدث له ؟

وبعد ايام كان العقيد رافت يطلب سيد العتر .. ويسأله عن السيارة .. اين ذهبت ، ومن صاحبها ، وما اسمه .. وسيد لا يعرف اسم صاحبها .. انهم ينادونه المعلم بهنسى .. هذا هو ما يعرفه ، كيف يأخذ سيارة ويركبها من رجل لا يعرفه ولماذا يأتمنه هذا الرجل وليس بينهما سابق معرفة .. كان العقيد رافت يحاصره بالاسئلة .. وحلقات الاتهام تضيق ..

حتى قال له العقيد رافت :

— السيارة اوصافها تنطبق على اوصاف سيارة مسروقة من شارع كفر عبده منذ شهرين .

قال سيد مدافعا عن نفسه .

— وهل انا مجنون حتى اذهب بسيارة مسروقة الى سعادة الباشا ليشنقني .

لم يصدقه العقيد رافت تماما . فعبد الحميد صفوت اخبره ان السيارة اختفت بعد ان طلب فحص محركها . وهذا دليل على ان سيد العتر كان يعرف انها مسروقة . ومع ذلك ، لن يثير العقيد رافت الامر الى ابعد من هذا ، لانه لا يملك دليلا ملموسا، والسيارة غير موجودة . ولن تكون هذه القضية التي يدخل فيها النائب العام ، هي القضية المناسبة التي يتم فيها القبض على سيد العتر .

وادرك سيد انه مراقب ، وان اية محاولة لاستئناف نشاطه الليلي سوف تعرضه لخطر محقق . وبعد احالة النائب العام الى المعاش سقطت الدعامة التي كان يستند اليها سيد . الايام لم تعد هي الايام . والكل يجد ما يحصل عليه في هذه الدنيا الا هو .. والمال يشح بين يديه ، ومنيرة لم تعد تعتمد عليه ، ولو استمر الحال على ما هو عليه ، فلن تكون للحياة معنى . وعليه ان يتدبر امره ، لانه لن يقبل الهزيمة ، ولن يستسلم .

وكان سيد قد تودد الى عبد الحميد صفوت في محاولة

الاحتفاظ بعلاقة طيبة معه ، خشية ان يثير العقيد رافت قضية السيارة التي كان سيشتريها سعادة الباشا النائب العام .. وذهب سيد مع احد التجار المتهمين بتهريب بضائع في الجمرك . وقابل عبد الحميد صفوت وهو محام اثناء وجوده بفندق سيسل ليترافع في قضية ارسلها له الحاج مرسي فرج .

وجلس سيد مع التاجر في حجرة عبد الحميد صفوت ، وشاهد سيد التاجر وهو يعطي للأستاذ خمسمائة جنيه مقدم اتعاب . وشرب مع الباشا الذي كان نائبا عموميا القهوة ، وتبادل معه الحديث ، كأي زبون يتحدث مع محاميه .

وحدث اثناء تلك الجلسة ان قال سيد لعبد الحميد صفوت :

— نفسي اخدمك ياسعادة الباشا ..

قال عبد الحميد بامتنان :

— اشكر لك هذا الشعور .. ياسيد ..

فقال سيد بحماس :

— لا تشكرني يا باشا .. قل ما الذي تريده .. وانا افعله ..

قال الباشا وهو يتنهد ويزفر انفاسا ضجره ..

— الانسان يريد .. ولكن مشيئة الرحمن فوق ارادة البشر ..

قال سيد :

— بصراحة ياباشا .. اريد ان افتح معك موضوعا .. لا ادري كيف ابدا فيه .

نظر اليه عبد الحميد نظرة حزينة . كان يعرف ما الذي يعنيه سيد ، ولكنه عاجز عن ان يقول شيئا .

فقال سيد :

— ما رايك ياسعادة الباشا .. لو خلصت ابنك من الورطة التي وقع فيها .

قال عبد الحميد بلهجة آلية ، حزينة ، وهو يزفر هواء ثقيلا من صـــــدره :

ـ ياريت ...

ولمعت عينا سيد ، ولمح فيهما النائب العام ، المحقق الذى واجه فى حياته بالنيابة والقضاء مئات المجرمين . شيئا لم يسترح له ..

تسال سـيد :

ـ ما الذى تعنيه ياسيد ؟

وفتح سـيد فمه ليتكلم . فاذا بعبد الحميد صـفوت يرفع يده ، وقد أصابه ذعر مفاجىء وهو يقول بانفعال :

ـ لا تقل لى شيئا .. ياسيد .. لا تقل شيئا .

قـال سـيد :

ولكنك حزين ياسعادة الباشا ..

همس عبد الحميد :

ـ هذه مشيئته ..

قال سـيد فى اصـرار :

ـ اعدك يا باشا .. بان تعود الفرحة الى قلبك .. ويومها ستكون لى الحلاوة باذن الله ..

وابتسم عبد الحميد صـفوت . وكأنه نسى المخاوف التى حدثها بها قلبه ، وكاد أن يراها فى عينى سيد العتر عندما بدا معه الحديث عن يونس وفاطمة .

عندما سمع سيد اوامر طلعت . قال لنفسه ، ها قد واتتك الفرصة ، فلما عاد الى طلعت ومعه رد يونس ، بانه يعتقد ان زوجته لن تفرط فى ابنتها ، وانه استشار العارفين بالقانون ، فوجد أن من حقها الاحتفاظ بحضانة ابنتها . وجد فى ثورة طلعت كل ما يشتهيه . ومضت أيام ثم استدعاه طلعت وقال له ..

ـ اسمع ياسيد .. اذهب .. واحضر محاسن ..

قال سيد وهو يفكر فى ان يونس مازال فى المعسكر بعيدا عن بيته :

ـ واذا اعترضت امها ..

ـ لا يهمك .. فاطمة بنت زكريا .. لن تقف فى طريقنا .. اضربها .. وخذ منها البنت ..

ـ واذا صـرخت ..

صاح طلعت :

ـ اكتمها .. وخذ البنت .

قال سيد :

ـ وتحميني ..

قال طلعت :

ـ من يجرؤ على اعتراضك ؟

قال سـيد :

ـ زوجها .. يونس سوف يعود ويعرف ..

قال طلعت وهو يبصق :

ـ يونس هذا .. امـرأة .. أن ما اطلبه منك .. هو ما اريده .. ويريده ابى ..

قال سيد مكملا :

ـ وهو ما يريده ايضا ابوه ..

صاح طلعت :

ـ ماذا تنتظر .. سأعطيك ما تريد ..

وخرج سيد ، ولكنه لم يذهب الى فاطمة ، كان يريد ان يخلو نفسه ويفكر بهدوء ، لقد طال شوقه لان يفعل شيئا يثبت به وجوده .. وهو الآن يستطيع ان يدخل على فاطمة ، وهو يستند الى قوة هائلة . لقد حصل على موافقة الاب . الذى لم يعترض وهو يقول له أنه سيخلص ابنه من ورطته ، وها هو طلعت وابوه الحاج مرسى فرج يريدان ابنتهما ، وسيقف الجميع

معه ، وسيدافعون عنه . سيأخذ محاسن عنوة ، وإذا قاومته فاطمة فسوف ينهرها ، لن يترك لها فرصة للصياح كما حدث في المرة السابقة ، سوف يكتم أنفاسها ، وسوف يغتصبها . فهذا هو الضمان له . لانها لن ترفع رأسها بعد ذلك قد تنتحر ، قد تذهب الى مثير . ولكنها لن تقول أبدا ان سيد اغتصبني . اذا عرف يونس ، لن يهلل ويزعق ويقول للناس ان زوجته اغتصبت ، نظر سيد الى ساعته ، وقرر ان مازال امامه بعض الوقت ، ليشرب زجاجتين بيرة قبل ان ينفذ مهمته وهو لا يدرى ان هذا التأخير سيكون سببا في المأساة وشيكة الوقوع .

بعد ان خرج سيد العتر من عند طلعت جاء الحاج مرسى يزوره في مكتبه .

وقال له ان سارة شقيقة يونس مخطوبة الى مهندس يرجو عبد الحميد صفوت تعيينه .. وان الحاج وعد بان يتوسط لدى طلعت ليقبل هذا التعيين .

شتم طلعت بكلمات بذيئة . وفجأة صاح :

ـ انهم يشحتون الوظائف .. وأنا سأملى شروطى .

وطلب طلعت ، يونس في المعسكر ..

وسمع يونس صوت طلعت يزعق .

ـ أريد البنت ..

قال يونس :

ـ هذا أمر متروك لأمها ..

صاح طلعت :

ـ وحياة أمك أنت .. البنت لابد وان تعود الى ..

قال يونس :

ـ المسألة ليست بالقوة ..

قال طلعت مهددا :

ـ اسمعنى جيدا يا ابن زهيرة .. مصير شقيقتك في يدى زوجها يعمل عندى .. وزوجتك ليست أكثر من خادمة رهن اشارتى ..

صاح يونس في هياج :

ـ اخرس .. يا قليل الأدب ..

قال طلعت ساخرا :

ـ سترى ..

وانقطعت المكالمة ، وقال كلارك ليونس :

ـ اذهب فورا الى زوجتك .. ان طلعت بعد هذا التهديد سيتحرك بسرعة ..

دق جرس الباب ، وفتحته فاطمة لتجد امامها سيد العتر .

قبل ان تفتح فمها بكلمة ، كان قد عاجلها بلكمة واسقطت مغشيا عليها . وكانت محاسن تصرخ ، وتردد سيد لحظة بين اختطاف محاسن في الحال ، واطفاء رغبته في الجسد الملقى أمامه ، وقبل ان يتخذ قراره ، رأى يونس يهاجمه ، لم يتردد لحظة واحدة في اخراج مطواه من جيبه وغرسها في صدر يونس فلما رآه يهوى الى الأرض ، انطلق هاربا لا يلوى على شيء ..

في تلك اللحظة ، وبينما دماء يونس تسيل ، كانت فاطمة تفيق لترى يونس ملقيا على الأرض ، مضرجا في دمائه ، جسده يرتعش رعشة الاحتضار وهي عاجزة عن الفهم ، عاجزة عن الصراخ ، عاجزة عن الحركة .

في تلك اللحظة ، وبينما دماء يونس تسيل ، كان عبدالحميد صفوت النائب العام السابق ، يقول للمهندس سمير الساهر انه واثق ان الحاج مرسى فرج سيكون عند وعده ، وان طلعت عاد، وسوف يسافر الى الاسكندرية ويذكر الحاج بوعده .. وكانت سارة تنظر الى سمير نظرات ظاهرها الاستسلام ، وباطنها الاحتقار في انتظار لقاء قادم مع طلعت لتنتقم .

فى تلك اللحظة وبينما دماء يونس تسيل ، كان الحاج مرسى يقول لطلعت ، انه تحدث مع يونس برعونة . وان التعامل مع الضعفاء لا يكون بالعنف ، فاللين والعطف تأثيرهما اكبر وعائدهما أفضل من الخشونة والعنف . وكان طلعت يقول لأبيه ، أنه لا يطيق رخامة الضعف ، وبلادة العجز وانه لا يتحمل اولئك الذين يتلكاون ويضعون العقبات ويضيعون الوقت فيما لا طائل من ورائه .

فى تلك اللحظة وبينما دماء يونس تسيل ، شعرت الحاجة زهيرة بألم حاد فى صدرها ، وأطلقت آهة وصــاحت تطلب من الخادمة كوب ماء لتبتلع قرصا مهدئا بدات تجربه صباح اليوم فى تلك اللحظة وبينما دماء يونس تسيل ، كان مســتر كلارك يحدث نفسه بانه غير واثق ان لدي يونس من القدرات ، ما يستطيع بها ان يدافع عن نواياه .

وكانت دماء يونس مازال تسيل ، حينما أطلقت فاطمة صرخات الهول وارتفع صياحها فى الحى ان قتلتوه يا مجرمين ..

(تمت)

رقم الايداع بدار الكتب
٩٦/٨٣٤٨
I.S.B.N.977-01-4910-1